متشابه القرآن و مختلفه / الجزء الأول

باب ما يتعلق بأبواب التوحيد

باب ما يدخل فى أبواب العدل

باب مما جاء فى النبوات

متشابه القرآن و مختلفه / الجزء الأول

تأليف الشيخ محمد بن علي بن شهرآشوب المازندراني

[٢]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين و الصلاة على محمد و آله الطاهرين قال محمد بن علي بن شهرآشوب المازندراني رضي الله عنه سألتم وفقكم الله للخيرات إملاء كتاب في بيان المشكلات من الآيات المتشابهات و ما اختلف العلماء فيه من حكم الآيات و لعمري إن لهذا التحقيق بحرا عميقا و لا يكاد يوجد منه إلا ألفاظ في كتب كبار المتكلمين أو نكت في بعض تفاسير المحققين العدليين و قلما يحضر ذلك للطالبين فأجبتكم إلى ذلك مع تقسم الفكر و ضيق الصدر و شغل القلب و وعثاء السفر و فقدان الكتب فمنها ما ابتدأناه و منها ما سبقنا إليه فحررناه و منها ما وجدناه مختلا فحققناه و المتشابه ما لا يعلم المراد بظاهره حتى يقترن به ما يدل على المراد منه لالتباسه و قال ابن عباس المحكم الناسخ و المتشابه المنسوخ و قال مجاهد المحكم ما لم يشتبه معناه و المتشابه ما اشتبهت معانيه و قال الجبائي المحكم ما لا يحتمل إلا وجها واحدا و المتشابه ما يحتمل وجهين فصاعدا و قال جابر المحكم ما يعلم تعيين تأويله و المتشابه ما لا يعلم تعيين تأويله و قيل ما لا ينتظم لفظه مع معناه إلا بزيادة أو حذف أو نقل و سمي متشابها لأنه يشبه المحكم و قيل لاشتباه المراد منه بما ليس بمراد و المتشابه في القرآن إنما يقع فيما اختلف الناس فيه من أمور الدين نحو قوله وَ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى عِلْمٍ وَ أَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ و منها أن يحتمل معنيين أو ثلاثا أو أكثر فيحمل على الأصوب مثل يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ * و تَجْرِي بِأَعْيُنِنا و منها ما يزعم فيه من مناقضة نحو فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ و قوله فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ و قوله فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ و منها ما هو محكم فيه غرضه مثل قوله لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ و ما يتبع ذلك من الغوامض التي يحتاج إلى بيانها و يستخلص منها إما بموضوع اللغة أو بمقتضى العقل أو بموجب الشرع و الحكمة في إنزال المتشابه الحث على النظر الذي يوجب العلم دون الاتكال على الخبر من غير نظر و ذلك أنه لو لم يعلم بالنظر أن جميع ما يأتي به الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) حق لجوز أن يكون الخبر كذبا

و بطلت دلالة السمع و فائدته ثم إن به يتميز العالم من الجاهل كما قال وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ثم إنه منزل على لغة العرب و من عادتهم الاستعارة و المجاز و التعريض و اللحن و قد يكون محكما من وجه و متشابها من وجه كالمعلوم و المجهول فتصح الحجة من وجه المعلوم دون المجهول و الشبهة ما تتصور بصورة الدلالة و أسبابها كثيرة منها اتباع هوى من سبق إليه و الثاني أن يدخل عليه شبهة فيتخيله بصورة الصحيح و الثالث التقليد و الرابع ترك النظر و الخامس نشء على شيء صار إلفه فيصعب عليه مفارقته و غير ذلك و أسأل الله المعونة على إتمامه و أن يوفقني لإتمام ما شرعت فيه من كتاب أسباب نزول القرآن فإن بانضمامهما يحصل جل علوم التفاسير إنه ولي ذلك و المنعم بطوله .

باب ما يتعلق بأبواب التوحيد

قوله تعالى : هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ الظاهر يقتضي أنه خلق الأرض قبل السماء لأن ثم للتعقيب و التراخي و قال في موضع أَ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ بَناها وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها ليس بينهما تناقض لأنه تعالى خلق الأرض قبل السماء غير مدحوة فلما خلق السماء دحاها بعد ذلك و دحوها بسطها و منه أدحية النعام لأنها تبسطها لتبيض فيها و يجوز أن لا يكون معنى ثم و بعد في هذه الآيات للترتيب في الأوقات و التقديم و التأخير فيها إنما هو على جهة تعداد النعم و الأذكار بها كما يقول القائل لصاحبه أ ليس قد أعطيتك ثم حملتك ثم رفعت منزلتك ثم بعد هذا كله أخلصتك لنفسي و يقال بعد بمعنى مع نحو قوله عُتُلٍّ بَعْدَ ذلِكَ زَنِيمٍ و يقال بمعنى قبل نحو قوله وَ لَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ .

قوله سبحانه : وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَ الْأَرْضُ بِأَمْرِهِ بلا دعامة تدعمها و لا علاقة علق بها بل إن الله تعالى يمسكها حالا بعد حال لأعظم دلالة على أنه لا يقدر

عليه سواه و لو اجتمعت الجن و الإنس على إمساك تبنة في الهواء أو إثبات تربة على الماء لعجزوا

بنى السماء فسواها بلا عمد *** و لم تمد بأطناب و لا عمد

[٤]

خَلَقَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها أي ليس لها عمد يسندها لأنه لو كان لها عمد لرأيتموها فلما لم تر دل على أنه ليس لها عمد و لو كان لها عمد لكانت أجساما عظيمة حتى يصح منها إقلال السماوات و لو كانت كذلك لاحتاجت إلى عمد آخر فكان يتسلسل فإذا لا عمد لها بل الله يمسكها حالا بعد حال بقدرته التي لا توازيها قدرة قادر و قال مجاهد لها عمد لا ترونها

و سأل الحسين بن خالد الرضا (عليه السلام) عن قوله وَ السَّماءِ ذاتِ الْحُبُكِ فقال (عليه السلام) : محبوكة إلى الأرض و شبك بين أصابعه .

لعله (عليه السلام) أراد بذلك قوله وَ الْأَرْضَ مَدَدْناها وَ أَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ لأنه لو كان لها عمد لكانت أجساما عظيمة كثيفة لأنه لا يقل مثل السماوات و الأرض إلا ما فيه الاعتمادات العظيمة و لو كانت كذلك لرأيناها و لأدى إلى التسلسل .

قوله سبحانه : وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ كانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ ظاهر الآية يقتضي أن العرش الذي تعبد الله الملائكة بحمله كان مخلوقا قبل السماوات و الأرض و قد اختاره المرتضى و قال الجبائي في الآية دلالة على أنه كان قبل السماوات و الأرض الملائكة لأن خلق العرش على الماء لا وجه لحسنه إلا أن يكون فيه لطف لمكلف أو يمكنه الاستدلال به فلا بد إذا من حي مكلف و قال الرماني لا يمتنع أن يتقدم خلق الله لذلك إذا كان في الإخبار بتقدمه مصلحة للمكلفين و هو اختيار الطوسي .

قوله سبحانه : إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبابِ وجه الاحتجاج بخلق السماوات على الله تعالى و لم يثبت بعد أنها

مخلوقة أن تعاقب الضياء و الظلام يدل على حدوث الأجسام ثم إنها على تقدير كونها مخلوقة قيل الاستدلال به لأن الحجة به قامت عليه من حيث إنها لم تنفك من المعاني المحدثة .

قوله سبحانه : إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ أَنْ تَزُولا استدل الرماني بهذه الآية

[٥]

على أن السماوات غير الأفلاك لأن الأفلاك تتحرك و تدور و السماوات لا تتحرك و لا تدور و هذا غير مرضي لأنه لا يمتنع أن يكون السماوات هي الأفلاك و إن كانت متحركة لأن قوله يُمْسِكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ أَنْ تَزُولا معناه لا تزول عن مركزها الذي تدور عليه و لو لا إمساكه لهوت لما فيها من الاعتمادات سفلا

فصل :

قوله تعالى : رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ و في موضع رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَ رَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ و في موضع فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَ الْمَغارِبِ أراد بالأول موضع الشروق و الغروب لأن المفعل من يفعل و يفعل اسم الموضع منهما كالمذهب و المدخل أما المشرق و المغرب فيجوز فيهما كسر العين و فتحها و أما الثاني عنى به مشرق الشتاء و مشرق الصيف و كذلك المغرب و ذلك أن مشرق الشتاء قريب فالليل أطول من النهار و كذلك المغرب و أما الثالث عنى به منازل الشمس في الشروق و الغروب لأن للشمس ثلاث مائة و ستين منزلا تطلع كل يوم من منزل و تغرب في منزل و كذلك القمر لأن القمر يجاوز المنازل في شهر و الشمس تجاوزها في سنة .

قوله سبحانه : قُلْ أَ إِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ و قال فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَواءً لِلسَّائِلِينَ و قال خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ أما قوله فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ يريد مع اليومين الأولين لأن خلق الرواسي و غير ذلك من تمام خلق الأرض و ذلك كما تقول خرجت من بغداد إلى الكوفة في خمسة أيام و إلى مكة في ثلاثين يوما فيكون المبتدأ في جملة الثلاثين و إنما خلقهما في هذا المقدار مع قدرته أن يخلقهما في

أقل من لمح البصر لأن الأمور جارية في التدبير على منهاج و لما علم في ذلك من مصالح الخلق في الترتيب ليدل على صانع حكيم و في إظهارهما كذلك مصلحة للملائكة و غيرهم .

قوله سبحانه : وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِساطاً و قوله الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِراشاً استدل أبو علي على بطلان ما يقوله المنجمون من أن الأرض كروية الشكل و هذا إنما

[٦]

يدل على أن بعضها مسطوح لا جميعها و المنجمون معترفون بأن بعضها مسطوح .

قوله سبحانه : أَ فَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ... الآية لما كانت العرب منفردين عن الناس و السماء لهم سقفا و الأرض لهم وطأ و الجبال أمامهم و هي كهف لهم و حصن و الإبل ملجأهم في الحل و الترحال أكلا و شربا و ركوبا و حملا نزلت الآية و ليست الفيلة بأدل على الله تعالى من البقة و لا الطاوس من القردة فلذلك قرن الإبل بالسماء و الأرض بالجبال .

قوله سبحانه : هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ * هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ قال الجبائي معناه خلقكم من آدم و آدم من تراب و قال الطوسي معناه خلق أباكم الذي هو آدم و أنتم من ذريته و هو بمنزلة الأصل لنا من طين فلما كان أصله من الطين جاز أن يقول خلقكم من طين و قال غيره أي خلقكم من الأرض و الأول أقوى قال الحسن لم يخلق الله آدم إلا للأرض أن عصى و إن لم يعص و لو لم يعص لخرج على غير تلك الحال و قال غيره يجوز أن يكون خلقه للأرض و لغيرها و إن لم يعص و هو الأقوى لأن ما قاله الحسن لا دليل عليه .

فصل :

قوله تعالى في خلق آدم خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ و في موضع مِنْ طِينٍ لازِبٍ و في موضع مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ و في موضع مِنْ صَلْصالٍ كَالْفَخَّارِ لا تناقض فيها لأنها ترجع إلى

أصل واحد و هو التراب فجعله طينا ثم صار كالحما المسنون ثم يبس فصار صلصالا كالفخار

قوله سبحانه : خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها و ثم يقتضي المهلة و التراخي و ذلك يقتضي أن الله تعالى خلق الخلق من آدم ثم بعد ذلك خلق حواء الجواب أن ذلك و إن كان مؤخرا في اللفظ هو مقدم في المعنى كقول القائل قد رأيت ما كان منك اليوم ثم ما كان منك أمس أو أنه معطوف على معنى واحد كأنه قال من نفس واحدة بمعنى

[٧]

وحدها ثم جعل منها زوجها ففي واحدة معنى خلقها وحدها و لا يمتنع أن يكون المراد بقوله زوجها غير حواء بل يريد المزوج من نسل آدم من الذكور و الإناث فكأنه تعالى قال هو الذي خلقكم من نفس واحدة و هي آدم ثم جعل المزوج من نسل تلك النفس و هذا متأخر عن خلق النفس الواحدة التي هي آدم و إن سبب دخول ثم للاعتداد بهذه النعمة و الذكر لها على سبيل الامتنان إنما كان بعد ذكر خلقها من نفس واحدة فكأنه قال هو الذي ذكر لكم و اعتد عليكم بأنه خلقكم من نفس واحدة ثم عطف على هذا الاعتداد و الامتنان ذكر نعمة أخرى و هي أن زوج هذه النفس المخلوقة مخلوقة منها فزمان الخلق للزوج و إن كان متقدما فزمان ذكره و الاعتداد به غير زمان وجوده فلا يمتنع أن يكون الترتيب في زمان الذكر و الاعتداد غير الترتيب في زمان الإيجاد و التكوين كقولنا لي عليك من النعمة كذا اليوم ثم كذا أمس المراد بثم الواو و قد يستعمل الواو بمعنى ثم فثم بمعنى الواو و هو الجمع و الانضمام نحو قوله فَإِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ معناه و الله شهيد و قوله وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ .

قوله سبحانه : وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ ... الآية فيها دلالة على أن الإنسان هو هذا الجسم المشاهد لأنه المخلوق من نطفة و المستخرج من سلالة دون ما يذهب إليه معمر و غيره من أنه الجوهر البسيط أو شيء لا يصح عليه التركيب و الانقسام .

قوله سبحانه : خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ أي أصلك من تراب إذ خلق أباه من تراب و يصير إلى التراب و قيل لما كانت النطفة يخلقها الله بمجرى العادة من الغذاء و الغذاء نبت من تراب جاز أن يقال خلقك من تراب لأن أصله من تراب كما قال من نطفة و هو في هذه الحال خلق سوي حي لكن لما كان أصله كذلك جاز أن يقال ذلك و الوجه في خلق البشر و غيره من الحيوان و نقله من تراب إلى نطفة ثم إلى علقة ثم إلى صورة ثم إلى طفولية ثم إلى حال الرجولية ما في ذلك من الاعتبار الذي هو أدل تحد على تدبير مدبر مختار يصرف الأشياء من حال إلى حال لأن ما يكون بالطبع يكون دفعة واحدة كالكتابة التي يوجدها بالطبائع من لا يحسن

[٨]

الكتابة فأما إنشاء الخلق حالا بعد حال دل على أنه عالم مختار .

قوله سبحانه : وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ... الآية تعلقت الحشوية بذلك و ألحقوا به

الخبر ؛ الأرواح جنود مجندة فقولهم باطل لأنه قال مِنْ بَنِي آدَمَ و لم يقل من آدم و قال مِنْ ظُهُورِهِمْ و لم يقل من ظهره و قال ذُرِّيَّتَهُمْ و لم يقل ذريته و أي ظهر يحتمل هذه الذرية و أي فضاء يتسع و لفظ الذرية إنما يقع على المولود و لا يكون في الصلب ذرية و يوجب أن يكون المأخوذ منهم ذرية آدم لصلبه و لا يدخل أبناء الأبناء و من بعدهم لأن الذرية إنما تطلق على ولد الصلب و ما عداه مجاز يعرف ذلك بدليل آخر دون ظاهر اللفظ و معلوم أن الولد يخلق من المني و إنما يحدث من الإنسان حالا بعد حال و يستحيل من الأطعمة و كيف يجتمع في صلب واحد جميع ما يكون من عقبه إلى يوم القيامة من المني و الإشهاد إنما يصح ممن يعقل و يكون الجواز عنه مستحيلا و الله تعالى رفع القلم عن الصبي حتى يبلغ و لم يلزمه معرفته و الذرية المستخرجة من ظهر آدم إذا خوطبت و قررت لا بد أن يكون كاملة العقول مستوفية التكليف لأن ما لم يكن كذلك يقبح خطابهم و تقريرهم و إشهادهم و إن كانوا بصفة كمال العقل وجب أن يذكرها و لا يعد إنشاءهم أو كمال عقولهم تلك الحال فإن الله تعالى أخبرنا بأنه إنما أقررهم و أشهدهم لئلا يدعوا يوم القيامة الغفلة عن ذلك أو يعتذروا بشرك آبائهم و إنهم

نشئوا بين أيديهم و هذا يدل على اختصاص ببعض ذرية ولد آدم و هو الصحيح فإنه خلقهم و بلغهم على لسان رسله معرفته و ما يجب من طاعته فأقروا بذلك لئلا يقولوا إنا كنا عن هذا غافلين و إن الله تعالى لما خلقهم و ركبهم تركيبا يدل على معرفته و يشهد بقدرته و وجوب عبادته و أراهم العبر و الآيات و الدلائل في غيرهم و في أنفسهم كان بمنزلة المشهد لهم على أنفسهم و إن لم يكن هناك إشهاد و لا اعتراف على الحقيقة و يجري ذلك مجرى قوله ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً .

قوله سبحانه : وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَ حِكْمَةٍ قوله وَ إِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ ليس يوجب اللفظ أن يكون أخذ الميثاق عليهم في وقت واحد و مكان

[٩]

واحد بل يكون معناه أخذ ميثاق أمم النبيين بتصديق نبيها و العمل بما جاءهم به و يقال أخذ العهد بما نصب لهم من الحجج الواضحة و البراهين الساطعة الدالة على توحيده و عدله و صدق أنبيائه و رسله و يمكن أن يكون ذلك ما روي في تقرير الأنبياء (عليهم السلام) على ولاية علي (عليه السلام) على ما بيناه في كتبنا .

قوله سبحانه : وَ إِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ وَ رَفَعْنا فَوْقَكُمُ الطُّورَ هذا الميثاق هو المعنى في قوله وَ إِذْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ... الآيات .

قوله سبحانه : فِطْرَتَ اللَّهِ و قوله مِنَ النُّذُرِ الْأُولى و قوله وَ ما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ و قوله لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ فليس فيها شيء من دعواهم أنه مسح ظهر آدم و استخرج منه الذرية و أشهدها على نفوسها و أخذ إقرارها بمعرفته و قد بينا فساده في الآية الأولى

فصل :

قوله تعالى : وَ قُلْنا يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ روي أن الله ألقى على آدم النوم و أخذ منه ضلعا فخلق منه حواء و روي أنه خلقها من فضل طينته قال الرماني و جماعة من المفسرين ليس يمتنع أن يخلق الله حواء من جملة جسد آدم بعد أن لا يكون جزءا مما لا يتم كون الحي حيا إلا معه لأن ما هذه صفته لا يجوز أن ينقل إلى غيره أو يخلق منه حيا آخر حيث يؤدي إلى أن لا يصل الثواب إلى مستحقه لأن المستحق لذلك الجملة بأجمعها .

قوله سبحانه : ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ لا يجوز أن يكون لإنسان واحد قلبان لا يؤدي إلى أن لا ينفصل إنسان من إنسانين كأنه ربما يريد بأحد قلبيه ما يكرهه بالقلب الآخر أو يشتهي ما لا يشتهي الآخر أو يعلم ما لا يعلم الآخر فيصير كشخصين و قال بعضهم يجوز أن يكون للإنسان قلب كثير الأجزاء و يمتنع أن يريد ببعض الأجزاء ما يكرهه بالبعض

[١٠]

لأن الإرادة و الكراهة إن وجدتا في جزء من القلب فالحالتان الصادرتان عنها يرجعان إلى الجملة و هي جملة واحدة فاستحال وجود معنيين ضدين في حي واحد و يجوز أن يكون معنيان مختلفان أو مثلان في جزءين من القلب و يوجبان الصفتين للحي الواحد و كذلك المعنيان في قلبين إذا كان مما يوجد منهما يرجع إلى حي واحد إلا أن السمع ورد بالمنع من ذلك .

قوله سبحانه : وَ أَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لما كان الجمع على تشاكل و جمعت قلوبهم على تشاكل فيما تحبه و تنازع إليه كان قد ألفت و منه قيل هذه الكلمة تأتلف مع هذه و لا تأتلف .

قوله سبحانه : إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ أي سليم من الفساد و المعاصي و إنما خص القلب بالسلامة لأنه إذا سلم القلب سلم سائر الجوارح من الفساد من حيث إن الفساد بالجارحة لا يكون إلا عن قصد بالقلب الفاسد فإذا اجتمع مع ذلك جهل فقد عدم

السلامة من وجهين و قيل سلامة القلب سلامة الجوارح لأنه يكون خاليا من الإصرار على الذنب .

قوله سبحانه : وَ يَضِيقُ صَدْرِي وَ لا يَنْطَلِقُ لِساني ضيق الصدر يمنع من سلوك المعاني في النفس لأنه يمنع منه كما يمنع ضيق الطريق من السلوك فيه و لا ينطلق لساني أي لا ينبعث بالكلام و قد يتعذر ذلك لضيق الصدور و غروب المعاني التي تطلب للكلام و قيل في قوله وَ ضاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ بمعنى ضيق صدورهم بالهم الذي حصل فيها .

قوله سبحانه : ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَهِيَ كَالْحِجارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ظاهره يفيد الشك الذي لا يجوز على الله تعالى الجواب إن أو هاهنا للإباحة يقال جالس الحسن أو ابن سيرين و الق الفقهاء أو المحدثين أو دخلت للتفصيل و يكون معناها إن قلوبهم قست فمنها ما هو كالحجارة في القسوة و منها ما هو أشد قسوة منها نحو قوله وَ قالُوا

[١١]

كُونُوا هُوداً أَوْ نَصارى و في معناه قال بعضهم كونوا هودا و هم اليهود و قال بعضهم أو نصارى و هم النصارى و مثله وَ كَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها فَجاءَها بَأْسُنا بَياتاً أَوْ هُمْ قائِلُونَ أو دخلت على سبيل الإبهام فيما يرجع إلى المخاطب و إن كان الله تعالى عالما بذلك غير شاك فيه و المعنى أنهما كأحد هذين لا يخرجان عنهما كقولهم ما أطعمك إلا حلوا أو حامضا فيبهمون على المخاطب بما يعلمون أنه لا فائدة في تفصيله أو بمعنى بل نحو قوله وَ أَرْسَلْناهُ إِلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ قالوا كانوا مائة ألف و بضعا و أربعين ألفا و قوله فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى .

شعر :

فو الله لا أدري أ سلمى تغولت *** أم البدر أم كل إلى حبيب

أو بمعنى الواو نحو قوله أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبائِكُمْ معناه و بيوت آبائكم و قوله وَ لا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبائِهِنَّ ... الآية .

جرير :

نال الخلافة أو كانت له قدرا *** كما أتى ربه موسى على قدر

قوله سبحانه : كَذلِكَ سَلَكْناهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ إنها كناية عن القرآن و معناه أقررناه في قلوبهم بإخطاره ببالهم ليقوم الحجة عليهم و لله لطف يوصل به المعنى و الدليل إلى القلب فمن ذكره أدرك الحق به و من أعرض عنه كان كمن عرف الحق و ترك العمل به في لزوم الحجة و الفرق بين إدراك الحق بسلوكه في القلب و بين إدراكه بالاضطرار إليه في القلب أن الاضطرار إليه يوجب الثقة به فيكون صاحبه عالما به و أما سلوكه فيكون مع الشك فيه

قوله سبحانه : لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها إلى قوله فِي الصُّدُورِ فيها دلالة على أن العقل هو العلم لأن معنى يعقلون بها يعلمون بها مدلول ما يرون من العبرة و فيها دلالة على أن القلب محل العقل و العلوم لأنه تعالى وصفها بأنها هي التي تعمى و أنها التي تذهب عن إقرار الحق فلو لا أن التبيين يصح فيها لما وصفها بأنها تعمى كما لا يصح أن يصف اليد و الرجل بذلك .

[١٢]

قوله سبحانه : فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَ لكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ رد على من قال إن العقل في الدماغ و الصحيح أن محل العلم و العقل القلب لأن الشاك في الشيء يجد التغيير من جهة القلب كما أن المريد يجد التغيير من جهته .

قوله سبحانه : إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَ يُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ أي يتخيلونهم بأعينهم قليلا من غير رؤية على الصحة لجميعهم و ذلك بلطف من ألطافه تعالى مما يصد به عن الرؤية من قتام يستر بعضهم و لا يستر بعضا آخر قال ابن

مسعود رأيناهم قليلا حتى قلت لمن كان إلى جانبي أ تراهم سبعين رجلا فقال هم نحو المائة و كانوا ألفا .

قوله سبحانه : وَ جَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً السبات من صفات النوم إذا وقع على بعض الوجوه و هو النوم الطويل يقال لمن وصف بكثرة النوم إنه مسبوت و به سبات و لا يقال ذلك في كل نائم و السبات الراحة و الدعة و منه السبت للفراغ من الخلق قالت اليهود ابتداء الخلق يوم الأحد و الفراغ في يوم السبت و قال النصارى بل كان يوم الاثنين إلى السبت و الفراغ يوم الأحد و قال المسلمون بل كان في يوم السبت و الفراغ في يوم الخميس و جعلت الجمعة عيدا و قيل السبت القطع و الخلق فمعنى قوله وَ جَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً أي ليس بموت لأن النائم قد يعتقد من علومه و قصوده و أحواله أشياء كثيرة و الله تعالى امتن علينا بالنوم المضاهي للموت و ليس بمخرج عن الحياة و الإدراك فجعل التأكيد بذكر المصدر قائما مقام نفي الموت و وجه آخر أنه جعل نومنا ممتدا لما في ذلك من المنفعة و الراحة و النوم اليسير لا يكسب شيئا من الراحة بل يصحبه في الأكثر القلق و الانزعاج و الهموم .

قوله سبحانه : وَ إِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ و القلب إذا زال عن موضعه مات صاحبه المراد إنهم جبنوا و من شأن الجبان عند الهول أن ينتفخ منخره و الرية إذا

انتفخت رفعت القلب و نهضت به إلى نحو الحنجرة ذكره الفراء و الكلبي و أبو صالح عن ابن عباس و القلوب توصف بالوجيب في أحوال الجزع .

شاعر :

كأن قلوب أدلائها *** معلقة بقرون الظباء

و يكون المعنى كادت القلوب من شدة الرعب تبلغ الحناجر فألغى ذكر كادت لوضوح الأمر فيها و لفظة كادت للمقاربة .

قوله سبحانه : وَ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِما لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعاءً وَ نِداءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ المعنى مثل واعظ الذين كفروا و الداعي لهم إلى الإيمان و الطاعة كمثل الراعي الذي ينعق بالغنم و هي لا تعقل معنى دعائه إنما تسمع صوته و لا تفهم غرضه و يجوز أن يقوم قوله مقام الداعي لهم كما تقول العرب فلان يخافك خوف الأسد و هذا المعنى مضاف إلى الأسد .

شعر :

فلست مسلما ما دمت حيا *** على زيد بتسليم الأمير

مثل الذين كفروا كمثل الغنم التي لا تفهم ما أراد الناعق أضاف المثل الثاني إلى الناعق و هو في المعنى مضاف إلى المنعوق به تقول العرب طلعت الشعرى أي نجمها و انتصب العود على الحرباء المعنى انتصب الحرباء على العود قال كأن لون أرضه سماؤه أراد كأن لون سمائه أرضه قال أبو النجم قبل دنو النجم من جوزائه و مثل الذين كفروا و مثلنا أو و مثلهم و مثلك يا محمد كمثل الذي ينعق أي مثلهم في الدعاء و التنبيه و الإرشاد كمثل الناعق و الغنم فحذف المثل الثاني اكتفاء بالأول مثل قوله وَ جَعَلَ لَكُمْ سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ و أراد الحر و البرد .

أبو ذؤيب :

عصيت إليها القلب إني لأمرها *** مطيع فما أدري أ رشد طلابها

أراد أ رشد أم غي و مثل الذين كفروا في دعائهم الأصنام و عبادتهم لها كمثل الراعي الذي ينعق بغنمه و يناديها نداءه و دعاءه و لا تفهم معنى كلامه فشبه من يدعوه الكفار من المعبودات بالغنم من حيث لا تعقل الخطاب و لا تفهمه و لا نفع عندها فيه و لا مضرة .

فصل :

قوله تعالى : وَ لَوْ أَنْزَلْنا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ لو أنزلنا ملكا في صورته لقامت الساعة و وجب استيصالهم ثم قال وَ لَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلًا أي في صورة رجل لأن أبصار البشر لا تقدر على النظر إلى صورة ملك على هيئته للطف الملك و قلة شعاع أبصارنا و لذلك كان جبريل يأتي النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في صورة دحية الكلبي و كذلك الملائكة الذين دخلوا على إبراهيم في صورة الأضياف حتى قدم إليهم عجلا سمينا لأنه لم يعلم أنهم ملائكة و كذلك لما تسور المحراب على داود الملكان كانا على صورة رجلين يختصمان إليه .

قوله سبحانه : إِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ.. . يا مَرْيَمُ اقْنُتِي ... الآية قال الجبائي ظهور الملائكة لمريم أنما كان معجزة لزكريا (عليه السلام) لأن مريم لم تكن نبية لقوله وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ و قال ابن الإخشيد كان ذلك إظهارا لنبوة عيسى (عليه السلام) كما كان ظهور الشهب و الغمامة و غيرهما معجزة للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و يجوز عندنا أن يكون معجزة لها و كرامة و إن لم تكن نبية لأن إظهار المعجزات عندنا أنما تدل على صدق من ظهرت على يده سواء كان نبيا أو إماما أو صالحا على أنه يحتمل أن يكون الله قال ذلك لمريم و قد يقال قال الله لها و إن كان بواسطة كما تقول قال الله كذا و كذا و إن كان على لسان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) .

قوله سبحانه : ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى إنما جاز أن تتصور الملائكة في صورة البشر مع ما فيه من الإيهام لأنه قد اقترن به دلالة و كان فيه مصلحة فجرى مجرى السراب الذي يتخيل أنه ماء من غير علم بأنه ماء .

قوله سبحانه : عَلَيْها مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ معناه غلاظ في الأخلاق شداد في القوى و إن كانوا رقاق الأجسام لأن الظاهر من حال الملك أنه روحاني فخروجه عن الروحانية كخروجه

عن صورة الملائكة .

قوله سبحانه : لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَ لا يَسْتَحْسِرُونَ و قوله سُبْحانَهُ بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ قال جماعة إن الملائكة كلهم رسل الله و قال الرماني في قوله جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا ظاهر الآية يقتضي العموم و عمومه يقتضي أنهم لا يعصونه في صغيرة و لا كبيرة .

قوله سبحانه : اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا وَ مِنَ النَّاسِ أدخل من للتبعيض فدل على أن جميعهم لم يكونوا أنبياء كما أنه لما قال وَ مِنَ النَّاسِ دل على أن جميع الناس لم يكونوا أنبياء و ذهب أصحابنا إلى أن فيهم رسلا و فيهم من ليس برسول فلو كانوا جميعا رسلا لكانوا جميعا مصطفين لأن الرسول لا يكون إلا مختارا مصطفى كما قال وَ لَقَدِ اخْتَرْناهُمْ عَلى عِلْمٍ عَلَى الْعالَمِينَ فالرسل منهم لا يجوز عليهم فعل القبيح و لا دليل على أن جميعهم بهذه الصفة .

قوله سبحانه : قالُوا أَ تَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها يدل على زيادة التثبيت في نفوسهم أنه يعلم الغيب و إنما قالوا ذلك لما رأوه من الجان أو قالوا استعظاما لفعلهم أو إن الله كان قد أخبرهم أو قالوا على وجه الإيجاب و إن خرج مخرج الاستفهام أو على وجه التوجع و التألم و قيل إنما سألوا على وجه التعريف و الاستفادة و إنما أرادوا بذلك غير الأنبياء و المعصومين و كأنه تعالى قال إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً يكون له ولد و نسل يفعلون كيت و كيت فقالوا أَ تَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها يريدون الولد و يحتمل أن يكون قوله مَنْ يُفْسِدُ فِيها يريدون البعض لا الكل كما يقال بنو شيبان يقطعون الطريق أي بعضهم .

قوله سبحانه : سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا يحتمل وجهين قال ابن عباس تنزيها لله أن يكون أحد يعلم الغيب و الثاني أنهم أرادوا أن يخرجوا الجواب مخرج التعظيم لله فكأنهم قالوا

تنزيها لك عن القبائح .

قوله سبحانه : كِراماً كاتِبِينَ يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ أي ملائكة لا يخفى عليهم شيء من الذي تفعلونه فيثبتون ذلك كله و علمهم بذلك إما باضطرار كما تعلم أنه يقصد إلى خطابنا و أمرنا و نهينا و إما باستدلال إذا رأوه و قد ظهر منه الأمور التي لا تكون إلا عن علم و قصد نحو رد الوديعة و قضاء الدين و الكيل و الوزن مما يتعهد فيه أهل الحقوق قال الحسن يعلمون ما تفعلون من الظاهر دون الباطن و قيل هو على ظاهر العموم لأن الله يعلمهم إياه .

قوله سبحانه : عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ كلام مجمل لا يعرف تسعة عشر آحاد أم عشرات أم مئون أم ألوف و كذلك قوله وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ قال ابن عباس و قتادة و الضحاك عدة الملائكة الموكلين بالنار في التوراة و الإنجيل تسعة عشر فكان ذكر هذا العدد تصديقا للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) .

قوله سبحانه : وَ ما جَعَلْنا أَصْحابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِكَةً أي خزنة .

قوله سبحانه : فَما لَبِثَ أَنْ جاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه إنما عرف انتفاء الشهوات عنهم و إنهم لا يأكلون و لا يشربون و لا يتناكحون و لا يتوالدون و ليس لهم ذرية بالإجماع و بهذه الآية .

قوله سبحانه : وَ مَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلهٌ مِنْ دُونِهِ فَذلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ بين أنهم ليسوا بمجبولين على أعمالهم .

قوله سبحانه : مَنْ كانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَ مَلائِكَتِهِ وَ رُسُلِهِ وَ جِبْرِيلَ وَ مِيكالَ إنما أخر ذكر جبريل

[١٧]

و ميكال من الملائكة ذكرا لفضلهما و منزلتهما كما قال فِيهِما فاكِهَةٌ وَ نَخْلٌ وَ رُمَّانٌ و كقوله وَ يُعَلِّمُهُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ أو لما تقدم من قصتهما قبلها و هذه الآية نزلت فيهما و فيما جرى من ذكرهما ثم إن اليهود لما قال إن جبريل

عدونا و ميكال ولينا خصا بالذكر لئلا تزعم اليهود أن جبريل و ميكال مخصوصان من جملة الملائكة و غير داخلين في جملتهم فنص الله عليهما لإبطال ما يتأولونه من التخصيص .

قوله سبحانه : حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا قال الحسن هو ملك الموت و أعوانه و إنهم لا يعلمون آجال العباد حتى تأتيهم ذلك من قبل الله بقبض أرواح العباد .

قوله سبحانه : قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ قال المحققون إن ملك الموت لا ينبغي أن يكون واحدا لأنه جسم و الجسم لا يصح أن يكون في الأماكن الكثيرة في حالة واحدة و تأولوا هذه الآية أنه أراد بملك الموت الجنس دون الشخص الواحد كما قال وَ الْمَلَكُ عَلى أَرْجائِها أراد جنس الملائكة .

قوله سبحانه : وَ ما أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبابِلَ هارُوتَ وَ مارُوتَ المعلقان كيف يعلمان السحر و كيف لا يراهما إلا السحرة و يحمل ما على الجحد و النفي فكأنه تعالى قال وَ اتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّياطِينُ عَلى مُلْكِ سُلَيْمانَ وَ ما كَفَرَ سُلَيْمانُ و لا أنزل الله السحر على الملكين وَ لكِنَّ الشَّياطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ و يكون قوله بِبابِلَ هارُوتَ وَ مارُوتَ يعني رجلين من جملة الناس هذان أسماؤهما و إنما ذكرا بعد ذكر الناس تمييزا و تبيينا و يكون الملكان المذكوران اللذان نفي عنهما السحر جبريل و ميكائيل لأن سحرة اليهود ادعت أن الله أنزل السحر على لسان جبريل و ميكائيل إلى سليمان (عليه السلام) فأكذبهم الله بذلك و يجوز أن يكون هاروت و ماروت كفرا و كان ابن عباس يقرأ وَ ما أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بكسر اللام و يقول متى كان العلجان ملكين إنما كان ملكين و فيه جواب سيجيء إن شاء الله تعالى .

[١٨]

فصل

قوله تعالى : فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ يدل على أنه لم يكن من الملائكة لأن الجن جنس غير الملائكة كما أن الإنس غير جنس الجن و قوله إِلَّا إِبْلِيسَ استثناء من غير جنسه نحو قوله فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعالَمِينَ و قوله ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّباعَ الظَّنِّ و يكون إلا بمعنى لكن و تقديره لكن إبليس أبى و استكبر و كان من الكافرين .

قوله سبحانه : أَ هؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ قالُوا سُبْحانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنا مِنْ دُونِهِمْ قال جماعة إن الملائكة من الجن فلو كانت كذلك لم يكن لقولهم بَلْ كانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ و نفي عبادتهم إياه معنى و قال ابن عباس كان إبليس من الملائكة و قال الطوسي إن أخبارنا تدل على أن إبليس كان من جملة الملائكة و إنما كفر بامتناعه من السجود و قال ابن جريح و قتادة في قوله وَ قالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ إلى قوله وَ مَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلهٌ مِنْ دُونِهِ عنى بالإله إبليس لأنه الذي ادعى الإلهية من الملائكة دون غيره و ذلك يدل على أنه كان من الملائكة و قيل إنه من طائفة من الملائكة يسمون جنا من حيث كانوا خزنة الجنة و قيل سموا بذلك لاجتنانهم عن العيون قوله وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً و من راعى هذه الطريقة قال من قال إن إبليس له ذرية و هم يتوالدون و يأكلون و يشربون عول على خبر غير معلوم و هذا فاسد لأن الله تعالى أثبت له الذرية في قوله أَ فَتَتَّخِذُونَهُ وَ ذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِي .

قوله سبحانه : أَبى وَ اسْتَكْبَرَ وَ كانَ مِنَ الْكافِرِينَ يدل على بطلان قول من قال إنه كان يعبد الله و إنما جاز أن يأمره بالسجود له و إن لم يأمره بالعبادة له لأن السجود مرتب في التعظيم بحسب ما يراد به .

[١٩]

أَ أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً و قوله خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ وجه الشبهة الداخلة على إبليس أن الفروع ترجع إلى الأصول فتكون على قدرها في التكبير و

التصغير فلما اعتقد أن النار أكرم أصلا من الطين جاء منه أنه أكرم ممن يخلق من طين و ذهب عليه بجهله أن الجواهر كلها متماثلة و أن الله يصرفها بالأعراض كيف شاء مع كرم جوهر الطين و كثرة ما فيه من المنافع التي تقارب منافع النار أو توفي عليها قال الجبائي الطين خير من النار لأنه أكثر منافع للخلق من حيث إن الأرض مستقر الخلق و فيها معايشهم و منها يخرج أنواع أرزاقهم لأن الخيرية في الأرض أو في النار أنما يراد بها كثرة المنافع دون كثرة الثواب .

قوله سبحانه : لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا أي لأقودنهم إلى المعاصي كما تقاد الدابة بحنكها إذا شد فيها حبل تجر به إلا قليلا الذين لا يتبعونه و إنما ظن إبليس هذا الظن بأنه يغوي أكثر الخلق لأن الله كان قد أخبر الملائكة أنه سيجعل فيها من يفسد فيها فكان قد علم بذلك و قال الحسن لأنه وسوس إلى آدم فلم يجد له عزما فقال بنوا هذا مثله في ضعف العزيمة و هذا معترض لأن آدم لم يفعل قبيحا و لم يترك واجبا .

قوله سبحانه : لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ وَ عَنْ أَيْمانِهِمْ وَ عَنْ شَمائِلِهِمْ لم يقل على وجه المداخلة و قال ابن عباس و لم يقل من فوقهم لأن رحمة الله تنزل عليهم من فوقهم و لم يقل من تحت أرجلهم لأن الإتيان منه يوحش و قال ابن عباس و قتادة و إبراهيم و الحكم و السدي و ابن جريح أي من قبل دنياهم و آخرتهم و من جهة حسناتهم و سيئاتهم و قال مجاهد من حيث يبصرون و قال البلخي و أبو علي من كل جهة يمكن الاحتيال بها .

قوله سبحانه : لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ أي لأخيبنهم من تناول الثواب .

و من يغو لا يعدم *** على الغي لائما

ثم استثنى و قال إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ مع حرصه على

إغواء الجميع من حيث إنه ليس منهم و علم أنهم لا يقبلون منه و أنه ليس له عليهم سلطان إلا بالإغواء فإذا علم أن منهم من لا يقبل منه صرفه عن ذلك إياسه منه .

قوله سبحانه : وَ ما كانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطانٍ و قوله وَ ما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي قال الجبائي ليس له عليهم قدرة على ضر و نفع أكثر من الوسوسة و الدعاء إلى الفساد فأما على ضر فلا لأنه خلق ضعيف متخلخل لا يقدر على الإضرار بغيره .

قوله سبحانه : وَ أَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزادُوهُمْ رَهَقاً و ذلك أنهم كانوا في الجاهلية إذا سافروا في واد نادوا للجن نعوذ برب هذا الوادي ثم قالوا احبس عنا سفهاءكم فتقول الجن نحن لا نملك لكم ضرا و لا نفعا و هم يفزعون منا فكانوا يجترون على الإنس و يرهقونهم و يخوفونهم و كيف يتسلط من لا يقدر على نفع و لا ضر أو كيف يسلط الله على عبيده ليضلهم عن الحق ثم يكلفهم و لا يجيء منه فعل في غير محل القدرة و إنه جسم شفاف و ليس منه سوى إرادة المعاصي و تزيين الشهوات و الدعاء إلى المنكرات .

قوله سبحانه : فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطانُ و قوله مِنْ شَرِّ الْوَسْواسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ وسواس الشيطان دعاؤه إلى معصية الله بقول خفي و يقارن دعاؤه أنه يريد بذلك نفعه و يجوز أن يصل وسواسه إلى قلب العبد بآلة لطيفة و يجوز أن يكون إذا تكلم بذلك في نفسه أعلمناه الله كما لو تحدث إنسان في نفسه جاز أن يعلمه الله قال رؤبة وسوس يدعو مخلصا رب الفلق و الوسوسة تكون من الجن و الإنس و الشيطان اسم لكل بعيد من الخير قوله شَياطِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ .

و رأى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) رجلا يتبع حماما في طيرانه فقال شيطان يتبع شيطانا .

[٢١]

قوله سبحانه : وَ إِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ وَ قالَ لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ المعنى أن إبليس حسن للمشركين أعمالهم و حرضهم على قتال محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) و خروجهم من مكة و قوى نفوسهم و قال لا غالب لكم اليوم من

الناس و إني جار لكم لأنهم خافوا بني كنانة مما كان بينهم فأراد إبليس أن يسكن خوفهم فَلَمَّا تَراءَتِ الْفِئَتانِ نَكَصَ إبليس عَلى عَقِبَيْهِ قال ابن عباس و قتادة و السدي و ابن إسحاق ظهر لهم في صورة سراقة بن مالك بن جعشم الكناني في جماعة من جنده و قال لهم هذه كنانة قد أتتكم بجند لها فلما رأى الملائكة نكص على عقبيه فقال الحارث بن هشام إلى أين يا سراق فقال إني أرى ما لا ترون و هو قول أبي جعفر و أبي عبد الله (عليه السلام) و قيل إنه رأى جبرئيل بين يدي النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و قال أبو علي الجبائي حوله الله على صورة إنسان علما للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فيما يخبر به و قال الحسن و البلخي إنما هو يوسوس من غير أن يحول في صورة إنسان .

قوله سبحانه : وَ قُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزاتِ الشَّياطِينِ و ما جاء في الحديث مرفوعا أعوذ بالله من همزه و نفثه فالهمزات دفعهم بالإغواء إلى المعاصي و الهمز شدة الدفع و منه سميت الهمزة للألف لأنه يخرج من أقصى الحلق باعتماد شديد .

قوله سبحانه : مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطانُ بَيْنِي وَ بَيْنَ إِخْوَتِي و قوله وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ نزغ الشيطان وسوسته و دعاؤه إلى معصية الله و إيقاع العداوة بين الناس .

قوله سبحانه : يا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ افتتان الشيطان يكون بالدعاء إلى المعاصي من الجهة التي تميل إليها النفوس و تشتهيها و إنما جاز أن ينهى الإنسان بصيغة النهي للشيطان لأنه أبلغ في التحذير من حيث يقضي أنه يطلبنا بالمكروه و يقصدنا بالعداوة فالنهي له يدخل فيه النهي لنا عن ترك التحذير منه .

[٢٢]

قوله سبحانه : إِنَّما يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَ الْفَحْشاءِ الأمر من الشيطان هو دعاؤه إلى الفعل .

قوله سبحانه : وَ لا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ إخبار من إبليس أن الله تعالى لا يجد أكثر خلقه شاكرين قال أبو علي يمكن أنه علمه من جهة الملائكة بإخبار الله إياهم و قال الحسن إنه أخبر عن ظنه ذلك كما قال وَ لَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ لأنه لما غوى آدم قال ذريته هذا أضعف و ظن أنهم يسبحونه و يتابعونه

قوله سبحانه : قالَ فَاهْبِطْ مِنْها قال أبو علي إنما علم إبليس أن الله تعالى قال له هذا القول على لسان بعض الملائكة و قال ابن رقبة إنه رأى معجزة تدل على ذلك .

قوله سبحانه : إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعِيفاً قال الجبائي وصف كيده بالضعف لضعف قوته لأوليائه بالإضافة إلى نصرة المؤمنين و قال الحسن أخبرهم أنهم سيظهرون عليهم فلذلك كان ضعيفا و يقال لضعف دواعي أوليائه إلى القتال بأنها من جهة الباطل إذ لا نصير لهم و إنما يقاتلون بما تدعو إليه الشبهة و المؤمنون يقاتلون بما تدعو إليه الحجة .

قوله سبحانه : إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا قال الجبائي في الآية دلالة على أن الصرع ليس من قبل الشيطان لأنه لو أمكنه أن يصرعه لكان له عليهم سلطان و أجاز أبو الهذيل و ابن الإخشيد ذلك و قال إنه يجري مجرى قوله الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ الْمَسِّ لأن الله تعالى قال إِنَّما سُلْطانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ و إنما أراد به سلطان الإغواء و الإضلال عن الحق .

قوله سبحانه : يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ الْمَسِّ مثل عند الجبائي لا حقيقة له على وجه التشبيه بحال من تغلب عليه المرة السوداء فتضعف نفسه و يلج الشيطان بإغوائه عليه

فيقع عند تلك الحال و يحصل به الصرع من فعل الله و نسب إلى الشيطان مجازا لما كان عند وسوسته و كان أبو الهذيل و ابن الإخشيد يجيزان كون الصرع من فعل الشيطان في بعض الناس دون بعض لأن الظاهر من القرآن يشهد به و ليس في العقل ما يمنع منه و قال الجبائي لا يجوز ذلك لأن الشيطان خلق ضعيف لم يقدره الله على

كيد البشر بالقتل و التخبيط و لو قوي على ذلك لقتل المؤمنين الصالحين و الداعين إلى الخير لأنهم أعداؤه .

قوله سبحانه : وَ إِنِّي أُعِيذُها بِكَ وَ ذُرِّيَّتَها مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ معناه الاستعاذة من طعن الشيطان للطفل الذي يستهل صارخا فوقاها الله عز و جل و ولدها عيسى منه بحجاب كما روى أبو هريرة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و قال الحسن إنما استعاذت من إغواء الشيطان .

قوله سبحانه : إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَ قَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إنما كانوا يروننا و لا نراهم لأن أبصارهم أحد من أبصارنا و أكثر ضوءا من أبصارنا و أبصارنا قليلة الشعاع و مع ذلك أجسامهم شفافة و أجسامنا كثيفة فصح أن يرونا و لا يصح منا أن نراهم و لو تكثفوا لصح منا أيضا أن نراهم و قال أبو علي في الآية دلالة على بطلان قول من يقول إنه يرى الجن من حيث إن الله عم أن لا نراهم قال و إنما يجوز أن يروا في زمن الأنبياء بأن يكثف الله أجسامهم و قال أبو الهذيل و ابن الإخشيد يجوز أن يمكنهم أن يتكثفوا فيراهم حينئذ من يختص بخدمتهم و هذا أقوى .

قوله سبحانه : وَ مِنَ الشَّياطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَ يَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذلِكَ و قوله وَ آخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ قال الجبائي كثف الله أجسامهم حتى تهيأ لهم تلك الأعمال معجزا لسليمان قال لأنهم كانوا يبنون له البنيان و يغوصون في البحار و يخرجون ما فيها من اللؤلؤ و ذلك لا يتأتى مع دقة أجسامهم .

قوله سبحانه : لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى وَ يُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ دُحُوراً و قوله

مَقاعِدَ لِلسَّمْعِ و قوله مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ إنما جاز أن يقصدوا الاسترق السمع مع علمهم بأنهم لا يصلون و أنهم يحرقون بالشهب لأنهم تارة يسلمون إذا لم يكن هناك من الملائكة شيء و تارة يهلكون كراكب البحر .

قوله سبحانه : وَ قالَ أَوْلِياؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ قال الزجاج و الرماني وجه استمتاع الجن بالإنس أنهم إذا اعتقدوا أن الإنس يتعوذون بهم و يعتقدون أنهم ينفعونهم و يضرونهم أو أنهم يقبلون منهم إذا دعوهم كان في ذلك تعظيم لهم و سرور و نفع ذكر ذلك و قال البلخي و يحتمل أن يكون قوله اسْتَمْتَعَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ مقصورا على الإنس .

قوله سبحانه : قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقالُوا إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ يدل على أن فيهم مؤمنين .

قوله سبحانه : لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لا جَانٌّ في الآية دلالة على أن للمؤمنين من الجن أزواجا من الحور .

فصل :

قوله تعالى : وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ و قوله أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لا يخلو ذلك من التسبيح المسموع أو تسبيح مجهول أو من جهة الدلالة و لا يجوز الأول لأنه جماد و الفرق بين الجماد و الحيوان بالنطق و لو أراد ذلك لقال و لكن لا تسمعون تسبيحهم و لم يقل و لا تفقهون و لا يجوز الثاني لأنه تثبيت فساد ما لا يعقل و سوء إثبات ما لا يعقل و نفيه لأنهما في الدلالة و الجواز سواء في جميع الأبواب فلم يبق إلا من جهة الدلالة و لا خلاف في أن جميع المخلوقات تسبح الله بالدلالة على أن لها صانعا و من عادة العرب أن تجعل الدلالة قولا و نطقا و كلاما و إشارة و التسبيح هو

التقديس عما لا يجوز عليه في صفاته و لم يزل الله مقدسا منزها قبل خلقه فمن كان من العقلاء عارفا به فتسبيحه لفظا و معنى و ما ليس بعاقل من الحيوان و الجماد فتسبيحه ما فيه من الأدلة الدالة على وحدانيته و تنزيهه عما لا يليق به و رجوع التقديس إلى ما لا يعقل ككفر الكافر يعود نقصه إليه من غير أن يضر الله منه شيء و

كذلك قوله سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ * وَ يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ * يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَ الطَّيْرَ فيكون معناه أي يسبح أهلها كقوله وَ سْئَلِ الْقَرْيَةَ .

قوله سبحانه : فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقالَ أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ ... الآية و قوله فَبَعَثَ اللَّهُ غُراباً و قوله وَ الطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ و قوله قالَتْ نَمْلَةٌ قال أبو علي لا يمتنع أن يكون الله خلق في هذه الحيوانات من المعارف ما تفهم به الأمر و النهي و الطاعة فيما يراد منها و الوعيد على ما خالفت و إن لم تكن كاملة العقل مكلفة و إنها تخبر بذلك كما يخبر مراهقو صبياننا لأنه لا تكليف إلا على الملائكة و الإنس و الجن و قال الطوسي هذا خلاف الظاهر لأن الاحتجاج الذي حكاه عن الهدهد احتجاج عارف بالله و بما يجوز عليه ما لا يجوز قوله وَجَدْتُها وَ قَوْمَها يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ثم قال وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ ثم قال فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ثم قال فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ ثم قال أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ يَعْلَمُ ما تُخْفُونَ وَ ما تُعْلِنُونَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ و المراد بقوله قالَتْ نَمْلَةٌ أي إنه ظهر منها دلالة القول لباقي النمل على التخويف من الضرر بالمقام و إن النجاة في الهرب إلى مساكنها و يكون إضافة القول إليها مجازا و استعارة كقول الشاعر في الفرس :

و شكا إلي بعبرة و تحمحم

أو إنه وقع من النملة كلام ذو حروف منظومة يتضمن للمعاني المذكورة مثل ما يقع من المجنون و الصبي مع زوال التكليف و الكمال عنهم و ذلك يكون معجزا لسليمان (عليه السلام) و قالوا هو مثل ضربه الله على لسان النملة لأمر اراده لأنه لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها لأنه لما كان عاقبة النمل أن سليمان إن مر عليه حطمه و قيل النمل اسم رجل في ذلك الزمان كما نسمي بضب و كلب و المراد بقوله فَبَعَثَ اللَّهُ غُراباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ ألهمه كما قال وَ أَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ .

قوله سبحانه : وَ الطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَ تَسْبِيحَهُ قال مجاهد الصلاة

للإنسان و التسبيح لكل شيء و الصلاة الدعاء و الدعاء أنما يكون لطلب ما يحتاج إليه و التسبيح هو التبعيد مما لا يستحقه فأراد أن كلا من الطير قد علم ما يحتاج إليه و يطلبه و يدعوه و ما يجب عليه الاجتناب من مضاره و لا بد أن يكون لها إشارات و أسباب و تفهم بفهم بعضها عن بعض و ذلك منطقهم .

قوله سبحانه : أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ و قوله وَ النَّجْمُ وَ الشَّجَرُ يَسْجُدانِ معنى السجود الذل و التواضع تسخيرا للخالق قال سويد بن أبي كاهل ساجد المنجز لا يرفعه خاشع الطرف أصم المستمع و قال أمية هو الذي سخر الأرواح ينشرها و يسجد النجم للرحمن و الشجر و قال الطوسي سجودهما ما فيهما من الآية الدالة على حدوثها و على وجوب الخضوع لله و التذلل له لما خلق فيهما من الأقوات المختلفة و في النبات و الثمار فلا شيء أدعى إلى الخضوع و العبادة لمن أنعم بهذه النعمة الجليلة مما فيه و قال مجاهد و ابن جبير سجودهما ظلالهما الذي يلقيانها بكرة و عشيا فكل جسم له ظل فهو يقتضي الخضوع بما فيه من دليل الحدوث و قال الحسن و قتادة و ابن زيد إن المؤمن يسجد لله طوعا و الكافر كرها يعني بالسيف و قال أبو علي سجود الكره بالتذليل و التصريف من عافية إلى مرض و من غنى إلى فقر و من حياة إلى موت و قال الزجاج المعنى أن فيمن يسجد لله من يسهل ذلك عليه و فيهم من يشق عليه فيكرهه كقوله حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَ وَضَعَتْهُ كُرْهاً و قيل إن المؤمن يسجد لله طوعا و الكافر في حكم الساجد كرها بما فيه من الحاجة إليه و الذلة التي تدعو إلى الخضوع لله تعالى .

قوله سبحانه : وَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً.. . فَأَخْرَجْنا مِنْهُ خَضِراً ... الآية تدل على بطلان قول الطبائعية أن الماء الواحد و التربة يخرج الله منها ثمارا مختلفة و أشجارا متباينة و اختلافها يدل على بطلان قولهم .

قوله سبحانه : أَ لَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آياتِهِ وجه الدلالة من ذلك أن المجري لها بالرياح هو القادر الذي لا يعجز أن يرسلها في الوجوه التي يريدون المسير فيها و لو اجتمع جميع الخلق أن يجروا الفلك في بعض

الجهات مخالفا لجهة الرياح لما قدروا عليه و دخل ابن ميثم على الحسن بن سهل و إلى جنبه

[٢٧]

ملحد قد عظمه الناس فقال له قد رأيت ببابك عجبا قال و ما هو قال رأيت سفينة تعبر الناس من جانب إلى جانب بلا ملاح و لا ناصر فقال الملحد إن هذا أصلحك الله لمجنون قال و كيف ذاك قال خشب جماد لا حياة له و لا قوى و لا عقل كيف يعبر بالناس فقال ابن ميثم فأيما أعجب هذا و هذا الماء الجاري يجري على وجه الأرض يمنة و يسرة بلا روح و لا حياة و لا قوى و هذا النبات الذي يخرج من الأرض و هذا المطر الذي ينزل من السماء تزعم أن لا مدبر لها كلها و تنكر أن تكون سفينة تتحرك بلا مدبر و تعبر الناس .

قوله سبحانه : هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ نسبه إلى نفسه أما في البحر فلأنه بالريح و الله المحرك لها دون غيره و أما في البر فلأنه كان باقتداره و تمكينه و تسبيبه .

وقال رجل للصادق (عليه السلام) ما الدليل على الله و لا تذكر لي العالم و الجوهر و العرض فقال (عليه السلام) : هل ركبت في البحر قال نعم قال فهل عصفت بكم الريح حتى خفتم الغرق قال نعم قال فهل انقطع رجاؤك من المركب و الملاحين قال نعم قال فهل تتبعك نفسك أن ثم من ينجيك قال نعم قال فإن ذلك هو الله تعالى قال تعالى ثُمَّ إِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْئَرُونَ .

قوله سبحانه : إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها و لم يقل كل ما عليها فدخل فيها الحيات و العقارب و نحوها و قال ابن عباس و أبي زهرة لها كأنه يشير إلى النبات خاصة و يقال من النبات و الدواب لأنه تدل على الوحدانية أ لا ترى أنه أقسم بالتين و الزيتون و الشمس و القمر و الطور و الذاريات .

فصل :

قوله تعالى : الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ أي من قدر على أن يجعل في الشجر الأخضر الذي هو غاية الرطوبة نارا حامية مع تضاد النار للرطوبة لا يقدر على الإعادة ثم قال أَ وَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ لأن من شأن القادر على الشيء أن يكون قادرا على جنس مثله

[٢٨]

و جنس ضده .

قوله سبحانه : أَ فَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَ أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَها أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِؤُنَ لا يدل على أنه نار الشجر إلا من قادر عليه لأن الطبع غير معقول فلا يجوز أن يستند إليه الأفعال و لو جاز ذلك لجاز في جميع أفعال الله و لو كان الطبع معقولا لكان ذلك الطبع لا بد أن يكون في الشجر و الله الذي أنشأ الشجر و ما فيها فقد رجع إلى قادر عليه و إن كان بواسطة و لو جاز أن تكون النار من غير قادر عليها لجاز أن يكون من عاجز و لو جاز ذلك لجاز وقوع الفعل ممن ليس بقادر عليه منا .

قوله سبحانه : هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَ طَمَعاً قال الحسن خوفا من الصواعق التي تكون مع البرق و طمعا في الغيث الذي يزيل الجدب و القحط و قال قتادة خوفا للمسافر من أذاه و طمعا للمقيم في الرزق به و قال مجاهد وَ يُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقالَ المعنى أن السحاب ثقال بالماء و قيل خوفا و طمعا ليخافوا من عذابه بالنار و يطمعون في أن يتعقب ذلك مطر ينتفعون به .

قوله سبحانه : وَ السَّماءَ رَفَعَها وَ وَضَعَ الْمِيزانَ و قوله وَ أَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَ الْمِيزانَ إنما جمع بينها لما فيها من التسوية فالكتاب يتضمن علم السنن المسوي بين الشريف و المشروف و الميزان يخرج تلك السنن إلى العمل و أما السماء فلما فيها من الكواكب السيارة و غيرها مسببا لإصلاح العالم و أما .

قوله سبحانه : وَ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ خص الموزون دون المكيل بالذكر لأن غاية المكيل تنتهي إلى الوزن فكان الوزن أعم من الكيل ثم إنه تعالى أراد بالموضوع المقدار الواقع بحسب الحاجة فلا يكون ناقصا عنها و لا زائدا عليها يقال كلام فلان موزون و أفعاله مقدرة موزونة و على هذا تأول المسلمون ذكر الموازين .

[٢٩]

قوله سبحانه : فَمُسْتَقَرٌّ وَ مُسْتَوْدَعٌ المستقر الموضع الذي يقر فيه الشيء و هو قراره و مكانه الذي يأوي إليه و المستودع المعنى المجعول في القرار كالولد في البطن و النطفة في الظهر .

قوله سبحانه : وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِباساً اللباس ساتر مماس لما ستره و الليل ساتر الأشخاص بظلمته مماس لها بجسمه الذي فيه الظلمة .

فصل :

قوله تعالى : وَ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ ماءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى بَطْنِهِ كالسمك و الحيات وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى رِجْلَيْنِ مثل ابن آدم و الطير وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى أَرْبَعٍ كالبهائم و السباع و لم يذكر المشي على أكثر من أربع لأنه كالذي يمشي على أربع في مرأى العين فترك ذكره لأن العبرة تكفي بذكر الأربع و قال البلخي لأن عند الفلاسفة أن ما زاد على الأربع لا يعتمد عليه و اعتماده على أربع فقط .

قوله سبحانه : وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ و قوله وَ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ ماءٍ لأن أصل الخلق من ماء ثم قلب إلى النار فخلق الجن منها و إلى الريح فخلق الملائكة منها ثم إلى الطين فخلق آدم منه و إنما قال منهم تغليبا لما يعقل على ما لا يعقل إذا اختلط في خلق كل دابة و قال الحسن من ماء أي من نطفة و جعل قوله كُلَّ دَابَّةٍ خاصا فيمن يخلق من نطفة و قوله وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ و قد رأى أشياء موات منه هذا كما يقول جعلت من هذا الطين صورة كل شيء فعلى هذا يجوز

أن يكون جعلت صورة كل طير و كل سبع و لو قلت لم أجعل من هذا الطين إلا صورة كل طير لم يجز أن يكون هاهنا مجعول غير صورة الطير .

قوله سبحانه : وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ أي بالمطر و إرسال الرياح تحريكها و إجراؤها في الجهات المختلفة بحسب ما يعلم فيه من المصلحة شمالا و جنوبا و صبا و دبورا لما قدروا عليه فمن قدر على ذلك يعلم أنه قادر لنفسه لا يعجزه شيء للعبادة خالصة .

[٣٠]

قوله سبحانه : وَ فِي عادٍ إِذْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ و قال فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ لا تناقض بينهما لأنه غير ممتنع أن تنضم إلى الريح صاعقة في إهلاك قوم عاد فيسوغ أن يخبر في موضع أنه أهلكهم بالريح و في آخر أنه أهلكهم بالصاعقة و قد يجوز أن يكون الريح نفسها هي الصاعقة لأن كل شيء صعق الناس منه فهو صاعقة و كذلك القول في الرجفة أنه غير ممتنع أن يقرن بالصاعقة الرجفة و قد يمكن أن يكون الرجفة هي الصاعقة لأنهم صعقوا عندها .

قوله سبحانه : ما تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ قالوا إن الماء في عهد نوح لما عم جميع الأرض لم ينج من الغرق إلا أصحاب السفينة كالريح المسخرة لما اعتصم منها هود و صحبه بحيث لم تهب فيه هذه الريح المهلكة و الله تعالى قادر على أن يخص بالريح أرضا دون أرض أو يكف عن هود الجواب أنه غير ممتنع أن يكف عن هود و صحبه هبوبها و تأثير اعتماداتها كما كف إحراق النار عن إبراهيم يبردها في جسمه و إن كان حاصلا فيها .

قوله سبحانه : إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها و هذه الأشياء جمادات لا يصح تكليفها المراد عرضنا على أهل السماوات و أهل الأرض و أهل الجبال كقوله وَ سْئَلِ الْقَرْيَةَ و قيل المعنى في ذلك تفخيم شأن الأمانة و تعظيم حقها و إن من عظم منزلتها أنها لو عرضت على الجبال و السماوات مع عظمها و كانت تعلم بأمرها لأشفقت منها غير أنه خرج مخرج الواقع لأنه أبلغ في

المقدور و قال البلخي معنى العرض و الإباء ليس هو مما يفهم بظاهر الكلام بل إنما أراد تعالى أن يخبر بعظم شأن الأمانة و أنه وجد السماوات مع عظمها لا تحتملها و أن الإنسان حملها أي احتملها ثم خانها و هذا كقولهم سألت الربع و خاطبت الدار فقالت كذا و ربما قالوا فلم تجب و قوله ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ و قوله لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَ تَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا قال جرير لما أتى خبر الزبير تواضعت سور المدينة و الجبال الخشع و قال آخر فقال لي البحر إذ جئته و كيف يجير ضرير ضريرا و معنى الإباء الامتناع يقال هذه الأرض تأبى الزرع و الغرس أي لا تصلح لهما فيكون المعنى فأبين أن يحملنها أي لا تصلح لحملها لأنه لا يصلح لحمل الأمانة إلا من كان حيا قادرا عالما سميعا بصيرا .

[٣١]

قوله سبحانه : فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَ الْأَرْضُ أي أهلها كقوله حتى تضع الحرب أوزارها و يقال السخا حاتم و إن الله أراد المبالغة في وصف القوم بسقوط المنزلة كما يقال كسفت الشمس لفقده و أظلم القمر و بكاه الليل و النهار و السماء و الأرض .

قال جرير :

الشمس طالعة ليست بكاسفة *** تبكي عليك نجوم الليل و القمرا

و يكون الإخبار عن فقد الانتصار و الأخذ بالثأر و العرب كانت لا تبكي على القتيل إلا بعد الأخذ بثأره و بمعنى الإخلال عن الاختلال بعده .

بكت دارهم من أجلهم فتهلكت *** دموعي فأي الجازعين ألوم

و سئل ابن عباس أ و تبكيان على أحد فقال نعم مصلاه في الأرض و مصعد عمله في السماء و قال المرتضى : البكاء كناية عن المطر و العرب تشبه المطر بالبكاء فيكون معنى الآية أن السماء لم تسق قبورهم لأنهم كانوا يستسقون السحاب لقبور من فقدوه قال عدي بن حاتم في وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) .

إن الذي بكت السماء لفقده *** عميت علينا بعده الأنباء

و الأرض خاشعة لها بجبالها *** و الناس لا موتى و لا أحياء

أبو ذؤيب :

كسفت لمصرعه النجوم و بدرها *** و تزعزعت أركان بطن الأبطح

فصل :

قوله تعالى : فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ قال الجبائي في الآية دلالة على بطلان قول الأصم و نفاة الأعراض و قولهم إنه ليس هاهنا غير الأجسام لأنه قال حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ فأثبت غيرا لما كانوا فيه و هو العرض اختير متكلم ليناظر ابن الراوندي في إثبات الأعراض فازدحم الناس و نكص المتكلم فلما بلغ الغاية حضر المتكلم فلم ينظر الخليفة إليه لغضبه إليه فقال يا أمير المؤمنين أنشدك هل كنت قبل نكوصي على هذه الصفة أم تجدد حالة أخرى قال بل تجددت قال هي التي ينفيها هذا الرجل و أمير المؤمنين يعرف من نفسه و ناظر بعضهم الصاحب في ذلك فقال الصاحب هل تحصل منا أفعال قال نعم قال هي جواهر أو أعراض فبهت و قال أبو الهذيل للأصم و هو

[٣٢]

ينفى الحركة خبرني عن قوله الزَّانِيَةُ وَ الزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ واحِدٍ مِنْهُما مِائَةَ جَلْدَةٍ و عن قوله في القاذف فَاجْلِدُوهُمْ ثَمانِينَ جَلْدَةً أيهما أكثر قال حد الزاني بعشرين قال فما تلك الزيادة هي نفس الجلاد أو نفس المجلود أو الهواء أو الخشب أو ثم شيء غير هذا يسمى الجلد قال لا أقول شيئا من ذلك قال فكأنك قلت لا شيء أكثر من لا شيء بعشرين .

قوله سبحانه : وَ لَوْ قاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبارَ في هذه الآية دلالة على أنه يعلم ما لم يكن أن لو كان كيف يكون و فيه إشارة إلى أن المعدوم معلوم و قال الموبد لهشام بن الحكم أ حول الدنيا شيء قال لا قال فإن أخرجت يدك من الدنيا فثم شيء يردها قال ليس شيء يردك و لا شيء يخرج يدك قال فكيف أعرف هذا قال يا موبد

أنت و أنا على طرف الدنيا فقلت لك يا موبد إني لا أرى شيئا فقلت و لم لا ترى فقلت لأنه ليس هاهنا ظلام يمنعني فقلت يا هشام إني لا أرى شيئا فقلت و لم لا ترى فقلت ليس لي ضياء أنظر به فهل تكافأت المسألتان في التناقض قال نعم قال فإذا تكافأتا في التناقض لم لا تتكافأ في الإبطال أن ليس ثم شيء فأشار الموبد بيده أن أصبت .

قوله سبحانه : وَ قَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ تَكُ شَيْئاً و قوله أَ وَ لا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ يَكُ شَيْئاً و قوله أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخالِقُونَ و قوله هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً و قوله كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً حَتَّى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً تعلق المثبتون بهذه الآيات و قالت النفاة إنما قال و لم يك شيئا و لم يقل و لم يسم شيئا و الكون إنما يتناول الموجود دون المعدوم و الإنسان خلق من نطفة و آدم خلق من التراب و كلاهما موجودان و خلق الخلق من الآباء و الأمهات و معناه أ خلقوا من غير أصل يرجعون إليه و يقال من غير شيء أي لغير شيء و معنى الآيات أن عادة العرب إذا أرادت الإخبار عن خساسة قدر شيء تصفه بأنه لا شيء و ليس بشيء لا يقصدون إلى أنه غير موجود لأنهم يصفون الموجود الحاضر بذلك كما يصفون المعدوم .

قوله سبحانه : إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ قالت النفاة أي يكون شيء عظيم .

[٣٣]

قوله سبحانه : وَ لا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ و قوله إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فإنه يسوغ للمثبتين أن يستدلوا بهما و كذلك قوله وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الموجود لا يوصف بالقدرة عليه أحد إلا على سبيل الإعادة و اشتهر عن أهل اللغة قولهم شيء معدوم فلو كان لفظة شيء لا يقع إلا على موجود لكان هذا القول متناقضا و يجري ذلك مجرى قولهم موجود معدوم و نحن نعلم الصوت عند تقضيه و الجسم بعد حجابه

قوله سبحانه : لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ إنما خرج مخرج المثل قوله في عقبه وَ تِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ المعنى في خشوع الحجارة أنه يظهر فيها ما لو ظهر من حي مختار قادر كان بذلك خاشعا كقوله جدارا يريد أن ينقض لأن ما ظهر فيه من فعل الحيوان لو ظهر من حي لدل على أنه يريد أن ينقض ليس أن الجدار يريد شيئا في الحقيقة .

قوله سبحانه : وَ إِنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ يريد بذلك التذلل تسخيرا قال جرير لما أتى خبر الزبير تواضعت سور المدينة و الجبال الخشع و يقال يهبط من خشية الله كأنه يفعل ذلك بغيره ممن يعقل لدلالته على الخالق فكأنه يقول يدعو إلى خشية الله إذا نظر إليه قالوا سبحان الله كما تقول العرب لما لا ينطق إذا نطق عجبا له فقالوا سبحان الله .

قوله سبحانه : تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَ تَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا هذا كما تقول العرب هذا الكلام يفلق الصخر و يهد الجبال و يستنزل الوعول .

و لو أن ما بي بالحصى فلق الحصى *** و بالريح لم يسمع لهن هبوب

قال ابن عباس و قتادة و الضحاك : يتفطرن من فوقهن من عظمة الله و جلاله و قالوا إن السماوات تكاد تتفطرن من فوقهن استعظاما لله للكفر بالله و العصيان له مع حقوقه الواجبة

على خلقه و ذلك على وجه التمثيل .

قوله سبحانه : وَ أَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَ أَبْكى و الضحك و البكاء من فعل الإنسان و قوله فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَ لْيَبْكُوا كَثِيراً و قوله أَ فَمِنْ هذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ وَ تَضْحَكُونَ وَ لا تَبْكُونَ و قوله فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ نسب الضحك و البكاء إلينا و لو لم يكن فعلنا لم يحسن ذلك أما الآية الأولى فمعناها أنه أضحك و أبكى بأن فعل سبب ذلك من السرور و الحزن كما يقال أضحكني فلان و أبكاني أي من سببها و

قال الحسن إن الله هو الخالق للضحك و البكاء و الضحك تفتح أسرار الوجه عن سرور في القلب فإذا هجم على الإنسان منه ما لا يمكنه دفعه فهو من فعل الله و كذلك البكاء و قيل أضحك الأرض بالنبات و أبكى السماء بالمطر .

فصل :

قوله تعالى : هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَ الْقَمَرَ نُوراً وَ قَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسابَ لما أخبر الله بهذه الأحوال عن النجوم كان أجرى العادة بأن يحدث أمرا عند طلوع كوكب أو غروبه أو اتصاله أو مقارنته لكن لا طريق لنا إلى العلم بأن ذلك قد وقع و ثبت ثم إن تلك العادة يجوز أن تختلف باختلاف الأزمان فلا يفعل ذلك لأنه مختار فيها و لا تأثير للكواكب البتة لأنها ليست بحية قادرة فتفعل بالاختيار و لا علة موجبة فتؤثر بالإيجاب و إنما هي أجسام يسيرها الله كما يريد و الدليل على نفي كون الفلك و ما فيه من شمس و قمر و كوكب أحياء الإجماع و إذا قطعنا على نفي الحياة و القدرة عنها فكيف تكون فاعلة ثم إن الحرارة الشديدة كحرارة النار تنفي الحياة و حرارة الشمس أقوى من حرارة النار و ما كان بهذه الصفة من الحرارة تستحيل أن يكون حيا و إن كانت قادرة إنما تفعل في غيرها على سبيل التوليد و لا بد من وصلة بين الفاعل و المفعول فيه و الكواكب غير مماسة لنا و لا وصلة بيننا و بينها فكيف تكون فاعلة فينا و الهواء لا يجوز أن يكون آلة في الحركات الشديدة و حمل الأثقال ثم لو كان الهواء آلة تحركنا بها الكواكب لوجب أن نحس بذلك كما نحس من غير الهواء إذا حركنا .

[٣٥]

قوله سبحانه : الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ بِحُسْبانٍ * وَ الْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ * وَ النَّجْمِ إِذا هَوى فلا تعلق لهم فيها لأننا نعترف أن للنجوم سيرا و منازل و اجتماعات و احتراقات و حركات و حرارة الشمس و كسوفها و نور القمر و خسوفه و أنها تجري بحسابه و أن سير كل واحد منها خلاف سير الآخر و أن سير جميعها يجري على مقدار معلوم و نعلم بها عدد السنين و الحساب و بها يقع الفصل بين الأيام و الليالي إلا أنه لا مجال للعقل فيه و أنما يعلم ذلك سمعا و الخلاف بين المسلمين و المنجمين في موضعين

أحدهما في تركيب الأفلاك و الأرض و ما يتلو ذلك و الآخر في الأحكام التي يدعونها أن جميع حوادث العالم نشوا و توالدا و حدوثا و تغيرا يتولد عن الكواكب و بسببها يحدث حتى أدعوا أن حياة الحيوان و موتهم و توالدهم و رزقهم و خيرهم و شرهم متعلق بقواها و أن جميع ما يحدث في الجو من الأمطار و الثلوج و الرعد و البرق و الصواعق و كذلك جميع ما يحدث في الأرض من الزلازل و الخسف و في بطون المعادن و في عمق البحار منها و لو كان الأمر على ما ادعوه لبطل الأمر و النهي و ارتفع المدح و الذم و بارتفاع ذلك يرتفع العقاب و الثواب و ببطلانه تبطل النبوات و الشرائع أجمع على أنه يجب ببطلان ذلك بطلان جميع العلوم و لبطلت الفائدة في تعلم علم النجوم لأن بتعلمه لا يستفاد شيء إذ لا يمكن أحدا أن يقدم شيئا أو يؤخر إلا ما يوجبه النجم فسواء علمه أو لم يعلمه .

قوله سبحانه : وَ السَّماءِ ذاتِ الْبُرُوجِ ليس فيه أنها اثنا عشر أو أقل أو أكثر على أن البروج هي المقصود فالآية إلى بطلان مذهبهم أقرب ثم إن الإخبار بالغيب من جملة المعجزات و لو كان العلم بما يحدث طريقا نجوميا لم يعرف المعجز و قد اجتمع المسلمون قديما و حديثا على تكذيبهم .

قوله سبحانه : هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَ الْقَمَرَ نُوراً و إن الأهلة مواقيت

للناس و الحج و إن له منازل لتعلموا عدد السنن و الحساب و بالنجم هم يهتدون فلو كانت الحوادث منها لوجب ذكرها و الامتنان بها إذ النعمة بها أجل و من المحال أن يمن الله على عباده بما خلق لهم من صنوف مخلوقاته فيذكر اليسير من الفائدة و يدع ذكر ما هو أجل منه بكثير .

قوله سبحانه : إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ * وَ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ و هذا خلاف قولهم لأنه تعالى بين أن الكواكب زينت سماء الدنيا .

قوله سبحانه : لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَ لَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ وَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ بين أنهما في فلك واحد يسبحون و ذلك أنه لو كان كل واحد منهما في فلك لوجب أن يقول و كل في فلكه يسبح .

قوله سبحانه : فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً الخصم معترف بأن الكواكب لا تدبر شيئا بل تفعل عندهم طبعا و لا يجوز أنها تدبر و قد قيل إنها الملائكة و ذلك أولى .

قوله سبحانه : هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَ الْقَمَرَ نُوراً الشمس و القمر آيتان

من آيات الله لما فيها من عظم النور و غيرهما بغير علاقة و لا دعامة و نور الشمس لما كان أضعف الأنوار سماه ضياء كما قيل للنار نارا لما فيها من الضياء و لما كان نور القمر دون ذلك سماه نور الشمس و ضياها يغلب عليه و لذلك لا يقال أضاء الليل بل يقال أنار الليل و ليلة منيرة و يقولون في قلبه نور و لا يقال فيه ضياء .

قوله سبحانه : وَ عَلاماتٍ وَ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ وحد النجم و قال فيما تقدم وَ النُّجُومُ مُسَخَّراتٌ لأن النجوم على ثلاثة أضرب ما يهتدي بها مثل الفرقدين و الجدي لأنها لا تزول و ضرب هي زينة السماء كما قال زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ فقوله وَ بِالنَّجْمِ يريد النجوم فاجتزأ بالواحد عن الجمع كما قال أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلى عَوْراتِ النِّساءِ و النجم في قوله النَّجْمُ الثَّاقِبُ يريد به الثريا وَ النَّجْمِ إِذا هَوى يعني نزول القرآن وَ النَّجْمُ وَ الشَّجَرُ يَسْجُدانِ يريد كلما نجم من الأرض مما لا يقوم على ساق .

فصل :

قوله تعالى : وَ إِذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ و قوله وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ الطب صحيح و علمه ثابت و طريقه الوحي و إنما أخذوه عن الأنبياء و الطريق إلى حقيقة ذلك بالسمع و معرفة الدواء بالتوقيف و كان الصادقون (عليهم السلام) يأمرون

بعض أصحاب الأمراض باستعمال ما يضر من كان المرض به فلا يضره و ذلك لعلمهم بانقطاع المرض و ذلك على سبيل المعجز لهم و الصحة و المرض من الله و المرض نوعان مبتدأ يخلقه الله و ما يخلقه عند سبب كما قال إبراهيم وَ إِذا مَرِضْتُ أي من تعدمني .

الصادق (عليه السلام) في خبر : إني رأيت الرجل منهم الماهر في طبه إذا سألته لم يقف على حدود نفسه و تأليف بدنه و تركيب أعضائه و مجرى الأغذية في جوارحه و مخرج نفسه و حركة لسانه و مستقر كلامه و نور بصره و انتشار ذكره و اختلاف شهواته و انسكاب عبراته و مجمع سمعه و موضع عقله و مسكن روحه و مخرج عطشه و هيج غمومه و أسباب سروره و علمه بما حدث فيه من بكم و صم و غير ذلك لم يكن عندهم أكثر من أقاويل استحسنوها و علل فيما بينهم جوزوها .

و دخل موسى بن جعفر (عليه السلام) على الرشيد فقال له الرشيد يا ابن رسول الله أخبرني عن الطبائع الأربع فقال (عليه السلام) : أما الريح فإنه ملك يداري و أما الدم فإنه عبد

عاص و ربما قتل العبد مولاه و أما البلغم فإنه خصم جدل إن سددته من جانب انفتح من جانب آخر و أما المرة فإنها الأرض إن اهتزت رجفت بما فوقها فقال هارون يا ابن رسول الله تنفق على الناس من كنوز الله و رسوله .

قوله سبحانه : لَهُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا قال المفسرون يعني الرؤيا الصالحة .

و قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : ذهبت النبوة و بقيت المبشرات .

و قال ابن عباس وَ يُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ يريد تعبير الرؤيا و شكر الله تعالى يوسف على ذلك فقال وَ عَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ و قال إبراهيم (عليه السلام) إِنِّي أَرى فِي الْمَنامِ و قال الله تعالى لنبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) وَ ما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْناكَ و قال لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ .

و قال الرضا (عليه السلام) رؤيا الأنبياء وحي .

و قال المرتضى : مجرد منامات الأنبياء لا يوجب العمل إلا إذا قارنه وحي يسمعه من الملك على الوجه الموجب للعلم إني سأريك في منامك وقت كذا ما يجب أن تعمل به و ذهب النظام إلى إبطال الرؤيا كلها ما خلا رؤيا يوسف و رسول الله و الدهرية تبطل الرؤيا كلها و لم يزل الناس على التصديق بتأويل الرؤيا في الجاهلية و الإسلام و زعم بعض المتكلمين أن الرؤيا هي تمن يقع للإنسان فيتصور له ما يتمنى كالإنسان يقدر في نفسه شيئا فيتمثل له فكرا و تخييلا و سأل رجل معبرا فقال إني رأيت كان الشمس و القمر يقتتلان و تناثرت الكواكب فيما بينهما فقال مع أيهما كنت قال مع القمر فقرا المعبر وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ وَ النَّهارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ وَ جَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً كنت مع الظلمة على النور فقتل الرجل مع معاوية في صفين .

و قال رجل لعلي بن الحسين (عليه السلام) رأيت في منامي كأني أبول في يدي فقال : تحتك محرم فنظروا فإذا بينه و بين امرأته رضاع .

و قال رجل للرضا (عليه السلام) : رأيت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في المنام يقول لي كيف أنتم إذا دفن في أرضكم بعضي و استحفظتم وديعتي و غيبت في ثراكم لحمي فقال (عليه السلام) أنا المدفون في أرضكم و أنا بضعة من نبيكم و أنا الوديعة و اللحم . الخبر .

فصل :

قوله تعالى : إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي لم يقل قارون أوتيته بعلم و ليس في اللغة أن يقال أعطيت كيت على علم أن يكون العلم سببا للعطية على أن العلم كثير فمن أين لنا أن المراد به الكيمياء و معنى الآية أن الله أخبر بمثل ذلك عن كل من

يؤتيه الله مالا إنه يقول مثل ما قال قارون و لما قال إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي رد عليه ذلك بقوله بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ يعني امتحان لا استحقاق و لا تعلق في ذلك بقوله عِنْدِي لأنه يريد أن هذا كما قلته فيما أراه و أتوهمه و قالت المعتزلة الكيمياء باطل لأن

أصحابه يدعون قلب الجنس و عندنا أنه من المعجزات و لا يؤخذ إلا بالوحي مثل الطب و النجوم و قالوا إن موسى علم قارون منها الثلث و علم يوشع الثلث و علم ابن هارون الثلث فخدعها قارون و يقال .

إن موسى (عليه السلام) سألته امرأته شيئا فقال خذي من هذا النبت فاجعليه على المس فإنه سيصير ذهبا فسمع منه قارون و نهاها عن ذلك و أعطاها شيئا و اشتغل به .

و روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال : هي أخت النبوة و عصمة المروءة و الناس يتكلمون فيها بالظاهر و إني لأعرف ظاهرها و باطنها .

و قد نسب إلى أئمتنا (عليهم السلام) في ذلك أشياء و الله أعلم .

قوله سبحانه : وَ آتَيْناهُ مِنَ الْكُنُوزِ ما إِنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ تحتمل أن موسى (عليه السلام) كان أخبر قارون بهلاك قوم فرعون فاستسلف منهم و استعار فلما هلكوا خلص له جميع ذلك .

قوله سبحانه : فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ لا يدل إلا على غناه .

فصل :

قوله تعالى : وَ مِنْ شَرِّ النَّفَّاثاتِ فِي الْعُقَدِ ليس للسحر حقيقة لأن هذه اللفظة تدل على بطلان معناها و آيات القرآن تدل على كفر فاعله إذا اعتقد صحته و فسقه إن لم يعتقد قوله وَ ما كَفَرَ سُلَيْمانُ وَ لكِنَّ الشَّياطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ و قوله وَ ما يُعَلِّمانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ و قوله وَ يَتَعَلَّمُونَ ما يَضُرُّهُمْ وَ لا يَنْفَعُهُمْ و قوله وَ لا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى فمن اعتقد قلب الحيوان من صورة إلى صورة و إنشاء الأجسام على وجه الاختراع و طاعة الجن و الشيطان و نحوها و من زخارفهم

فقد كفر لأنه لا يمكنه مع ذلك العلم بصحة المعجزات على النبوات لأنه أجاز مثله من جهة السحر و الذي يتحقق من ذلك وجوه منها التخييلات كفعل المستعيذ يرى الشيء بخلاف ما هو بخفة يده و منه التوصل بالأدوية التي جرت العادة أن عند شربها يحدث حوادث و منها أن يدخن بما يصل الدخان إلى دماغها فيحدث نحوا من ذلك و منها أن يولد لفعله في مسحور بشرط المماسة و منها أن يفعل بالنميمة ما يؤدي إلى الضرر .

قوله سبحانه : مِنْ شَرِّ الْوَسْواسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي ... السورة ، أي من شر الوسوسة التي تكون من الجنة و الناس أو قلت من شر ذي الوسواس و هو الشيطان كما جاء في الأثر .

أنه يوسوس فإذا ذكر العبد ربه خنس .

فأما و الناس عطف عليه كأنه قيل من الشيطان الذي هذه صفته أو قلت من شر ذي الوسواس الخناس على العموم ثم فسر بقوله من الجنة و الناس .

قوله سبحانه حكاية عن يعقوب يا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بابٍ واحِدٍ وَ ادْخُلُوا مِنْ أَبْوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ قال ابن عباس و قتادة و الضحاك و السدي و الحسن و البلخي و الرماني و أكثر المفسرين إنه خاف عليهم العين و قال تعالى في حق نبينا (صلى الله عليه وآله وسلم) وَ إِنْ يَكادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصارِهِمْ .

و قال وَ مِنْ شَرِّ حاسِدٍ إِذا حَسَدَ و قد فسره الصادق (عليه السلام) فقال هو العين و العين حق و هو قول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و قد عوذ الحسن و الحسين و قال في عوذته و أعيذكما من كل عين لامة .

و المعوذتين لأجلهما سميتا و قد اختلف المتكلمون في ذلك فأنكره أبو علي و أبو القاسم و قال الجاحظ لا ينكر أن ينفصل من العين الصائبة إلى الشيء المستحسن أجزاء لطيفة و يؤثر فيه كالخاصية و لو كان كما قال لما اختص ذلك ببعض الأشياء دون بعض و لأن الأجزاء جواهر متماثلة و قال الحسن و الرماني و القاضي إن العين تحصل بالعادة من فعل الله كما يحصل الشفاء عند الأدوية و هو اختيار المرتضى و قال الطوسي ليس

يمتنع أن يكون الله أجرى العادة بضرب من المصلحة أنه متى ما نظر إنسان إلى غيره على وجه مخصوص اقتضت المصلحة إهلاكه أو إمراضه أو إتلاف ماله .

[٤١]

فصل

قوله تعالى : فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ قال أبو جعفر بن بابويه اللوح و القلم ملكان و الملائكة لا تسمى أقلاما و لا ألواحا و قال الشيخ المفيد اللوح كتاب الله تعالى كتب فيه ما هو كائن إلى يوم القيامة يوضحه وَ لَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ و القلم هو ما أحدث الله به الكتابة فيه و جعل اللوح أصلا لتعرف الملائكة منه من غيب أو وحي و إنما سمي اللوح الذي يكتب فيه لأنه نحت على تلك الهيئة و كذلك قوله وَ حَمَلْناهُ عَلى ذاتِ أَلْواحٍ وَ دُسُرٍ و رجل عظيم الألواح أي اليدين و الرجلين و لو عنى به ما ذكروه لعرفه لأنه مقصود مخصوص و إنما ينكر الشيء متى ما كان ذا جنس و أشباه و أصل اللوح التلألؤ من لاح الشيء يلوح و لاح البرق فمعنى لَوْحٍ مَحْفُوظٍ أنه قرآن شريف في نظم عجيب يتلألأ حسنا محفوظا .

قوله سبحانه : وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ أنه لا تعلق فيه و أم كل شيء أصله يقال أم القرى أم الولد فأمه هاوية و قد فسره الله تعالى فقال مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ .

قوله سبحانه : وَ ما مِنْ غائِبَةٍ فِي السَّماءِ فاللوح لا يسمى كتابا و إذا فسر به فالمتعلق به عادل عن الظاهر ثم إن الله وضعه بذلك في مواضع فقال كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ * حم وَ الْكِتابِ الْمُبِينِ فكأنه قال لا غائبة في السماء و الأرض إلا و ذلك مبين في القرآن لقوله ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ و يدل عليه عقيب الآية إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ .

قوله سبحانه : وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ و اللوح لا يسمى إماما و يسمى القرآن إماما و قد تكلم الناس في كيفية ذلك فقال البلخي و الجبائي و الرماني إنه علامة جعله الله للملائكة إذا سمعوها علموا أنه أحدث أمرا كما قال فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً

أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ و قال بعضهم إن الأمر خاص في الموجودين الذين قيل لهم كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ و من جرى مجراهم لأنه لا يؤمر المعدوم و قال آخرون إنه

[٤٢]

أمر للمعدوم من حيث هو لله معلوم فصح أن يؤمر فيكون و قال آخرون إنها خاصة في الموجودات من إماتة الأحياء و إحياء الموتى و ما جرى مجرى ذلك الجواب الأول صحيح و ما سواه معترض عليه و قال الطوسي إنه بمنزلة المثل و معناه أن منزلة الفعل في السهولة و انتفاء التعذر كمنزلة ما يقال له كن فيكون كما يقال قال فلان برأسه كذا و قال بيده كذا إذا حرك رأسه و أومأ بيده و لم يقل شيئا في الحقيقة .

امتلأ الحوض و قال قطني *** مهلا رويدا قد ملأت بطني

و هذا وجه صحيح .

فصل :

قوله تعالى : وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ إن كان أراد كرسيا بعينه فهو كما قال تعالى و يجوز أن يكون مقدرته و سلطانه يقال فلان كريم الكرس أي الأصل .

تحف بها بيض الوجوه و عصبة *** كراسي بالأحداث حين تنوب

و يقال وسع علمه السماوات و الأرض و الكراسي العلماء و الكراسة جزء من العلم .

قوله سبحانه : وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي اختلف الناس في الروح أنه جسم أو عرض و لغة العرب تدل عليها قولهم كل ذي روح فحكمها كذا و قولهم فيمن مات خرجت منه الروح و هذه صورة لم تلجه الروح و قال البلخي هو الحياة التي تتهيأ بها المحل لوجود القدرة و العلم و الاختيار و اختاره الشيخ المفيد و قال أكثر المتكلمين إنه جسم رقيق هوائي متردد في مخارق الحيوان بها يتم كون الحي حيا و اختاره المرتضى و الطوسي يوضح ذلك قوله فَلَوْ لا إِذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ و البلوغ فعل و الفعل لا يتأتى من العرض و قال يوناني لجهم أخبرني عن معبودك هذا أ

رأيته قط قال لا قال فلمسته قال لا قال فشممته قال لا قال فذقته قال لا قال فسمعته قال لا قال فمن أين عرفته قال جهم فهل رأيت روحك أو شممته أو ذقته أو سمعته أو لمسته قال لا قال فكيف عرفت أن لك روحا .

[٤٣]

فصل

قوله تعالى : فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ يدل على بطلان قول من يقول إن المعارف ضرورية لأنه تعالى أخبر أنهم في شكهم يترددون و هذه صفة الشاك المتحير في دينه الذي ليس على بصيرة من أمره .

قوله سبحانه : ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا وَ اللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ يدل على بطلان قول من قال إن المعارف ضرورية لأن الله تعالى أخبر عنهم أنهم لم يكونوا مشركين عند أنفسهم في دار الدنيا و أن الله كذبهم و أنهم كانوا كاذبين على الحقيقة و إن اعتقدوا خلافه في الدنيا فأما معارفهم في الآخرة ضرورية حاصلة على وجه هم ملجئون إليها فعلى الوجهين جميعا لا يجوز أن يقع منهم القبيح لا محالة .

قوله سبحانه : وَ هُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَ يَنْأَوْنَ عَنْهُ وَ إِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ فيها دلالة على قول من قال إن معرفة الله ضرورية و إن من لا يعرف الله و لا يعرف نبيه لا حجة عليه لأنه تعالى بين أن هؤلاء الكفار قد أهلكوا أنفسهم بنهيهم عن قبول القرآن و تباعدهم عنه و أنهم لا يعلمون بإهلاك أنفسهم بذلك فلو كان من لا يعرف الله و لا نبيه و لا دينه و لا حجة عليه لكان هؤلاء معذورين و لم يكونوا هالكين و ذلك خلاف ما نطق به القرآن .

قوله سبحانه : وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً في الآية دلالة على أن المعارف ليست ضرورية لما حسبوا غير ذلك لأن الضروريات لا شك فيها .

قوله سبحانه : فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ دال على أن معرفة الله باكتساب لأنها لو كانت ضرورية لما أمر بها .

قوله سبحانه : أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلى قَرْيَةٍ وَ هِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها فيها دلالة على فساد قول من يقول إن المعارف ضرورية لأنها لو كانت ضرورية لما حاج إبراهيم للكافر و لا ذكر له الدلالات على إثبات الصانع و فيها دلالة على فساد التقليد و حسن المحاجة و الجدال .

فصل :

اعلم أن الله تعالى قد حث على النظر في طريق معرفته فقال أَ فَلا يَنْظُرُونَ * أَ فَلا تُبْصِرُونَ * أَ فَلا يَسْمَعُونَ * أَ فَلا تَذَكَّرُونَ * أَ فَلا تَعْقِلُونَ * إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ * إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ * إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ * إِنَّ فِي ذلِكَ لَرَحْمَةً * إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشى * أَ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ * أَ وَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ * قُلِ انْظُرُوا ما ذا فِي السَّماواتِ * فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلى طَعامِهِ * فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ مِمَّ خُلِقَ * أَ فَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ * أَ لَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ .

و قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : **من عرف نفسه فقد عرف ربه .**

و قال (صلى الله عليه وآله وسلم) : **أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه .**

و قرب إلى زين العابدين (عليه السلام) طهوره في وقت ورده فوضع يده في الإناء ليتوضأ فنظر إلى السماء فجعل يفكر في خلقتها حتى أصبح .

و تربى إبراهيم (عليه السلام) في غار فلما خرج منه رأى الكواكب ثم القمر ثم الشمس فقال على سبيل الفكر أو قبل البلوغ أو على سبيل الإنكار أو على سبيل الاستفهام هذا ربي .

قول الشاعر :

ما راح يوم على حي و لا ابتكرا *** إلا رأى عبرة فيه إن اعتبرا

و جاء سوفسطائي إلى متكلم مناظرا و هو راكب فأمر المتكلم أن يغيب دابته فلما أراد الانصراف لم يجدها فقال للمتكلم فقدت دابتي فقال و راكبا جئت فلعلك جئت راجلا و تخيل إليك الركوب و تكون ظانا أو ناسيا قال لست بنائم و لا مغلوب فقال المتكلم كيف تدعي أنه لا حقيقة لشيء و إن الأشياء بظن و بحسب و إن حال اليقظان كحال النائم قال فوجم السوفسطائي و رجع عن مقاله .

قوله سبحانه : أَ لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ قال ذلك لقوم كانوا غير مقرين

[٤٥]

بما أخبروا به من شأن الأمم قبلهم لأن الكثير منهم كان مقرا بذلك و من كان منكرا منهم فإنه ادعى بهذه الآية إلى النظر و التدبر ليعرف بذلك ما عرفه غيره .

و سأل ابن أبي العوجاء الصادق (عليه السلام) دليلا على حدوث العالم فقال (عليه السلام) ما وجدت شيئا صغيرا و لا كبيرا إلا و ضم إليه مثله صار أكبر و في ذلك زوال و انتقال عن الحالة الأولى و لو كان قديما لما زال و لا حال لأن الذي يزول و يحول يجوز أن يوجد و يبطل فيكون وجوده بعد عدمه في الحدث و في كونه في الأزل دخوله في القدم و لن يجتمع صفة الحدث في شيء واحد .

و قال (عليه السلام) لابن أبي العوجاء و قد سمع منه لست بمصنوع : فلو لم تكن مصنوعا كيف كنت تكون .

و قيل للرضا (عليه السلام) ما الدليل على حدث العالم قال : أنت لم تكن ثم كنت و قد علمت أنك لم تكن نفسك و لا كونك من هو مثلك .

و أصغى الباقر (عليه السلام) إلى انتحال بعض المعطلة ثم قال : أ رأيت إن كان ما تقوله و تثبته من هذه حقا يضرنا ما نحن عليه قال لا قال فإن كان ما تقوله أنت باطلا يمكنك أن تستقبل العمل بعد الموت قال لا قال فأي الحالين أفضل عندك حال توجد

عندك للحاجة إليها أو حال تخزى و تورث الندم و حسب العاقل هذا من عز أولياء الله و خزي أعدائه .

شعر :

جميع ما تشهده مؤلف *** مركب منوع مصنف

فصل :

قوله تعالى : لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْراهِيمَ وَ ما أُنْزِلَتِ التَّوْراةُ وَ الْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ فيها دلالة على أن العاقل لا يعذر في الإقامة على الدعوى بغير حجة لما فيه من البيان على الفساد و الانتقاض و لأن العقل طريق إلى العلم فكيف يضل عن الرشد من قد جعل إليه السبيل .

قوله سبحانه : قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمْ ... الآية لما نزلت هذه الآية .

قال عدي بن حاتم : ما كنا نعبدهم يا رسول الله فقال (عليه السلام) : أ ما كانوا يحلون لكم و يحرمون فتأخذون بقولهم قال نعم فقال (عليه السلام) هو ذاك .

قال الصادق (عليه السلام) في هذه الآية : و الله ما صلوا و لا صاموا و لكن أحلوا لهم حراما و حرموا عليهم حلالا فعبدوهم و هم لا يشعرون .

[٤٦]

قوله سبحانه : وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ ... الآيتان .

وقال ابن عباس في هذه الآية دعا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الكفار و اليهود إلى الإسلام فقال : بل ما ألفينا عليه آباءنا .

الصادق (عليه السلام) : من أخذ دينه من أفواه الرجال أزالته الرجال و من أخذ دينه من الكتاب و السنة زالت الجبال و لم يزل .

إن الله تعالى ذمهم على تقليد آبائهم و وبخهم على ذلك و لو جاز التقليد لم يتوجه إليهم توبيخ و لا لوم و قد ذم الله التقليد في آيات وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ * وَ ما يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا * فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ * قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ * وَ لا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ * وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي و حكي عن إبراهيم (عليه السلام) ما هذِهِ التَّماثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَها عاكِفُونَ قالُوا وَجَدْنا آباءَنا لَها عابِدِينَ قالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ .

فصل :

قوله تعالى : وَ فِي أَنْفُسِكُمْ أَ فَلا تُبْصِرُونَ .

و قيل للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بم عرفت ربك قال : بما عرفني ربي قيل و كيف عرفك قال لا تشبهه صورة و لا يحس بالحواس و لا يقاس بقياس الناس .

و قال (عليه السلام) لآخر بالنوم مرة و باليقظة أخرى فلو لا مدبر و صانع يأتي بأحدهما مرة و بالآخر أخرى لبقيت على صفة واحدة فلما رأيت زوال الصفة الأولى و حدوث الصفة الأخرى عرفت أنه لأجل مدبر صانع فعله .

و قال (عليه السلام) لآخر بفسخ العزائم و حل العقود .

و قال (عليه السلام) اعرفوا الله بالله .

أي بنصب أدلة على نفسه .

و قيل للصادق (عليه السلام) ما الدليل على أن للعالم صانعا قال : أكبر الأدلة في نفسي لأني وجدتها لا تعدو أحد أمرين إما أن أكون خلقتها و أنا موجود و إيجاد الموجود محال و إما أن أكون خلقتها و أنا معدوم فكيف يخلق لا شيء فلما رأيتهما فاسدين من الجهتين جميعا علمت أن لي صانعا و مدبرا .

محمد بن علي الخراساني قال الرضا (عليه السلام) للزنديق الذي سأله عن الدليل على الله تعالى : إني لما نظرت إلى جسدي و لم يكن فيه زيادة و لا نقصان في العرض و

الطول و رفع المكاره عنه و جر المنافع إليه علمت أن لهذا البنيان بانيا فأقررت مع ما أرى من دوران الفلك بقدرته و إنشاء السحاب و تصريف الرياح و مجرى الشمس و القمر و النجوم و غير ذلك من الآيات البينات علمت أن لها مقدرا و منشئا .

هشام بن الحكم قال الصادق (عليه السلام) لرجل من الزنادقة : الدليل على الله وجود الأفاعيل التي دلت على أن صانعا صنعها .

و قال الآخر : إني لما رأيت

[٤٧]

حصنا ملزقا أملس لا فرج فيه و لا خلل ظاهره من فضة و باطنه من ذهبة مائعة ينفلق منه طاوس و غراب و نسر و عصفور فعلمت أن للخلق صانعا ابن جبير عرفت ربي بالظاهر بإتقان التصوير و الباطن بنقض التدبير أعرابي ويحك إن البعرة تدل على البعير و الروثة تدل على الحمير و آثار القدم تدل على المسير فهيكل علوي بهذه اللطافة و مركز سفلي بهذه الكثافة أ ما يدلان على الصانع الخبير آخر وجدت أضدادا مجموعة فقلت أ جمعت بالطبع أم بالصنع فنظرت فلم يكن في الطبع قبول الإفراد فعلمت أنها من صنع صانع رأيت الورقة و النورة أكلتهما النحلة و اليرقة فتولد من أحدهما خلاف ما تولد من الآخر فدلني ذلك على أنها من صنع حكيم لطيف .

الأصبغ قال رجل لأمير المؤمنين (عليه السلام) لقد قدم إلي حينا رجل زنديق يتكلم بكلام لا نعرفه و إنا نخاف أن يبطل علينا ديننا فإن رأيت أن تعلمنا كلاما تبطل به حجته و ندحض به مقالته فافعل قال فدعا (عليه السلام) بدواة و بياض و كتب : بسم الله الرحمن الرحيم من علي بن أبي طالب وصي محمد النبي إلى عدو الله و مضل عباده ، أما بعد :

فوق ذا العالم الذي نحن فيه عالم آخر و ملك يليهعالم واسع كبير عظيم ليس نفس تطيق أن تبتليهأين ماء الغيوم و الرعد و البرق إذ الجو لا يرى الغيم فيهأين مأوى الظلام في مطلع الشمس إذا الصبح دائما يقتضيهأين مأوى الحرور أيام قرحين يأتي الشتا ببرد كريهأين فيض المدود إن نقص الماء فيعي اصطبار من يستقيهأين مأوى النهار في حندس الليل إذا الليل دائبا يحتويهأين مأوى الثلوج أيام حر مهج الوهج كربة

يعتريهأين ذا كله يكون إذا ما عز يوما أو اشتكى طالبيهكل هذا الذي يدل لذا الخلق حكيما مدبرا يبتديه.

فلما قرأ الزنديق الكتاب هرب .

قوله سبحانه : وَ هُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ الأشياء كلها سواء عنده و الوجه فيه ما قال ابن عباس و هو أهون عليه أي هين عليه أول خلقه .

[٤٨]

قال ذو الرمة :

أخي قفرات دبت في عظامه شفافات *** أعجاز الكرى و هو أخضع

يريد خاضع .

و قال معز بن أوس :

لعمرك ما أدري و إني لأوجل *** على أينا تعدو المنية أول

أي وجل و يحتمل أنه جواب قوله قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ لأن الإنشاء أصعب من الإعادة .

فصل :

قوله تعالى : يا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ إلى قوله عَزِيزٌ و قوله فَانْظُرْ إِلى آثارِ رَحْمَتِ اللَّهِ إلى قوله قَدِيرٌ و قوله أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ عام فهو قادر على الأشياء كلها على ثلاثة أوجه على المعدومات بإيجادها و إنشائها و على الموجودات بتغييرها و إفنائها و على المقدورات لغيره بأن يقدر عليها أو يمنع منها و قيل خاص في مقدوراته و لفظ كل يستعمل للتخصيص كقوله تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ * وَ أُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ .

سأل أبو شاكر الديصاني هشام بن الحكم أ من قدرة الله تعالى أن يدخل السماوات و الأرضين و ما بينهما في بيضة و لا تصغر الدنيا قال فذكرت ذلك لأبي عبد الله (عليه السلام) فقال : كم لك من الحواس قلت خمس قال فأيهن أضعف قلت العين قال العين بما تبصر قلت بالناظر قال فكم مقدار الناظر في رأي العين قلت أقل من عدسة قال فأبصر ما ترى أمامك صف لي قلت دورا و قصورا و أنهارا و أشجارا و السماء و الأرض قال إن الذي أراك ذلك بأقل من عدسة و كذلك يحكم في البيضة .

و سئل الصادق (عليه السلام) عن ذلك بعينه فقال : إن الله تعالى لا ينسب إلى العجز و الذي سألتني لا يكون .

و جمع الجعد بن درهم ماء و ترابا في قارورة فاستحال دودا فقال أنا خلقت ذلك فبلغ ذلك الصادق (عليه السلام) فقال : فليقل كم هو و كم الذكران منه و الإناث و كم وزن كل واحدة منها و ليأمر الذي يسعى إلى هذا الوجه أن ينصرف إلى غيره فانقطع .

قوله سبحانه : كُنْ فَيَكُونُ قول من قال إن كن سبب للحوادث التي يفعلها الله تعالى فاسد من وجوه أحدها أن القادر بقدرة إذا قدر أن يفعل من غير سبب فالقادر للنفس بذلك أولى و منها أن كن محدثة فلو احتاجت إلى كن أخرى لتسلسل و ذلك فاسد و لو استند ذلك

إلى كن القديمة لوجب قدم المكون لأنه كان يجب أن يكون عقيبه لأن الفاء يوجب التعقيب و ذلك يؤدي إلى قدم المكونات و منها أنه لو ولدت لولدت مثل فعلنا كالاعتماد و إنما يستعمل القديم تعالى لفظ الأمر فيما ليس بأمر هاهنا ليدل بذلك على أن فعله بمنزلة المأمور في أنه لا كلفة على الأمر فكذلك هاهنا لا كلفة على الفاعل .

قوله سبحانه : هُوَ يُحيِي وَ يُمِيتُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ قال أبو علي في هذه الآية دلالة على أنه لا يقدر على الحياة إلا الله لأنه يمدح بكونه قادرا على الإحياء و الإماتة فلو كان غيره قادرا على الحياة لما كان له في ذلك مدح و فيها دلالة على كونه قادرا على الإعادة لأن من قدر على النشأة الأولى يقدر على النشأة الثانية .

قوله سبحانه : هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً و قوله مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً يقتضي أن له قوة و أن قوته أشد من قوتهم و تقتضي أن قوته شديدة و الشدة أنما هي الصلابة و لا يجوز وصف الأعراض بالشدة و الصلابة على الحقيقة و أن القوة أنما تستعمل في الأجسام دون الأجزاء و الجوهر المحتمل الأعراض يقال إنما هو ذو قوة شديدة و هو أشد بأسا منا على الأمر إذا كانت جوارحه متكثرة صلبة الأجزاء غير رخوة و معناه أنه تعالى أقوى منهم و أقدر لأن لفظه أشد تستعمل على هذا الوجه فيقال هذا أشد بياضا من هذا كما يقال هذا أفضل من هذا .

و قال أمير المؤمنين (عليه السلام) في الدرة اليتيمة ليس بقادر من قارنه ضدا و ساواه ندا .

و قال (عليه السلام) في خطبته العشرات الحمد لله المتجلي لخلقه بخلقه .

و يقال القادر بالحق على الإطلاق من أوجد الأضداد في الأخلاق .

الصاحب :

الصنع لا بد له من صانع *** لا سيما مع كثرة البدائع

و إنما تمر بلا منازع *** فالملك لا يبقى على التمانع

قوله سبحانه : قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ إلى قوله فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فيها دلالة على التوحيد لأن ما ذكره في الآية يوجب أن المدبر واحد لأنه لا يجوز أن يقع ذلك اتفاقا لإحالة العقل مع ذلك و لا يجوز أن يقع بالطبيعة لأنها في حكم الموات لو كانت

معقولة فلم يبق ذلك إلا أن الفاعل لذلك قادر عالم يدبره على ما يشاء و هو الله تعالى مع أن الطبيعة مدبرة مفعولة فكيف تكون هي المدبرة .

قوله سبحانه : وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ يحتمل أمرين أحدهما أن يكون أراد بخلق قدر فعلى هذا تكون الآية عامة لأنه تعالى مقدر كل شيء أو أراد أنه أحدث كل شيء فعلى هذا يكون خاصا لأنه لم يحدث أشياء كثيرة من مقدورات غيره و ما هو معدوم لم يوجد .

فصل :

قوله سبحانه : إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ لا يخفى على الله منهم شيء الوصف بأنه لا يخفى عليه شيء في الأرض و لا في السماء و أنه يعلم ما لا يعلمه غيره يدل على أنه يعلمه من كل وجه من حيث كان عالما لنفسه و العالم للنفس يجب أن يعلم كل ما يصح أن يكون معلوما و ما يصح أن يكون معلوما لا نهاية له فوجب أن يكون عالما به و إنما يجوز أن يعلم من وجه دون وجه من كان عالما بعلم يستفيد العلم حالا بعد حال فأما من كان عالما لنفسه فلا يجوز أن يخفى عليه شيء بوجه من الوجوه .

قوله سبحانه : لا عِلْمَ لَنا إِلَّا ما عَلَّمْتَنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ أي إنه عالم بغير تعليم بدلالة أنهم أثبتوا لله ما نفوه عن أنفسهم بقولهم لا عِلْمَ لَنا إِلَّا ما عَلَّمْتَنا و يقال إنه العليم الحكيم أي العالم و هو من صفات ذاته فلما بالغ فيه أفاد أنه عالم بجميع أجناس المعلومات مما يصح أن يكون معلوما .

قوله سبحانه : وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ و قوله يَعْلَمُ ما فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ ... الآية و قوله وَ عِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ عام يدل على أنه يعلم الأشياء كلها قديمها و حديثها موجودها و معدومها .

قوله سبحانه : يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَ ما تُخْفِي الصُّدُورُ و قوله يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَ

جَهْرَكُمْ و قوله إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَ يَعْلَمُ ما تَكْتُمُونَ فيها دلالة على أنه عالم لذاته .

قوله سبحانه : وَ أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ معناه أنه يعلم جميع المعلومات لكونه عالما لنفسه و فعيل يدل على المبالغة .

قوله سبحانه : وَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً معناه أن معلوماته متميزة بمنزلة ما قد أحاط به .

قوله سبحانه : وَ اللَّهُ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ أي يحيط علمه بما تعملونه و إنه قادر على جزاء ما تعملونه من ثواب أو عقاب .

قوله سبحانه : فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ إنما خص المفسدين بأنه عليم بهم على جهة التهديد لهم و الوعيد بما يعلم مما وقع من فسادهم كما يقول القائل أنا أعلم بشر فلان و ما يجري إليه من الفساد

قوله سبحانه : أَ أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ صورته صورة الاستفهام و المراد به التوبيخ و مثله أَ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ فإن قيل لم قال أنتم أعلم أم الله و قد كانوا يعلمونه فكتموه و ظاهر هذا الخطاب لمن لا يعلم الجواب من قال إنهم ظنوا فالجواب ظاهر و من قال إنهم علموا و إنما جحدوه نقول معناه أن منزلتكم منزلة المعترض على ما يعلم أن الله أخبر به فما ينفعه ذلك مع إقراره فإن الله أعلم منه و إنه لا يخفى عليه شيء لأن ما دل على أنه أعلم دل على أنه عالم لنفسه .

قوله سبحانه : رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما فِي نُفُوسِكُمْ معنى ذلك أن معلوماته أكثر من

معلوماتهم و قد يقال أعلم بمعنى أثبت فيما به يعلم فنحن من هذا نقول إن الله تعالى أعلم بأن الجسم حادث من الإنسان العالم به و كذلك كل شيء يمكن أن يعلم متغايرا فالله تعالى عالم به على تلك الوجوه و إن خفي على الواحد منا بعضها و معنى بِما فِي نُفُوسِكُمْ أي بما تضمرونه و تخفونه عن غيركم فالله أعلم به منكم و في ذلك غاية التهديد .

قوله سبحانه : إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ المعنى أنه أعلم به ممن يعلمه لأنه يعلم من وجوه يخفى على غيره لأنه تعالى عالم بعلم ما كان و ما يكون و ما هو كائن إلى يوم القيامة و على جميع الوجوه التي يصح أن يعلم الأشياء عليها و ليس كذلك غيره لأن غيره لا يعلم جميع الأشياء و ما يعلمه لا يعلمه من جميع وجوهه و أما من هو غير عالم أصلا فلا يقال الله أعلم منه لأن لفظة أعلم يقتضي الاشتراك في العلم و زيادة لمن وصف بأنه أعلم و هذا لا يصح ممن ليس بعالم أصلا إلا مجازا أو لا يصح أن يقال هو تعالى أعلم بأن الجسم حادث من كل من يعلمه حادثا لأنه قد ذكر الوجه الذي يعلم منه و هو أنه حادث فإن أريد بذلك المبالغة في الوصف و أن هذه الصفة فيه أثبت من غيره جاز أن يقال فيه ذلك .

فصل :

قد تعلق من ذهب في حدوث العلم و أنه لا يعلم الشيء قبل كونه بآيات منها أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَ يَعْلَمَ الصَّابِرِينَ * وَ ما جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْها إِلَّا لِنَعْلَمَ * وَ ما كانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ * وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَ الصَّابِرِينَ * الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَ عَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ قال لا يجوز أن يقول مثل ذلك و هو عالم به الجواب أنه لو لم يتقدم العلم بحالهم و حال ما كلفهم لقبح التكليف أصلا لأنه إنما يحسن من المكلف أن يأمر بما يعلم حسنه و إن المكلف يتمكن من فعله على الوجه الذي كلفه فكيف يصح مع هذا أن يكون علمه بحالهم حادثا بعد التكليف و عند فعلهم ما كلفوا على أن ليس في ظواهر الآيات ما ينبئ عن كونه غير عالم بما سيكون منهم و العالم بالشيء إنما يكون عالما به إذا علمه على ما هو به فالله تعالى إنما يعلم المجاهد مجاهدا إذا جاهد و يعلمه مؤمنا إذا آمن و ليس في ذلك نفي كونه

عالما من سيؤمن و سيجاهد و هو موضع النزاع و قال المرتضى قوله لنعلم يقتضي حقيقته أن يعلم هو و غيره و لا يحصل علمه مع علم غيره إلا بعد حصول الاتباع فأما قبل حصوله فإنما يكون هو تعالى العالم وحده فصح حينئذ ظاهر الآية .

قوله سبحانه : اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى إلى قوله لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى و وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَها فلا يوجبان الشك و إن الله تعالى قد علم أن فرعون لا يتذكر و لا يخشى و الكفار لا يجنحون إلى السلم و لكنه تعالى أراد أن يطيب بذلك نفوس المخاطبين و يقوي قلوبهم كما يقول للأجير افرغ من عملك لعلك تأخذ أجرك أي لتأخذه .

قوله سبحانه : لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ متعدد و لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ متعدد فيها معنى الشك لكنه العباد دون الله تعالى .

قوله سبحانه : عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا قال الحسن و البلخي و الزجاج و أكثر المفسرين إن عسى من الله واجب و وجه ذلك أن إطماع الكريم إنجاز و إنما الإطماع تقوية أحد الأمرين على الآخر دون قيام الدليل على التكافي و الجواز و خرج عسى في هذا من معنى الشك كخروجها في قول القائل أطع ربك في كل ما أمرك به و نهاك عنه عسى أن تفلح بطاعتك .

قوله سبحانه : وَ ما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا أي ليس الله ممن ينسى و يخرج عن كونه عالما لأنه تعالى عالم لنفسه و تقديره هاهنا و ما نسيك و إن أخر الوحي عنك و يقال ما كان ربك نسيا أي لا يثيبهم كما يقال للملك و السيد قد نسيتنا فما تذكرنا يعنون أنه لا يأتينا منك خير .

قوله سبحانه : فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ قال ابن عباس نترككم في العقاب كما نسيتم لقاء أي كما تركتم ذكر لقاء يومكم هذا و يقال أي لم يقبلوا الطاعة و لم يؤمنوا به فينفعهم في الآخرة .

أي فما أعطاهم الثواب .

[٥٤]

قوله سبحانه : نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ أي تركوا الله في معرفته و عبادته فتركهم عند الجزاء .

قوله سبحانه : وَ لِيَبْتَلِيَ اللَّهُ ما فِي صُدُورِكُمْ و قوله لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ و قوله وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ يحتمل أمرين أحدهما ليعاملكم معاملة المبتلي المختبر لكم مظاهرة في العدل و أخرج كلام المختبر لهذه العلة لأنه تعالى عالم بالأشياء قبل كونها فلا يبتلي ليستفيد علما و الثاني ليبتلي أولياء الله ما في صدوركم إلا أنه أضاف الابتلاء إلى الله عز و جل تفخيما لشأنه .

قوله سبحانه : فَما أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ التعجب لا يجوز على الله تعالى لأنه عالم بجميع الأشياء لا يخفى عليه شيء و التعجب يكون مما لا يعرف سببه و إنما الغرض بالآية أن يدلنا على أن الكفار حلوا محل من يتعجب منه فهو تعجيب لنا منهم و قال الحسن و قتادة و مجاهد إن ما في قوله فَما أَصْبَرَهُمْ للتعجب و قال ابن عباس و ابن جريح و ابن زيد و السدي إنها للاستفهام و قال الكسائي هو استفهام على وجه التعجب كأنه توبيخ لهم و تعجب لنا .

قوله سبحانه : وَ قُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ قال مجاهد المراد بالرؤية هاهنا العلم الذي هو المعرفة لأنه عداه إلى مفعول واحد و إنما قال فَسَيَرَى اللَّهُ على وجه الاستقبال و هو عالم بالأشياء قبل وجودها فالمراد بذلك أنه سيعلمها موجودة بعد أن علمها معدومة و كونه عالما بأنها ستوجد بعد كونه عالما بوجودها إذا وجدت لا يجدد حالا له بذلك .

قوله سبحانه : أَحْصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً معناه أنه لا شيء يعلمه عالم أو يذكره ذاكر إلا

و هو عالم به و محص له و الإحصاء فعل و ليس هو بمنزلة العلم فلا يجوز أن يقال أحصى ما لا يتناهى كما يجوز أن يقال علم ما لا يتناهى لأن الإحصاء مثل المحصى لا يكون إلا فعلا متناهيا و إذا لم يجز أن يفعل من الإحصاء ما لا يتناهى آخره لم يجز أن يقال إنه قد أحصى ما لا يتناهى و يجوز أن يقال إنه يحصي ما لا يتناهى إحصاء دائما لا يتناهى كما يجوز أن يقال إنه يفعل ما لا يتناهى .

قوله سبحانه : فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا أي في إيمانهم وَ لَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ فيه إنما قال فليعلمن مع أنه الاستقبال و الله تعالى عالم فيما لم يزل بحدوث المعلوم فلا يصح الصفة إلا مع المستقبل إذ لا يصح عالما بأنه حادث لانعقاد معنى الصفة بالحادث و هو إذا حدث علمه تعالى بنفسه .

قوله سبحانه : كُلٌّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ * وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ إنما أثبت ذلك مع أنه عالم لا يعزب عنه شيء لما فيه من اللطف للملائكة أن يكون فيه لطف لمن يخبر بذلك .

قوله سبحانه : وَ ما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُها ... الآية قال قطرب إنما يكون ذلك للتأكيد على العباد و التخويف لهم في حفظ أعمالهم عليهم لأن ما لا ثواب فيه و لا عقاب يكون محصيا عنده في كتاب فأعمالكم التي فيها الثواب و العقاب أولى بالكتاب و الإحصاء

قوله سبحانه : الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ و قال ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ و قال خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ ما شاءَ رَكَّبَكَ نظر أعرابي يوم الجمعة إلى الناس و قد اجتمعوا له فقال صورة واحدة و خلق مختلف ما هو إلا صنع حكيم عليم رأى رجل تناثر الأوراق فهجس في خاطره هل يعلم الله عددها فنزل أَ لا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ابن عباس كانت امرأة تصلي خلف النبي

[٥٦]

(صلى الله عليه وآله وسلم) و كان بعضهم يتقدم في الصف الأول لئلا يراها و كان بعضهم في أول الصف إذا ركع قال هكذا و نظر من تحت إبطه فنزل وَ لَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَ لَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ لا يعلم الغيب أحد إلا هو الفرد الصمد .

أبو نواس :

كل مستخف بشيء فمن الله بمرأى *** لا ترى شيئا من الله من الأشياء يخفى

قوله سبحانه : لكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِما أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَ ما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَ لا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ معناه و هو عالم به و لو كان المراد بذلك ذاتا أخرى لوجب أن يكون العلم آلة في الإنزال فظاهر اللفظ يقضي أن الوضع و الإنزال و الحمل بعلمه فيكون آلة له لأن ذلك قضية للفظ و الباء تدخل في الكلام دلالة للآلة نحو ضربته بالسيف أو يكون سببا للمسبب نحو أوجعته بالضرب أو علة للمعلول نحو اسود بالسواد أو مجازا فيكون عبارة عن الفاعل نحو كان ذلك بمرأى أو بمسمع أي كنت أسمعه و أراه و لا يجوز أن يكون العلم سببا لهذه المذكورات و لا علة لأن العلم أنما يكون علة للعالم لا لما علقه به و لا سببا لأن العلم لا يوجب هذه الأشياء و إنما يوجب إرادته و فعله فلم يبق إلا أنه أنزله و هو عالم به كما يقال أعطيت القوم كذا برضى الملك أي و هو راض به فتقوم الباء مع المصدر مقام الابتداء و الخبر ثم إن الباء التي لا تستقل الكلام بإسقاطها باء الإلصاق مثل كتبت بالقلم و الإلصاق يستحيل في العلم و كذلك الإنزال .

قوله سبحانه : وَ لا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ يقتضي أن علمه يتبعض لدخول من التي للتبعيض و العدول عن الظاهر يقتضي أن علمه يتفنن بما يعلمه غيره و ما لا يعلمه و أنه لا يعلم من علمه إلا بما يشاء فلعله لم يشأ أن يعلم علمه أي كونه و لفظة العلم مصدر و هو متردد بين الفاعل و المفعول يقال فعلت كذا بعلمي و ليكن جميع ما يفعله فلان بعلمك و هذا علم أبي حنيفة فلما استعمل في الاستخبار عن العالم و عن المعلوم وجب صرفه إلى الأصوب .

الفضل بن شاذان قيل للرضا (عليه السلام) إن قوما يقولون إنه عز و جل لم يزل عالما بعلم و قادرا بقدرة و حيا بحياة و قديما بقدم و سميعا بسمع و بصيرا ببصر ؛ فقال : من قال بذلك و دان به فقد اتخذ مع الله آلهة أخرى و ليس من ولايتنا على شيء ثم قال

لم يزل الله عالما بعلم قادرا حيا قديما سميعا بصيرا لذاته تعالى عما يقول المشركون و المشبهون علوا كبيرا .

الصاحب :

هو العالم الذات الذي ليس محوجا *** إلى العلم و الأعلام تبدوا فتشهدوا

و ليس قديما سابقا غير ذاته *** و إن كان أبناء الضلالة تلددوا

فصل :

قوله تعالى : اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * الم اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * هُوَ الْحَيُّ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ * هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ

جاء عبد الملك بن أبي العوجاء إلى الصادق (عليه السلام) فقال يا أبا عبد الله إن المجالس بالأمانات و لا بد لكل من به سؤال أن يسأل فتأذن لي بالكلام فقال تكلم بما شئت فقال إلى كم تدوسون هذا البيدر و تلوذون بهذا الحجر و تعبدون هذا البيت المرفوغ بالطوب و المدر و تهرولون هرولة البعير إذا نفر من فكر فيها أو قدر علم أن هذا أسسه غير حكيم و لا ذو نظر فقال (عليه السلام) إن يكن الأمر على ما تقول و ليس كما تقول نجونا و نجوت و إن لم يكن الأمر على ما تقول و هو كما نقول نجونا و هلكت فقال ما قولي و قولهم إلا واحد فقال (عليه السلام) كيف يكون ذلك و هم يقولون إن لهم معادا و ثوابا و عقابا و يدينون أن للسماء إلها و أنها عمران و أنتم تزعمون أنها خراب فقال ما منعه أن يظهر لخلقه و يدعوهم إلى عبادته حتى لا يختلف منهم اثنان و لم احتجب عنهم و أرسل إليهم الرسل فقال (عليه السلام) ويلك و كيف احتجب عنك من أراك قدرته في نفسك و نشئك و لم تكن و كبرك بعد صغرك و قوتك بعد ضعفك و ضعفك بعد قوتك و سقمك بعد صحتك و صحتك بعد سقمك و رضاك بعد غضبك و غضبك بعد رضاك و حزنك بعد فرحك و فرحك بعد حزنك و حبك بعد بغضك و بغضك بعد حبك و عزمك بعد إبائك و إبائك بعد عزمك و شهوتك بعد كراهتك و كراهتك بعد شهوتك و رغبتك بعد رهبتك و رهبتك بعد رغبتك و رجاءك بعد يأسك و

يأسك بعد رجائك و خاطرك بما لم يكن في وهمك و غروب ما لم تكن معتقدة عن ذهنك و ما زال يعد عليه قدرته حتى ظننت أنه سيظهر .

قوله سبحانه : هُوَ الْأَوَّلُ وَ الْآخِرُ ...الآية .

[٥٨]

سئل أمير المؤمنين (عليه السلام) أين كان الله قبل خلق السموات و الأرض فقال (عليه السلام) : أين سؤال عن مكان و كان الله و لا مكان فلما خلق المكان لم يتغير عما كان .

و سأل نافع المقري الباقر (عليه السلام) أخبرني متى كان الله فرفع (عليه السلام) رأسه إليه فقال له : يا نافع أخبرني متى لم يكن حتى أخبرك متى كان فرجع نافع يقول الله أعلم حيث يجعل رسالاته .

و سأل أمير المؤمنين حبر متى كان ربك فقال : ثكلتك أمك متى لم يكن حتى يقال متى كان ربي قبل القبل بلا قبل و يكون بعد البعد بلا بعد و لا غاية و لا منتهى لغايته انقطعت الغايات عنه فهو منتهى كل غاية .

و في خطبة أمير المؤمنين (عليه السلام) : لم تسبق له حال حالا فيكون أولا قبل أن يكون آخرا و يكون ظاهرا قبل أن يكون باطنا .

و قوله (عليه السلام) ليس عن الدهر قدمه و لا بالناحية أممه .

فصل :

قوله تعالى : قَدْ سَمِعَ اللَّهُ ... الآية نزلت في أوس بن الصامت لما ظاهر زوجته ابن مسعود قال تكلم صفوان بن أمية و عبد نائل أن الله يسمع ما تقول فقال أحدهما إنه يسمع القديد دون الهمس و قال الآخر إن من سمع القديد سمع الهمس فأخبرت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بذلك فنزل وَ ما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ ... الآيات .

المفسرون عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في قوله وَ لَقَدْ آتَيْنا داوُدَ مِنَّا فَضْلًا أنه سرى داود منفردا إلى جبل للتعبد فكان يناجي ربه فعرض له وحشة فقال الله تعالى يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَ الطَّيْرَ فسبحوا الله و هللوه فهجس في ضميره رجمتهم فأخذ ملك عضده و أتى به إلى الساحل و ركض البحر برجله فانشق البحر و ظهر الحيتان فطردهم فأبدى صخرة عليها دودة فقال يا داود إن الله يسمع نفس هذه الدودة في هذا المكان .

و اعلم أن إسماع الكلام يشتمل في اللغة على ثلاثة أوجه على الإدراك بحاسة السمع و هو حقيقة فيه و في العلم

[٥٩]

بالكلام على ما ذكر جماعة من المفسرين و أهل العدل من البغداديين في قوله قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجادِلُكَ فِي زَوْجِها و قول القائل أنا بمسمع منك و أنا سامع لكلامك و مشاهد لفعالك إذا كان يراعي أخباره حتى يصل إليه و يعلمها و في الكلام الذي تحصل فائدة يقال كلام فلان مسموع و السلطان يسمع قول فلان فيتبعون الوصف بالسماع و يستعمل في اللغة أيضا رد الجواب على ثلاثة أوجه في رده بالكلام و في فعل ما تضمنه السؤال كالذي يسأل غيره فعلا فيفعل المسئول ما تضمنه سؤاله فيقال قد أجابه و إن لم يتكلم و في فعل ما يقتضيه الحال من الأفعال و هذا مثل قول الحاج عند الاستلام أمانتي أديتها و ميثاقي تعاهدته لتشهد لي بالموافاة غدا مودعا لله تعالى و خطابا له و هو المستمع له و المجازي به و إنما أضافه إلى الحجر لأنه عمل عنده و عبادته فيه و قربه إلى الله به فكأنه قال أمانتي في استلامك أديتها و معنى لتشهد لي بالموافاة أي ليكون عملي عندك شاهدا عند الله تعالى لموافاتي بما ندبت إليه من العبادة المتعلقة بك المفعولة فيك و أما قول الزائر لمشاهد الأئمة أشهد أنك تسمع كلامي و ترد جوابي فيكون معنى ذلك قبول الله تعالى دعاء زائرهم و إجابة مسائلهم فصار قبوله تعالى من أجلهم كأنه قبول منهم و يجري ذلك مجرى قوله سمع الله لمن حمده في أن معناه القبول لا مجرد الإدراك و منه قولهم خاطبت فلانا فما سمع كلامي أي ما قبله .

دعوت الله حتى خفت ألا *** يكون الله يسمع ما أقول

أي لا يقبل و غير منكر أن يكون الله تعالى بلغهم دعاء زائرهم فيسمعونه على الحقيقة و قد صح بإجماع الطائفة المحقة و الأخبار المتواترة أنهم بعد وفاتهم في الجنان و قال الله تعالى وَ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ و هذا في الشهداء فكيف في الأوصياء .

و قول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من صلى علي عند قبري سمعته و من صلى علي في أقطار الأرض بلغت .

فصل :

قوله تعالى : ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ تكلم الناس في القرآن فقالت الكفرة هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ فشاركهم فيه المجبرة و قالت المشركون إن هذا إلا اختلاف فوافقهم المعتزلة في اللفظ و قالت الزنادقة إفك افتراه فتبعهم

[٦٠]

الصفاتية إذ قالوا ليس في المصحف قرآن و إنما القرآن قائم بذات الباري و قال الله تعالى ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ مُحْدَثٍ .

فاعتقده الإمامية و الذكر القرآن قوله في عقبه إِلَّا اسْتَمَعُوهُ و قوله هذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ أَنْزَلْناهُ و قوله إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ المنزل المحفوظ لا يكون إلا محدثا لأن القديم لا ينزل و لا يحتاج إلى حفظ و قد سماه الله تعالى في المصحف بمائة اسم سأذكرها في أسباب نزول القرآن إن شاء الله كل اسم يدل على حدوثه منها شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ * لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ * إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ * أَنْزَلَ عَلى عَبْدِهِ الْكِتابَ * وَ كِتابٍ مَسْطُورٍ عبارات عن الجمع و الجمع انضمام الشيء إلى غيره تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ * قادِرٌ عَلى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً * وَ نَزَّلْناهُ تَنْزِيلًا المنزل لا يكون قديما و التنزيل إنزال شيء بعد شيء و هو من صفات المحدث إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً * وَ لكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ وَ كانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا و

المجعول المفعول هو المحدث نَزَّلَ الْفُرْقانَ * وَ قُرْآناً فَرَقْناهُ * أَنْزَلَ عَلى عَبْدِهِ الْكِتابَ مفصلا لنزوله متفرقا ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها * آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ وَ أُخَرُ مُتَشابِهاتٌ الناسخ و المنسوخ و المحكم و المتشابه كيف يكون قديما إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا القول لا يقدم على قائله و لا يقارنه بل يكون بحسب اختياره وَ لَقَدْ آتَيْناكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثانِي * أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي * تُتْلى عَلَيْكُمْ الرسالة و التلاوة و إعطاء السبع المثاني دلالة على حدوثه إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا الإلقاء و الثقل من صفات الحدوث قُرْآناً عَرَبِيًّا * بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ و العربي من زمن إسماعيل و العربية محدثة و من زعم أن الله عربي كفر و ما كان غير الله فهو محدث وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ دلالة على حدوثه مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ وصفه بالرفعة و الطهارة و أنه بأيدي سفرة بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ فلو كان قديما لكان قبل اللوح طس تِلْكَ آياتُ الْقُرْآنِ وَ كِتابٍ وصفه بأنه إنما يظهر بالقراءة و الكتابة لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ القديم لا يمس وَ كَلَّمَ اللَّهُ مُوسى تَكْلِيماً يدل على حدوثه من حيث إنه كلم موسى خاصة دون غيره من الأنبياء و كلمه في وقت دون وقت و لو كان قديما لم يكن في ذلك اختصاص وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَ عَدْلًا في الآية دلالة على أنه محدث لأنه وصفه بالتمام و العدل و ذلك لا يكون إلا حادثا وَ هذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ أَنْزَلْناهُ وصفه بالإنزال و بأنه مبارك يتبرك به و ذلك من صفات المحدثات فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ بين أن له مثلا ما كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى يدل على

أنه حادث لأن القديم لا يكون حديثا وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى بين أن له أولا فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ذكر أن له آخرا .

أمير المؤمنين (عليه السلام) : و إنما كلامه سبحانه فعل منه إنشاؤه لم يكن من قبل ذلك كائنا و لو كان قديما لكان إلها ثانيا .

عمران بن الحصين قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : كان الله و لا شيء ثم خلق الذكر و إنه ليس فيما خلق الله شيء أعظم من آية في سورة البقرة اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ .

و كتب علي بن محمد التقي (عليه السلام) إلى بعض شيعته ببغداد : بسم الله الرحمن الرحيم عصمنا الله و إياك من الفتنة فإن تفعل فيها و نعمت و إن لم تفعل فهي الهلكة نحن نرى أن الجدال في القرآن بدعة اشترك فيها السائل و المجيب فتعاطى السائل ما ليس له و تكلف المجيب ما ليس عليه و ليس الخالق إلا الله و ما سواه فمخلوق فالقرآن كلام الله لا تجعل له اسما من عندك فتكون من الضالين جعلنا الله و إياك من الذين يخشون ربهم بالغيب و هم من الساعة مشفقون .

سئل الصادق (عليه السلام) عن القرآن فقال : كلام الله و قول الله و وحي الله و كتاب الله و تنزيله و هو الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

الرضا (عليه السلام) : القرآن كلام الله لا تتجاوزوه و لا تطلبوا الهدى من غيره فتضلوا .

و سئل زين العابدين (عليه السلام) عن القرآن و قال (عليه السلام) : ليس بخالق و لا مخلوق و هو كلام الخالق .

بيت :

كلام ربي لا يمارونه *** ليس بمخلوق و لا خالق

الصاحب :

قالت فما القول في القرآن سقه لنا *** قلت القرآن كلام الله أين تلي

قالت فأين دليل الخلق فيه أين *** فقلت تركيبه من أحرف الجمل

و له :

قد جهلت في قدم القرآن *** كمثل جهل عابد الأوثان

قالت قديم ليس بالرحمن *** فصار هذا كقديم ثان

فصل :

قوله تعالى : إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ الآية الظاهر يقتضي أنه يريد أولا بقول كن لما لم يرده و إذا كان كذلك فالإرادة تكون متقدمة عليه و ما تقدم عليه غيره فهو محدث .

أبو سعد الآبي :

أنزل ذكرا محكما كريما *** و لا يكون منزل قديما

[٦٢]

قوله سبحانه : فَإِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ و قوله إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ ... الآية فكن مستقبل و إذا كان مستقبلا إنما يوجد في الاستقبال دون الماضي و ذلك يوجب حدوثه و الظاهر يدل على أنه محدث القول الذي هو الأمر بأن نقول كن و قد قضاه و الكاف متقدمة على النون و النون متأخرة عنها و التقديم و التأخير دليل الحدوث و لو كانت إرادته قديمة و قوله كن قديما وجب أن يكون المرادات حاصلة في القدم أو متأخرة عنه و أفعاله ماض و حال و استقبال .

ابن علوية :

جل المهيمن أن يحد بمنطق *** و توهم بكهانة الكهان

أو أن يبعض أو يقال كلامه *** يجري بصوت من فم و لسان

قوله سبحانه : ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها فيه دليل على أن القرآن غير الله و أن الله هو المحدث له و القادر عليه لأن ما كان بعضه جزء من بعض فهو غير الله لا محالة و فيها دليل على أن الله قادر عليه و ما كان داخلا تحت

القدرة فهو فعل و الفعل لا يكون إلا محدثا و أنه لو كان قديما لما صح وجود النسخ فيه لأنه إذا كان الجميع حاصلا فيما لم يزل فليس بعضه بأن يكون ناسخا و الآخر منسوخا بأولى من العكس .

قوله سبحانه : أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ الظاهر يوجب كون الخلق و الأمر له و لا يصح كون القديم له لأن القديم لا يصح فيه الملك و الخلق غير الأمر لأنه يقال خالق لما ليس بفاعل كما قال و لأنت تفري ما خلقت و بعض الخلق يخلق ثم لا يفرى فصح أن الأمر غير الخلق و يكونان مخلوقين و الأمر لفظة افعل و هذا لا بد من أن يكون حادثا لتقدم بعض الحروف على بعض و تواتر حدوثها و بمعنى العمل هذا أيضا حادث و إثبات أمر غير معقول محال و لو كان قديما لم يكن الله به آمرا لأنه يصير به فاعلا و لو صار به آمرا لجعل جميع المأمورين مأمورين و إن كانوا معدومين و ما قالت المجبرة في هذه الآية إنه أفرد الأمر

[٦٣]

بالذكر بعد ذكره الخلق دل على أن الأمر ليس بمخلوق باطل لقوله مَنْ كانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَ مَلائِكَتِهِ وَ رُسُلِهِ وَ جِبْرِيلَ وَ مِيكالَ و لو كان كذلك لوجب ألا يكون جبريل و ميكال من الملائكة و نظيره وَ إِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ .

قوله سبحانه : شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ الظاهر أنه أنزل الجميع فيه و قد أنزله في عدة أوقات فالجواب أنه أنزله جملة واحدة إلى سماء الدنيا في شهر رمضان ثم فرق إنزاله بعد ذلك بحسب ما تدعو الحاجة إليه و قالوا أنزل في فرضه و إيجاب صومه على الخلق فيكون فيه معنى في فرضه كقول القائل أنزل الله في الزكاة كذا و كذا يريد في فرضها و أنزل الله في الخمر كذا و كذا أي في تحريمها و الصحيح أن قوله القرآن في هذا الموضع لا يفيد العموم و الاستغراق و إنما يفيد الجنس من غير معنى الاستغراق فكأنه تعالى قال شهر رمضان الذي أنزل فيه كلام من هذا الجنس فأي شيء نزل منه في الشهر فقد طابق الظاهر .

قوله سبحانه : كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ و قوله وَ أُتُوا بِهِ مُتَشابِهاً مجاز الآية ليس على أنه متشابه في لون أو طعم بل في الفضل كما نقول ما أدري ما أختار من هذه الثياب كلها عندي فاضل .

فصل :

قوله تعالى : وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ * يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ وَ اللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * وَ رَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ * وَ اللَّهُ الْغَنِيُّ وَ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ و قال عبد الملك بن أبي العوجاء للطاقي أ تزعم أنه غني قال نعم قال أ يكون الغني عندك في المعقول في وقت من الأوقات ليس عنده ذهب و لا فضة قال إن كان غنيا من قبل ذهبه و فضته و تجارته فهذا كل ما يتعامل الناس به منه فأي القياس أكثر و أولى من أن يقال غني من أحدث الغنى فأغنى به الناس قبل أن يكون شيء أو من أفاد مالا في هبة أو تجارة فقال هذا من كلام أبي عبد الله (عليه السلام) .

[٦٤]

قوله سبحانه : مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يكون مجازا في اللغة لأن حقيقته أن يستعمل للحاجة و الله تعالى هو الغني و لا يجوز أن يملك الله تعالى لأنه مالك الأشياء من غير تمليك و لأن المالك لا يملك ما هو مالكه فيكون ذكر القرض في صفة الله تعالى تلطفا في الاستدعاء إلى الإنفاق في سبيل الله و هو كالقرض في مثله مع أضعافه و قوله يُضاعِفْهُ لَكُمْ أي يضاعف ثوابه لكم بأمثاله و قال متكلم ما سوى الله إما جسم أو عرض فالجسم مفتقر إلى الكون لا يوجد إلا معه و العرض مفتقر إلى الجسم لا يوجد إلا فيه فالأشياء كلها مفتقرة محتاجة و الله هو الغني وحده احتاج اثنان إلى واحد ليصير ثلاثة و هكذا الثلاثة و الأربعة و سائر الأعداد و الواحد لا يحتاج إلى آخر ليصير واحدا فالخلق كلهم محتاجون إلى الله و هو الغني عنهم .

بعض الصادقين (عليهم السلام) : و من بالنعم أولا بجوده و جزءا بعدله و ثوابا بلطفه .

و قد بين الله تعالى أنه مريد و كاره في آيات منها قوله وَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ * يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ * يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ * يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ * يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَ لا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ * إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ و قال تعالى وَ لكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعاثَهُمْ كُلٌّ ذلِكَ كانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً * وَ لكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ.. . وَ كَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَ الْفُسُوقَ وَ الْعِصْيانَ فمن المعلوم أنه لا يحبب إلا ما يحبه أو لا يكره إلا ما يكرهه و أنه إذا ألطف في تحبيب الإيمان بألطافه دل على ما نقوله في اللطف .

قوله سبحانه : وَ لَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَ كَلَّمَهُمُ الْمَوْتى وَ حَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ يدل على أن إرادة الله محدثة لأن الاستثناء يدل على ذلك لأنها لو كانت قديمة لم يجز هذا الاستثناء كما لا يجوز أن يقول القائل لا يدخل زيد في الدار إلا أن يقدر الله أو إلا أن يعلم الله لحصول هذه الصفات فيما لم يزل .

قوله سبحانه : وَ هُوَ عَلى جَمْعِهِمْ إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ يدل على حدوث المشية لأنه لا يجوز

إذا قدر على شيء فعله و يجوز إذا يشاء أن يفعل فعله .

فصل :

قوله تعالى : وَ إِذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ و قوله وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ و قوله وَ اسْجُدْ وَ اقْتَرِبْ و قوله وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ المراد بها الإخبار عن كونه سبحانه عالما أبدا بخفي أحوالنا و أسرارنا و المعنى و نحن أقرب إليه مما يدركه من حبل الوريد في القرب أي إني أعلم به و قيل نحن أقرب إليه من حبل الوريد لو كان مدركا و قيل نحن أملك به من حبل الوريد في الاستيلاء و ذلك أن حبل الوريد في حيز غير حيزه و الله تعالى مدرك بنفسه و مالك له بنفسه .

قوله سبحانه : وَ قَرَّبْناهُ نَجِيًّا معناه قربناه من الموضع الذي شرفناه و عظمناه بالحصول فيه ليستمع كلامه تعالى و قال ابن عباس و مجاهد قرب من أعلى الحجب حتى سمع سرير القلم و قيل معناه أن محله منا محل من قربه مولاه من مجلس كرامته لأن التقرب منا إليه بالطاعات طلب المنزلة الرفيعة عنده بفعلها لا قرب المسافة كما يقال فلان قريب من الملك و إن كان بينهما بون بعيد و منه قوله وَ لَا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ و يقال معناه التقرب إلى رحمته و معنى ذلك أن يفعل الطاعة ليكون بفعلها أقرب إلى أن يغفر لنا و يرحمنا .

قوله سبحانه : ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رابِعُهُمْ و قوله وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ يدل على أنه ليس بجسم هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا أي مثلا ليس كمثله شيء .

سئل الصادق (عليه السلام) عن الآية فقال : نور لا ظلمة فيه علم لا جهل فيه حياة لا موت فيه .

و سئل أبو جعفر الثاني (عليه السلام) أ يجوز أن يقال لله تعالى إنه شيء فقال (عليه السلام) : نعم تخرجه عن حد الإبطال و حد التشبيه و قالوا له مثل أوصافنا فقد صوروه و قد جسموه .

فما عرفوه و لا عبدوه *** و لا وقروه و لا عزروه

العوني :

جل من ليس له شبه عظيم الأعظمينا *** فهو شيء ليس كالأشياء مما تزعمونا

[٦٦]

قوله سبحانه : قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً قُلِ اللَّهُ في الآية دلالة على من قال لا يوصف تعالى بأنه شيء لأنه لو كان كما قال لما كان للآية معنى كما أنه لا يجوز أن

يقول القائل أي الناس أصدق فيجاب بجبريل لما لم يكن من جملة الناس بل كان من الملائكة .

و قال أمير المؤمنين (عليه السلام) : قوله فعله من غير مباشرة و تفهيمه من غير ملاقاة و هدايته من غير إيماء و كلامه من غير آلة و نيته من غير اعتقاد وجهه حيث توجهت و قصده حيث يممت و طريقه حيث استقمت منك يفهمك و عنك يعلمك ارتبط كل شيء بضده و قطعه بحده ما تخيل فالتشبيه له مقارن و ما توهم فالتنزيه له مباين .

و قيل للصادق (عليه السلام) إن هشاما يزعم أن الله جسم لا كالأجسام فقال : قاتله الله أ ما علم أن الجسم محدود أبرأ إلى الله من هذا القول .

و في حديث يونس : أ ما علم أن الجسم محدود متناه و أن المحدود المتناهي يحتمل الزيادة و النقصان و ما احتمل الزيادة و النقصان كان مخلوقا .

و قال محمد بن الفرج البرجمي كتبت إلى أبي الحسن (عليه السلام) أسأله عما قال هشام بن الحكم في الجسم و هشام بن سالم في الصورة فكتب (عليه السلام) : دع عنك حيرة الحيران و استعذ بالله من الشيطان ليس القول ما قال الهشامان قالوا فرجعنا عن مقالهما .

الصاحب :

قالت فهل هو ذو شبه و ذو مثل *** فقلت قد جل عن شبه و عن مثل

قالت فقل لي جسم ذاك أم عرض *** فقلت بل خالق الجنسين فانتقل

قالت ما ضر لو ثبته جسدا *** فقلت لا توجد الأجسام في الأزل

و له أيضا :

و آخر قال الله جسم مجسم *** و لم يدر أن الجسم شيء محدد

و أن الذي قد حد لا ريب محدث *** إذا ميز الأمر اللبيب المؤيد

غيره :

عجبت لذي التشبيه كابر عقله *** أم العقل عنه حين شبه عاذب

فصل :

قوله تعالى : الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى العرش السرير وَ لَها عَرْشٌ عَظِيمٌ و أصول البناء فَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها و ما يستظل به جَنَّاتٍ مَعْرُوشاتٍ و منه العريش و البناء وَ مِمَّا يَعْرِشُونَ و البسط وَ كانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ .

و قوام الأمر :

دعائم عرش خانه الدهر فانعقر *** و الملك راو عرشتي تثلم جانباه

[٦٧]

آخر :

إذا ما بنو مروان ثلت عروشها *** و أودت كما أودت أياد و حمير

زهير :

تداركتما الأخلاف قد ثل عرشها *** و ذبيان إذ زلت بأقدامها النعل

فالعرش محدث و إنه كان و لا مكان و كونه في كان بعد أن لم يكن تغير و كل من تغير فليس بقديم و العرش محدود و محال أن يتكون على المحدود و يماسه ما ليس بمحدود و ذلك منفي عن الله تعالى و يقتضي كونه جسما إذ ما ليس بجسم يستحيل منه الكون في المكان و كونه جسما يوجب حدوثه و الكون على السرير بعد أن لم يكن يكون انتقالا و زوالا و يوجب أن يكون محدثا و نمط ما قبل الآية و ما بعدها لا يشاكل تفسيرها على السرير و متى فسر على الملك يشاكل .

قوله سبحانه : عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى و قوله اسْتَوى إِلَى السَّماءِ الاستواء على أقسام استواء في المقدار و استواء في المكان و استواء في الذهاب و استواء في الاتفاق و

استواء بمعنى الاستيلاء و هو راجع إلى الاستواء في المكان و يلحق بذلك الاستواء بمعنى الانتصاب يقال استوى فلان جالسا و استوى قائما و بمعنى الركوب قوله فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَ مَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ و بمعنى تساوي الأجزاء المؤلفة تقول استوى الحائط و بمعنى التساوي في الأمر قوله وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ اسْتَوى .

قد استوى ظالم العشيرة

و هذه كلها من صفات الأجسام لا يجوز على الباري تعالى و الذي يحقق في تأويله ما قال ابن عباس و الحسن استوى أمره و لطفه و صعد إلى السماء لأن أوامره و قضاياه تنزل منها إلى الأرض الجبائي أي استوى عليه بأن رفعه الفراء و القاضي عبد الجبار أي قصد إليها فخلقها كما يقال كان فلان مقبلا على فلان ثم استوى إلي و علي يكلمني و مر فلان مستويا إلى موضع كذا و لم يعدل قوله ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ و قيل استوى تدبيره بتقديم القادر عليه و قيل استوى بمعنى احتوى عليه يقال استوى فلان على مال فلان و على جميع ملكه .

و قال الصادق (عليه السلام) : استوى من كل شيء فليس شيء أقرب إليه من شيء .

قيل أي لفظة الرحمن مكتوب على العرش و قيل استوى عليها بالقهر و خلقهن سبع سماوات و كان علوه عليها علو ملك و سلطان لا علو انتقال و زوال كقوله وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ اسْتَوى أي تمكن من أمره و قهر هواه بعقله ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ في نفوذه و تملكه لها و لم يجعلها ملكا لخلقه .

قال البعيث :

ثم استوى بشر على العراق *** من غير سيف و دم مهراق

و قوله إِلَى السَّماءِ و لا سماء هناك لأن خلق العرش كان بعد خلق السماء كما يقول القائل أعمل هذا الثوب و إنما معه غزل و قال قوم إنما سواهن سبع سماوات بعد أن كانت دخانا و قال آخرون استوى بمعنى استوت السماء كما .

أقول لها لما استوى في تراثه *** على أي دين يقتل الناس مصعب

و فائدة التخصيص للعرش أنه من أعظم المخلوقات فإذا كان مستوليا عليه كان بالاستيلاء على غيره أولى .

قوله سبحانه : ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ الاستواء إذا كان بمعنى الجلوس و الركوب لا يعدى بإلى و إنما هم يزعمون أنه على العرش و يحتمل أن يكون معناه من يدبر السماء و يفعل عجائبها و لهذا لا يطلق على الباري تعالى أنه في مكان .

قوله سبحانه : أَ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ معناه من في السماء عذابه و ملائكته الذين بهم انتقامه لأن عادته أن ينزلها من هناك و لهذا قال أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فنبه به على ذلك .

قوله سبحانه : إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ صعود الملائكة إليه غير معقول فمعناه أجازي و أقبله و العمل الصالح يرفعه مثل قولهم رجع إلى كلامك و آتاني كتابك .

قوله سبحانه : تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ و قوله يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ يعني الملك يصعد إلى المكان الذي أمره الله تعالى أن يعرج إليه يقال فلان يدبر الأمر من الشام إلى خراسان أي ما بينهما ثم يعرج إليه أي عاقبة ذلك الأمر إليه و رجع أمرنا إلى القاضي و عروج الأمر و نزوله لا يصح في الحقيقة و إنما جاز هذا القول لأنه تعالى جعل ديوان أعمال العباد في السماء و الحفظة من الملائكة فيها فيكون ما رفع هناك قد رفع إليه لأنه أمر بذلك كما قال إبراهيم إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي أي إلى

الموضع الذي أمرني أن أذهب إليه .

قوله سبحانه : رَفِيعُ الدَّرَجاتِ ذُو الْعَرْشِ الرفعة للدرجات و قد جرت صفة الله تعالى لأن القديم تعالى لا يوصف بأنه رفيع أو شريف لأن حقيقتهما في ارتفاع المكان و إشرافه .

أمير المؤمنين (عليه السلام) : قربه قدرة و بعده عظمة و نزوله إلى الشيء إقباله عليه و إتيانه إياه إيصاله لما يريد إليه ينجلي و لا يتجلى و يتدانى و لا يتدانى علوه من غير توقل و مجيئه من غير تنقل .

قوله سبحانه : وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ إنما أخبر عن صفة الكرسي فقط و لم يوجب إضافته إليه كونه عليه كما لا يوجب إضافة الكعبة إليه كونه فيها على أنهم يزعمون أنه على العرش و الكرسي سواه و الوجه في خلق الكرسي إذا قلنا إنه جسم هو أن الله تعبد بحمله الملائكة كما تعبد البشر بزيارة البيت .

الصاحب :

أنزه رب الخلق عن حد خلقه *** و قد زاغ راو في الصفات و مسند

فهذا يقول الله يهوي و يصعد *** و هذا لديه الله مذ كان أمرد

تبارك رب المرد و الشيب إنهم *** لأكفر من فرعون فيه و أعند

فصل :

قوله تعالى : وَ لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ و قوله عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً و المقام أنما هو مصدر و لو كان موضعا لما خوف بمقامه لأن الخوف لا يتعلق بالمكان حتى يكون ذلك مرغبا في الطاعة صارفا عن المعصية فإذا لا بد فيه من حذف فمعناه أن من خاف مقامه لدي ففعل الطاعة فله الثواب و لفظه من تقع على الواحد و الجمع و جاء في آية واحدة وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ قوله عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ

رَبُّكَ مَقاماً و المقام متردد بين المصدر و الموضع فهو كلام مجمل مفتقر إلى البيان و قد روى المفسرون عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه الشفاعة .

و قيل للصادق (عليه السلام) إن فلانا يقول بالتشبيه فقال (عليه السلام) : أبرأ إلى الله منه .

و قال الرضا (عليه السلام) : من شبه الله بخلقه فهو مشرك و من وصفه بالمكان فهو كافر و من نسب إليه ما نهى عنه فهو كاذب ثم تلا إِنَّما يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ .

الصادق (عليه السلام) : من زعم أن الله من شيء أو على شيء فقد أشرك ثم قال من زعم أن الله من شيء فقد جعله محدثا و من زعم أنه في شيء فقد زعم أنه محصور

و من زعم أنه على شيء فقد جعله محمولا منصورا الآبي منزه عن شبه المشبه مشركة لكنها تموه .

فصل :

قوله تعالى : عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ * ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَ ما عِنْدَ اللَّهِ باقٍ عند على وجوه فإذا لا تستعمل إلا بدليل أما قوله وَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ أي عالم بها و قوله فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوابُ الدُّنْيا أي المالك له و قوله إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ أي في المنزلة الرفيعة كما يقال فلان عندي بمنزلة و إن كان بينهما بعد المشرقين و قوله عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ أي بحيث لا يملك الحكم فيه سواه يعني السماء كما يقال عند الملك خصب و أمن أي في المواضع التي لا يملكها سواه و قولهم عند أبي حنيفة كذا و عند الشافعي كذا أي في مذهبهما قال :

نحن بما عندنا و أنت بما *** عندك راض و الرأي مختلف

و قوله وَ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ لو حمل على المكان لوجب أن يريد أن جميع الأشياء في ذلك المكان حاصل بمقدار معلوم أو يريد أن جميع ما عنده في ذلك المكان بمقدار فمعناه أي حكمه و علمه يدل عليه ما قبله وَ ما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى و ذلك الأولى لأنه أعم يتناول المعدوم و الموجود دون الماضي و الغابر .

و سأل حبر أبا بكر عن الله تعالى فقال أين هو أ في السماء أم في الأرض فقال : في السماء على العرش قال فأرى الأرض خالية منه و أراه على هذا القول في مكان دون مكان فقال أبو بكر هذا كلام الزنادقة اعزب عني و إلا قتلتك فولى الحبر مستهزئا بالإسلام فاستقبله علي (عليه السلام) فقال قد عرفت ما سألت عنه و ما أجبت به فإنا نقول إن الله أين الأين فلا أين له و جل أن يحويه و هو في كل مكان بغير مماسة و لا مجاورة يحيط علما بما فيها و لا يخلو شيء من تدبيره تعالى ثم قال إن موسى كان يوما جالسا إذ جاء ملك من المشرق من عند الله و جاء ملك من المغرب من عند الله و جاء ملك من السماء السابعة من عند الله و جاء ملك من الأرض السفلى من عند الله فقال موسى سبحان من لا يخلو منه مكان و لا يكون إلى مكان أقرب من مكان فأسلم الحبر .

قوله سبحانه : وَ هُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ و قوله يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ يستعمل فوق على سبيل القهر و السلطان يقال يد زيد فوق عمرو و يد الأمير فوق أيدينا و كل شيء قهر فهو مستعل عليه و لما كان العباد تحت تسخيره و تذليله و أمره و نهيه وصف

بأنه فوقهم و قد نبهنا الله على ما أراد بقوله وَ هُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ .

قوله سبحانه : يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ أي يخافون عقاب ربهم من فوقهم لأنه يأتي من فوق و قيل إنه لما وصف بأنه متعالي بمعنى قادر لا قادر قدر منه فقيل صفته في أعلى مراتب صفات القادرين حسن أن يقال من فوقه ليدل على هذا المعنى من الاقتدار الذي لا يساويه قادر و لو كان صفة الله تعالى لم يحصل به التخويف .

قوله سبحانه : وَ لَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلى رَبِّهِمْ المراد بذلك وقوفهم على عذاب ربهم و ثوابه و علمهم بصدق ما أخبرهم به في دار التكليف و الوقوف عليه يسمى علما يقال وقفت على معنى كلامك و إذا كان الكفار لا يعرفون في الدنيا استدلالا عرفهم الله في الآخرة ضرورة فذلك يكون وقوفهم عليه و قال لهم ربهم أَ لَيْسَ هذا بِالْحَقِّ قالُوا بَلى وَ رَبِّنا و قيل إذا وقفوا على ربهم حبسوا ينتظر بهم ما يأمر به كقول القائل احبسه علي و لا يجوز أن يكون المراد به الرؤية لأن الآية مختصة بالكفار و لا خلاف في أن الكفار لا يرونه .

قوله سبحانه : أُولئِكَ يُعْرَضُونَ عَلى رَبِّهِمْ حقيقة العرض لا يجوز على الله تعالى لأن العرض في الشاهد أنما يصح على من لم يكن مشاهدا للشيء عالما به و لا يخفى على الله خافية و المراد بذلك أنهم يعرضون للمحاسبة بحيث أعد ذلك العرض في ذلك الموضع عرضا عليه كقوله إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي أي حيث أمرني ربي .

قوله سبحانه : فَما أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ معنى مِنْ دُونِ اللَّهِ من منزلة أدنى من منزلة عباد الله و أنه من الأدون و هو الأقرب إلى الجهة السفلى .

قوله سبحانه : قُلْ أَ تُحَاجُّونَنا فِي اللَّهِ أي في دينه لأنهم قالوا نحن أبناء الله و أحباؤه وَ قالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارى و قالوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصارى تَهْتَدُوا .

[٧٢]

قوله سبحانه : إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ أي معهم بالمعونة و النصرة كما تقول إذا كان السلطان معك فلا تبال من لقيت و حقيقة مع أن يكون للمصاحبة في الجهة و ذلك لا يجوز على الله تعالى .

قوله سبحانه : لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا وَ ما خَلْفَنا وَ ما بَيْنَ ذلِكَ أي قبل أن يخلقنا و ما خلفنا أي بعد أن يفنينا و ما بين ذلك ما هم فيه من الحياة و قال ابن عباس و الربيع و قتادة و الضحاك و أبو العالية ما بين أيدينا الدنيا و ما خلفنا الآخرة و ما بين ذلك النفختين

قوله سبحانه : وَ أَنَّهُمْ إِلَيْهِ راجِعُونَ و قوله وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ ظاهر الرجوع يوجب الإخبار عن العود إلى حيث خرج منه و لا خلاف أنهم لم يكونوا عنده و الآية تقتضي رجوع الجميع إليه قوله وَ كُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ و الكل داخل في هذا الحكم و لا يقول الخصم به و قال تعالى وَ مَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجِراً إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ يعني المدينة و قال إبراهيم إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي أي أرض الشام و قال إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ يعني السماوات عند الحفظة و بعد فإنه تهديه في سائر الآيات الواردة في الباب نحو ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ أو في باب المصيبة نحو وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ و لو كان المراد به المكان لم يكن ذلك تسليا لمن نزلت له المصيبة و قال أبو العالية راجعون بالإعادة في الآخرة و قيل راجعون إلى أن لا يملك لهم ضرا و لا نفعا غيره تعالى كما كانوا في بدئ الخلق لأنهم في أيام حياتهم قد ملك غيرهم الحكم عليهم قوله مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ .

قوله سبحانه : إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً و قوله فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً أي إنكم ترجعون إليه أحياء بعد الموت أي إلى موضع جزائه جميعا و قيل معناه أن يعود الأمر إلى أن لا يملك أحد التصرف في ذلك الوقت غيره تعالى بخلاف الدنيا و لفظ المرجع يكون بمعنى الرجوع فيكون مصدرا و بمعنى موضع الرجوع كأنه قال إليه موضع رجوعكم .

[٧٣]

قوله سبحانه : وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ معناه أنه يئول إليه أمر بالعباد في أنه لا يملك ضرهم و لا نفعهم غيره عز و جل لأنه تبطل مملكة غيره في ذلك اليوم و الأمر لنا دون غيرنا كما يقال صار أمرنا إلى القاضي على معنى قرب المكان و إنما يراد بذلك أنه المتصرف فينا .

قوله سبحانه : وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ الناس في دار التكليف قد يغتر بعضهم ببعض فيعتقدون فيهم أنهم يملكون جر المنافع إليهم و صرف المضار عنهم و قد تدخل عليهم الشبهة لتقصيرهم في النظر في وجهه فيعبدون الجامدة و الهامدة و يضيف كل هؤلاء أفعال الله عز و جل فيهم إلى غيره فإذا جاءت الآخرة و اضطروا إلى المعارف عرفوا أنه لا معبود سوى الله فردوا إليه أمورهم و انقطعت آمالهم من غيره و إلى الله ترجع الأمور و الأمور كلها لله و في يده من غير خروج و رجوع حقيقي و قد تقول العرب قد رجع علي من فلان مكروه بمعنى صار منه و لم يكن سبق إلي قبل هذا الوقت و قد عاد إلي من زيد كذا و كذا و إن وقع منه ابتداء .

فإن تكن الأيام أحسن مرة *** إلي فقد عادت لهن ذنوب

أي صارت لها ذنوب لم تكن من قبل بل كان قبلها إحسان و قد ملك الله العباد في دار التكليف أمورا تنقطع بانقطاع التكليف و أفضى الأمر إلى دار الآخرة مثل ما ملكه الموالي من العبيد و ما ملكه الحكام من الحكم فيجوز أن يريد الله برجوع الأمر إليه انتهى ما ذكرناه من الأمور التي يملكها غيره بتمليكه إلى أن يكون وحده مالكها .

و قال المرتضى : الأمر ينتهي إلى أن لا يكون موجودا قادرا غيره و تقتضي الأمور في الانتهاء إلى ما كانت عليه في الابتداء لأن قبل إنشاء الخلق هكذا كانت الصورة و بعد إفنائهم هكذا يصير و هو رجوع حقيقي لأنه عاد إلى ما كان عليه متقدما و قال الطوسي يرجع الأمر كله أي يذهب إلى حيث ابتدأ منه فرجوع الأمر إلى الله بالإعادة بعد النشأة الأولى .

و قال الجبائي : ترجع الأمور إلى من لا يملكها سواه و تحتمل أيضا أن يكون المراد بذلك أن تعود المقدورات الباقية إلى ما أفناه من مقدوراته كالجواهر و الأعراض ترجع في مقدورات البشر و إن كان باقية لما دل عليه الدليل من اختصاص مقدورات القدر باستحالة

العود إليها من حيث لم يجز له فيها التقديم و التأخير و هو حكم هو تعالى المتفرد به .

فصل :

قوله تعالى : مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ قال السدي و ابن جريح أي من أعواني على هؤلاء الكفار إلى معونة الله و ذلك مثل قولهم الذود إلى الذود آئل و قوله وَ لا تَأْكُلُوا أَمْوالَهُمْ إِلى أَمْوالِكُمْ و قال الحسن من أنصاري في السبيل إلى الله لأنه دعاهم إلى سبيل الله و قال الجبائي من أنصاري لله كما قال قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ و وجه ذلك أن الغرض يصلح فيه اللام على طريق العلة و إلى على طريق النهاية .

قوله سبحانه : بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ معناه أنه رفعه إلى الموضع الذي يختص الله تعالى بالملك و لم يملك فيه أحد منه شيئا و هو السماء لأنه لا يجوز أن يكون المراد به أنه رفعه إلى مكان هو تعالى فيه لأن ذلك من صفات الأجسام .

قوله سبحانه : كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ الحجب هو المنع و الحاجب هو المانع و لا يصح القول بأنهم محجوبون عن ذات الله تعالى و إذا كان الممنوع منه محذوفا فليست الرؤية بأولى من الرحمة و هذا كما يقول عند سؤال الغير غضب عليه السلطان و أبعده من عنده و لا ينظره الله و لا يكلمه و حجبه عنه و ليس يأذن له بالدخول عليه كقوله فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ * غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ * قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكَ.. . مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَ غَضِبَ عَلَيْهِ * وَ لا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ فمعنى قوله كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ عن ربهم بسوء حالهم مبعدون عن رحمته .

قوله سبحانه : وَ ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ ليس في الآية أكثر من ذكر الحجاب و ليس فيها أنه حجاب له تعالى أو أنه محل كلامه أو كلمه أو لم يكلمه و إذا لم يكن في الظاهر شيء من ذلك صرف إلى غيره عز و جل و يجوز أن

يفعل كلاما في جسم محتجب عن المكلم غير معلوم له على سبيل التفصيل فيسمع المخاطب الكلام و لا يعرف محله على سبيل التفصيل فيقال على هذا هو مكلم من وراء حجاب و قال الجبائي وَ ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً بمثل ما يكلم به عباده من الأمر بطاعته و النهي لهم عن معاصيه و تنبيهه إياهم على ذلك من جهة الخاطر أو المنام و ما أشبههما و عنى بقوله أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أن يحجب ذلك الكلام عن جميع خلقه إلا من يريد أن يكلمه به نحو كلامه تعالى لموسى لأنه حجب ذلك عن جميع الخلق أولا و أما كلامه في المرة الثانية فإنه إنما أسمع ذلك موسى و السبعين الذين كانوا معه و حجب عمن سواهم و قال المرتضى المراد بالحجاب البعد و الخفاء يقال بيني و بينك حجاب أي أستبعد فهمك و يقال بيني و بينك هذا الأمر حجب و موانع و سواتر أي طريق مستبعد فيكون معنى الآية أنه لا يكلم البشر إلا وحيا بأن يخطر في قلوبهم أو بأن ينصب لهم أدلة تدلهم على ما يريده أو يكرهه منهم فيكون بذلك مخاطبا و جعل هذا الخطاب من وراء حجاب من حيث لم يكن مسموعا كما يسمع الخاطر و قول الرسول فصار الحجاب هاهنا كناية عن الخفاء و عبارة عما تدل عليه الدلالة و قال مجاهد وَ ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً هو داود أوحى في صدره فزبر الزبور أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ و هو موسى أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا و هو جبريل أرسله إلى محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) .

و قال أمير المؤمنين (عليه السلام) : احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار و عمن في السماء احتجابه كما عمن في الأرض غيابه .

و زعم الشعبي أنه : سمع أمير المؤمنين (عليه السلام) رجلا يقول و الذي احتجب بسبع طباقا فعلاه بالدرة ثم قال له ويلك إن الله أجل من أي يحتجب عنه شيء سبحان من لا يحويه مكان و لا يخفى عليه شيء في الأرض و لا في السماء فقال الرجل أ فأكفر عن يميني قال لا لم تحلف بالله فيلزمك كفارة و إنما حلفت بغيره .

فصل :

قوله تعالى : وَ يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ النفس الدم و منه نفست المرأة فهي نفساء و كل ما ليس له نفس سائلة و الروح أخرجوا أنفسكم و الأنفة يقال لفلان نفس و الإرادة نفسه في كذا .

قال الممزق :

فباتت له نفسان شتى همومها *** فنفس يعزيها و نفس يلومها

[٧٦]

و العين الذي يصيب الإنسان يقال أصابت فلانا نفس و مقدار الدبغة يقال أعطني نفسا أو نفسين من الدباغ و قالب فيه الحياة كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ قال الخليل في كتابه نفس كل شيء عينه و ذاته و الغيب لا علم نفس فلان و العقوبة أحذرك نفسي أي عقوبتي الفراء وَ ما يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ * فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ * وَ لكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ إنما هو ذكر عائد إليهم و أرادوا أن الإخبار عن الفاعل و المفعول به شيء واحد و هذا معترض و معنى الآية لا تخلو إما أن يكون كما فسره المفسرون أو يكون جسدا ثم الجسد إما أن يكون معلوما أو غير معلوم فغير المعلوم يؤدي إلى الجهالات و المعلوم تشبيه و لزمهم أن يقولوا بأنه ذو وصال و أعضاء و لأدى إلى حدوثه أو قدم الأجسام و أن يكون ذا أجزاء كثيرة من تركيب صورة و هيئة متناهيا مماسا لغيره و لا جسم إلا و له شبيه محسوس أو موهوم ثم إن التحذير بالجسد لا يصح و إنما يقع بفعل يفعله به كقوله فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوا يَوْماً و إذا بطل أن يكون المراد به فلا خلاف في غيره لأنه لا يليق بالآية فلم يبق إلا أقوال المفسرين قال ابن عباس وَ يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ عقوبته و قال قطرب أي و يحذركم الله إياه كقولك في نفس الجبل و بنفس البصرة .

قال الرضا (عليه السلام) على ما خوفهم الله به .

قوله سبحانه : تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي وَ لا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ لو أراد الجسد لوجب أن لا يعلم عيسى ما في جسد الله جل و علا من الآلات و الضمائر و غير ذلك قال الحسن

تعلم ما في نفسي أي في غيبي و لا أعلم ما في غيبك و قال ابن عباس تعلم سري و لا أعلم سرك يقال أخفاه في نفسه و هو يضمر في نفسه شيئا .

قوله سبحانه : كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لا يخلو من أن يكون الكاتب هو المكتوب عليه أو يكون الكاتب هو الرب و المكتوب عليه للرحمة غيره فيكونان اثنين .

قوله سبحانه : وَ اصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي فذكرهم عائد إلى الرب من الإخبار و الفاعل و المفعول فيه واحد .

[٧٧]

فصل

قوله تعالى : وَ لِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي الظاهر يقتضي أن يكون صنع المخاطب و هو موسى (عليه السلام) على عينه و قوله فَإِنَّكَ بِأَعْيُننا يوجب أن يكون النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بأعينه فيكون أعينه مكانا له و كذلك قوله وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُننا و يقتضي أن يكون له أكثر من عينين و الجمع لا نهاية له و يجب أن يكون ذا جارحتين و ذلك يؤدي إلى تناقض القرآن و الخروج عن الإجماع و العين لفظ مشترك بين الباصرة و الدنيا و الجاسوس و الرئيس و النقد و مهب الجنوب و مطر لا يقلع و ما يصيب من الفساد و عين الشمس و الماء و الميزان و الركبة و غير ذلك و بمعنى العناية للشيء .

قال ابن جلذة :

و بعينيك أوقدت هند النار *** عشا تلوي بها العلياء

و يوضع في مكان الذات فيكون تأكيدا و تخصيصا فمعنى قوله وَ لِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي أي بحفظي و مراعاتي لك يقال سر في عين الله و عين الله عليك و منه قوله فَإِنَّكَ بِأَعْيُننا و كذلك وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُننا أي نأمرك به و حفظنا لذلك كقوله وَ وَحْيِنا أي على ما أوحينا إليك و يقال بوحينا إليك أن اصنعها و يحتمل إنما تجري و نحن عالمون

بها لأن السفينة لا يمكن أن يتعلق جريها إلا بالعين التي هي الباصرة و قال الجبائي معناه بأعين أوليائنا من الملائكة و المؤمنين الذين يعلمونك كيفية عملها و قيل معناه بعلمنا و قيل بحيث يراها الرأي و الله تعالى يراه و قال الأصمعي قال عمر بن الخطاب إن عليا من عيون الله في الأرض و ما سوى ذلك لا يجوز لأنه لا يفيد .

فصل :

قوله تعالى : وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ أي قال قولا يسمع بالإذن و لا يريد بذلك أنه أصغى بالإذن إلى قول كما :

بسماع يأذن الشيخ له و *** حديث مثل ما ذي مشار

قوله سبحانه : وَ يَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ حمل الوجه على الجارحة يقتضي أن يهلك سائره و يبقى وجهه و قوله لِوَجْهِ اللَّهِ و قوله يُرِيدُونَ وَجْهَهُ يوجب أن يكون وجهه مقصد

القوم في طاعته إلى وجهه ليقبل و قوله فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ يحتمل أن يكون وجهه حيث يتوجه الإنسان إليه و أن يكون وجهه جميع النواحي في الحالة الواحدة لتوجه الناس إلى كل وجه و قوله نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ و قوله إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ اللَّهِ و قوله يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ أي القربة إليه و الزلفة عنده كما يقال أكرمته لوجهك أي لتعظيمك و قوله فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ أي فثم الله على معنى التدبير و العلم لا على معنى الحلول و يحتمل آيات الله و دلائله كما يقال وجه القول في هذه المسألة كذا و يحتمل رضاء الله و ثوابه و يحتمل الجهة و يكون الإضافة بمعنى الملك و الخلق و الإنشاء أي الجهات كلها لله .

الرضا (عليه السلام) فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ قال علي : و يستعمل الوجه في المحيا و سمي بذلك لأنه أول ما يظهر و يرى و أول الشيء آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ و المقصد وَ مَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ و قوله فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ و ما الوجه فيه و المذهب و الجهة و الناحية .

شاعر :

أي الوجوه انتجعت قلت له *** لأي وجه إلا إلى الحكم

و القدرة و المنزلة لفلان وجه عريض و هو أوجه من فلان و أوجهه السلطان إذا جعل له جاها .

و قال إمرؤ القيس :

و نادمت قيصر في ملكه *** فأوجهني و ركبت البريدا

و الرئيس هذا وجه القوم و هو وجه عشيرته و ذات الشيء إنما أفعل ذلك لوجهك و منه وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناعِمَةٌ فجميع ما أضيف إلى الوجوه في ظاهر الآي من النضرة و النظر و الرضا لا تصح إضافته إليها و إنما يضاف إلى الجملة المفسرون كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ أي إلا هو يدل عليه قوله و لو لم يرد نفسه لم يقل ذو الجلال و الإكرام .

فصل :

قوله تعالى : يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ أي نعمة فيما امتن به عليهم من الإسلام فوق نعمتهم الانقياد له و الإيمان به لأنه عقيب قوله إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ أي عقد الله في البيعة فوق عقدهم لأنهم يبايعون الله ببيعه نبيه و قيل قوة الله في نصر نبيه فوق نصرهم و قيل يد الله ثابتة في هدايتهم فوق أيديهم بالطاعة و لو كان له يد فوق أيديهم من جهة المكان لم يكن له في ذلك تشريف و تخصيص ابن

عباس قال يهودي إن الله تعالى كان يوسع علينا و يعطينا فقد أمسك يده عنا يعني المطر فأجابهم الله تعالى بقوله غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ أي منعوا من الإنفاق و ضربوا بالبخل وَ لُعِنُوا بِما قالُوا بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ و قيل إنهم قالوا على سبيل الاستهزاء إن إله محمد أرسل يديه إلى عنقه إذ لم يوسع عليه و على أصحابه فرد الله عليهم بقوله بَلْ يَداهُ

مَبْسُوطَتانِ أي نعمته و يحتمل أنهم وصفوا الله بما يقتضي تناهي مقدوره فجرى ذلك مجرى قولهم يد فلان منقبضة و يده لا تنبسط و يشهد بذلك قوله لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَ نَحْنُ أَغْنِياءُ ثم قال تكذيبا لهم بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ أي ممن لا يعجزه شيء و معنى اليد القدرة أيضا يقال ما لي بهذا الأمر يد و لا يدان أي لا أقدر عليه و لا يراد إثبات القدرة على الحقيقة بل يراد إثبات كون القادر قادرا و قوله الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكاحِ معناه من يملك ذلك و قوله فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ أراد الجملة دون التبعيض .

قوله سبحانه : لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ يجري مجرى قوله لما خلقت أنا و إنما قال بيدي على وجه تخصيص الإضافة لخلقه إليه تعالى و التثنية أشد مبالغة يقال هذا ما كسبت يداه و هذا فعله بيده كما يقال فعله بنفسه و منه قولهم يداك أو كنا و إن كان في ذنوبهم ما هو من أفعال القلوب و كيف خلق آدم بجارحتين و إنه محتاج إليهما و إنه يفعل بآلات و إنه يتجزى لأن اليدين اثنان ليس بواحد و معنى قوله بَلْ يَداهُ أي نعمتاه دينا و دنيا و قيل نعم الدنيا و نعم الآخرة لأن أولها يوجب ذلك و قد فسر الله تعالى في قوله وَ لا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ .

بسط اليدين بما في رحل صاحبه *** جعد اليدين بما في رحله قطط

و على زعمهم يوجب أن تكونا مبسوطتين لا تنقبضان للتخصيص بذلك و يوجب كونهما مركبة ذات أصابع ليصح معنى البسط و قد تمدح بذلك و للخلق مثله فلا فائدة فيه .

قوله سبحانه : أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعاماً أي عملناه من غير أن نكله إلى غيرنا بمنزلة ما يعلمه العباد بأيديهم في أنهم تولوا فعله و لم يكلوه إلى غيرهم كما قال تعالى إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ و قال ابن عباس و مجاهد

و قتادة في قوله وَ السَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ أي بقوة و قوله أُولِي الْأَيْدِي وَ الْأَبْصارِ معناه القوى فيكون لفظ الأيدي تأكيدا لتخصيص الإضافة .

قوله سبحانه : وَ السَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ يستعمل اليمين في أشياء أما قوله فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ اليد اليمنى وَ لا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمانِكُمْ القسم .

قال إمرؤ القيس :

فقالت يمين الله ما لك *** حيلة و الحد و الصرامة

قال الشماخ :

تلقاها عرابة باليمين

و المنزلة الحسنة يقال فلان عنده باليمين .

قال ذو الرمة :

أبيني أ في يمنى يديك جعلتني *** لك الخير أم صيرتني في شمالك

و عبارة عن الملك هذا ملك يدي قوله مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ و هذا يرجع إلى أن اليمين أراد به الجملة جل ذاته كأنه قال مما ملكتم فيكون مجراه الذات فلو حملناه على الجارحة اقتضى التشبيه المؤدي إلى المناقضة الأصول و أن يكون السماء مطوية بيمينه و يؤدي إلى مناقضة القرآن من حيث أخبر عن حال السماء في ذلك اليوم فقال يَوْمَ تَكُونُ السَّماءُ كَالْمُهْلِ * فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّماءُ فَكانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهانِ * وَ انْشَقَّتِ السَّماءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهِيَةٌ * إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ * و إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ * وَ إِذَا السَّماءُ كُشِطَتْ فكيف يكون السماء مع هذه الأحوال من انشقاق و انفطار و كونها مهلا و وردة مطوية و إنهم رووا أن كلتا يديه يمين و أن الحجر الأسود يمين الله فبأي يمينه تكون مطوية و هو لم يبينه و اليد إنما فرق باليمين و باليسار للتميز فأما إذا كانت كلتا يديه يمينا فلا معنى للقول بأنه فعل كذا بيمينه معينا به الجارحة إذ ليس يقع به

التميز و لعل السموات تكون مطوية بالحجر الأسود و لا يجوز بمعنى المنزلة الحسنة لأنه لا معنى له في الآية و لا بمعنى الملك لأنه لا يقال كان ذلك بملك يميني و لا بمعنى الحد و الصرامة لأن ذلك لا يفيد و إنما استعمل في ذلك بالألف فلم يبق إلا بالقدرة و بالقسم و ذلك أقوال المفسرين .

فصل :

قوله تعالى : جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ القبضة لو فسرت على الظاهر

[٨١]

لأوجب أن الأرض قبضته أي جارحته و يقتضي أنه ليست قبضته سوى الأرض و الأرض ليست بجارحة له و لا يخلو قوله وَ الْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ من ثلاثة أوجه إما أن يكون إخبارا أن الثاني هو الأول كما يقال زيد أخوك فيقتضي ذلك أن الأرض كفه المجتمع أو أن يقال ذلك على سبيل التشبيه للأول بالثاني تفضيلا كما يقال فلان عيني و هو فؤادي و كما يقال فلان أسد و يجر تشبيها له بهما في الجود و الشجاعة و لا يجوز ذلك و إما أن يراد أنه ملكه أو فعله كقولهم هذه داره و عبده و هذا كسبه و فعله و على هذا الوجه يصح ابن عباس و مجاهد أي ملكه و منه يقال هذا في قبضتي و قبضت الدار و الأرض هذه قبضة أي مجتمعة و منه قبضة اليد و القوس و مقبض السيف و القبض ما قبض من الغنائم و الفيء و التقبض التشنج و العبوس فقبضت قبضة فعله منه .

قوله سبحانه : أَ لَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَ لَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ ساكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ثُمَّ قَبَضْناهُ إِلَيْنا قَبْضاً يَسِيراً إنما هي حيث تشرق عليه الشمس فيتقلص لأنه ما رأيت يدا مجسدة تقبض الظل .

قوله سبحانه : أَ وَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صافَّاتٍ وَ يَقْبِضْنَ ما يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمنُ ما رأيت يد تمسك شيئا و إنما معنى ذلك القدرة على إمساكها .

قوله سبحانه : وَ اللَّهُ يَقْبِضُ وَ يَبْصُطُ أي يمنع و يعطي .

قوله سبحانه : ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها و قوله إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ لا يوصف جل ثناؤه بالقبض على الشيء فالمعنى في ذلك أنها في ملكه .

فصل :

قوله تعالى : ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ الجنب العضو المعروف و الناحية

[٨٢]

قال مهلهل :

كانا غدوة و بني أبينا *** بجنب عنيزة رحيا مديرا

و لصيق الشيء و منه الصاحب بالجنب و السبب و يقام مقام أجل يقال فعلته في جنبه أي في سببه و من أجله .

الأحمر :

خليلي كفا و اذكر الله في جنبي *** و قد ملتما في غير إثم و لا ذنب

أي في أمري و الجنب الذي هو الجارحة و لصيق الشيء غير معقول و بمعنى السبب و أجل كلام غير مفهوم فمعناه ما فرطت في جنب الله أي في أمره قال مجاهد و هو الصحيح لأن الجنب يعبر به عن الذات يقال في جنب فلان حق و قال ابن عباس في ذات الله .

و روي عن النبي و الوصي و السجاد و الباقر و الصادق و الرضا و زيد بن علي (عليهم السلام) : جنب الله علي .

قوله سبحانه : يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ وَ يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ الساق ذات القدم و كشفت عن ساقيها و ساق الشجرة التي ترتفع عليها و يقال ساق على ساق أي قمرية على شجرة و الشدة يقال قامت الحرب على ساق .

سعيد بن مالك :

كشفت لهم عن ساقها *** و بدا من الشر الصراح

فالجارحة لا يجوز لأنه لم يقل عن ساقه و لم يقل من يكشف و نكر الساق و لم يعرفه فلا دلالة على شيء مما قالوه و ما رووه فباطل لا أصل له و ليس من الصحاح عند القوم و ذلك كفر شنيع و ما في كشف ساقه مما يوجب معرفتهم بأنه ربهم و يلزمهم التشبيه و إبطال أدلة العقول و رفع الإجماع و تناقض القرآن و لا يجوز بمعنى الشجرة أو القمري لأنه غير مفيد فيهما فلم يبق إلا الشدة و هو حال الكفار لقوله في آخرها وَ قَدْ كانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ و روي عن ابن عباس و ابن جبير و ابن المسيب و قتادة أنه شدة .

فصل :

قوله تعالى : وَ جاءَ رَبُّكَ معناه و جاء أمر ربك حذف المضاف و أقام المضاف إليه مقامه و الحذف في أمثاله جائز إذا كان هناك مانع عن الجري على الظاهر نحو وَ سْئَلِ

[٨٣]

الْقَرْيَةَ و قال الحسن أي جاء وعد ربك يعني الأحكام بالثواب و العقاب و قال الضحاك إذا نزل أهل السموات يوم القيامة و كانوا تسعة صفوف محيطين بالأرض و من عليها .

قوله سبحانه : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ وَ الْمَلائِكَةُ انتظار الكفار أنهم يأتيهم في الظلل يوجب كونه جسما و جوهرا يزول و يغيب و يجيء و يذهب و يبعد و يقرب و يظهر و يخفى قال ابن عباس إتيانه إليهم بوعده و وعيده و إن الله تعالى يكشف عنهم ما كان مستورا عنهم و الله في كل حال فهم يرون أهوال الغمام و غيره من الملائكة .

قوله سبحانه : فَأَتَى اللَّهُ بُنْيانَهُمْ أي أتى أمره في خرابه يدل على ذلك قوله في آخرها فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ أَتاهُمُ الْعَذابُ .

قوله سبحانه : نُسارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْراتِ أي نقدم لهم ثواب أعمالهم لرضانا عنهم و

محبتنا إياهم كلا ليس الأمر كذلك بل نفعله ابتداء في التعبد لهم .

قوله سبحانه : إِنَّ رَبَّكَ أَحاطَ بِالنَّاسِ أي أحاط علما بأحوالهم و ما يفعلون من طاعة أو معصية و ما يستحقونه على ذلك من الثواب و العقاب و هو قادر على فعل ذلك بهم فهم في قبضته لا يقدرون أن يخرجوا من مشيته .

فصل :

قوله تعالى : وَ كَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرى وَ هِيَ ظالِمَةٌ وجه التشبيه فيه بأخذه من الظالم حق المظلوم بلا مداراة فإن الله تعالى نقلهم إلى جهة عقابه بلا محاباة و نقل الشيء إلى جهة الأخذ مجاز و كذلك يأول قوله إن أخذه إليهم شديد و قوله إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ .

قوله سبحانه : وَ إِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ معناه إن أحل بك الضر لأن المس الحقيقي ما يكون بين الجسمين و ذلك لا يجوز عليه لكن لما أدخل الباء للتعدية جرى مجرى أن يقول يمسك من أمس و أما إذا لم يكن متعديا إلى مفعولين فيكون كقوله مَسَّنِيَ الضُّرُّ .

قوله سبحانه : وَ إِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ جعل المس على الله على وجه المجاز لأن الخير و الشر عرضان لا تصح عليهما المماسة و أراد تعالى بذلك الترغيب في عبادته و ترك عبادة سواه لأنه المالك للنفع و الضر دون غيره و أنه القادر عليهما .

قوله سبحانه : وَ ما مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآياتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ لا يجوز إطلاق المنع في صفات الله تعالى لأن المنع وجوده ما لا يصح معه وقوع الفعل من القادر عليه و إنما جاز هاهنا للمبالغة في أنه لا يصح وقوع الفعل فكأنه قد منع و الحقيقة أنا لم نرسل

بالآيات لكيلا يكذب بها هؤلاء كما كذب من قبلهم فيستحقوا المعالجة بالعقوبة و قيل قوله إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ يجوز أن يكون إلا زائدة و تقديره ما منعنا أن نرسل بالآيات أن كذب بها الأولون أي لم يمنعنا ذلك من إرسالها بل أرسلناها مع تكذيب الأولين و معنى أن كذب هو التكذيب كما تقول أريد أن تقوم بمعنى أريد قيامك .

فصل :

قوله تعالى : وَ كانَ اللَّهُ شاكِراً عَلِيماً و الشكر هو الاعتراف بالنعمة و ذلك لا يجوز على الله تعالى معناه لم يزل الله مجازيا للشاكر على شكره في جميع عباده علما بما يستحقونه على طاعاتهم من الثواب و قيل إنما يجوز الشكر منه بمعنى الجزاء عليه كما قال وَ جَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها و الجزاء ليست سيئة و لكن أطلق ذلك لازدواج الكلام و قال المرتضى إنه فاعل بمعنى مفعول كما يقال رداء ساحب بمعنى مسحوب فالشاكر بمعنى المشكور .

قوله سبحانه : وَ اللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ الشكور في صفات الله تعالى مجاز لأنه في الأصل هو المظهر للإنعام عليه و الله تعالى لا تلحقه المنافع و المضار فيكون معناه أنه يعامل المطيع في حسن الجزاء معاملة الشاكر .

قوله سبحانه : الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ معنى الجبار عزيز لا ينال باهتضام و الجبار مدح الباري كما قال و ذم للخلق قوله وَ لَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا و أما قوله في صفة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ قال الفراء أي لا تجبرهم على الإسلام و الصحيح أي لا تتجبر عليهم لأنه لم يسمع فعال من أفعلت .

فصل :

قوله تعالى : الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ *

وَ لَهُ الْكِبْرِياءُ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ إنما قبح تزكية النفس من الآدمي لأنه منقوص في كل ما يمدح به نفسه و لما قال تعالى إنه كريم أو رحيم أو عليم ففيه كل الكرم و الرحمة و العلم و لا يجتلب بمدح نفسه و لا يدفع ضرا و جاز أيضا أن يمدح نفسه ليعرفها أيضا خلقه ليعبد و يعظم .

قوله سبحانه : وَ لكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ و قوله هذا عَطاؤُنا فَامْنُنْ و قال الطوسي إنما يقبح الامتنان إذا كان الغرض الإزراء بالمنعم عليه فأما إذا كان الغرض تعريف النعمة و تعديدها و إعلامه وجوبها ليقابلها بالشكر فيستحق بها الثواب و المدح فإنه نعمة أخرى و تفضل أخرى يستحقون بها الشكر و قال ثعلب أجمع أهل اللغة كلهم أن المن من الله محمود لأنه منه و تفضل و أصول النعم كلها منه و المن من الخلق تقريع و توبيخ قوله يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ... الآية .

قوله سبحانه : ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً المراد هاهنا سعة مقدوراته و قال ابن عباس و مجاهد و الضحاك أي عظمته و يقال أي لا تخافون لله تعظيما و توقيرا .

قال أبو ذؤيب :

إذا لسعته الدبر لم يرج لسعها *** و حالفها في بيت نوب و كابل

النابغة :

محلتهم ذات الإله و دينهم *** قويم فما يرجون غير العواقب

قوله سبحانه : أَنَّهُ تَعالى جَدُّ رَبِّنا قال ابن عباس جد ربنا عظمته و هذا كقوله بِسْمِ اللَّهِ و كقوله تَبارَكَ اسْمُ رَبِّكَ و كقوله وَ يَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ فتكون هذه زيادات .

فصل :

قوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا و قوله وَ اللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ الاستحياء الانقباض عن الشيء في اللسان فتأويله ما قال المفضل معناه لا يمتنع

و قال غيره لا يترك و قال جماعة لا يخشى لأن يستحيي جاء بمعنى قوله وَ تَخْشَى النَّاسَ

[٨٧]

وَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ .

قوله سبحانه : وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ أي ليس الله بساه عن كتمان الشهادة التي لزمكم القيام بها لله تعالى أعني أول الآية وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ و قيل إنه على عمومه و المعنى أنه لا يخفى عليه شيء من المعلومات لا صغيرها و لا كبيرها فكونوا على حذر من الجزاء على السيئات بما تستحقونه من العقاب .

قوله سبحانه : فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ و الذكر بعد النسيان قلنا الذكر حضور المعنى في النفس و معناه فاذكروني بطاعتي أذكركم برحمتي اذكروني بالشكر أذكركم بالثواب اذكروني بالدعاء أذكركم بالإجابة و نحو ذلك .

قوله سبحانه : ذلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ قال الطوسي نكلمك به كما يقال أنشأ زيد الكتاب و تلاه عمرو و قال الجبائي يتلوه عليك بأمرنا جبريل .

قوله سبحانه : هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ اختلفوا هل يجوز أن يوصف الله تعالى بأنه مستطيع أم لا فقال بعضهم يجوز لقوله هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ و قال آخرون لا يجوز لأنه يوهم الحال .

قوله سبحانه : أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ اللعنة الإبعاد من رحمة الله عقابا على معصيته فلذلك لا يجوز لعن البهائم و لا من ليس بعاقل من المجانين و الأطفال لأنه سؤال العقوبة لمن لا يستحقها فمن لعن حية أو عقربا أو نحو ذلك ممن لا معصية له فقد أخطأ لأنه سأل الله عز و جل ما لا يجوز في حكمته فإن قصد بذلك الإبعاد لا على وجه العقوبة كان ذلك جائزا .

[٨٨]

قوله سبحانه : وَ مَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوى .

سأل عمرو بن عبيد الباقر (عليه السلام) فقال : غضب الله عقابه يا عمرو و من ظن أن الله يغيره شيء فقد كفر إنما يغضب المخلوق الذي يأتيه الشيء و يستفزه و يغيره عن الحال التي هو عليها إلى غيرها فمن زعم أن الله يغيره الغضب و الرضا و يزول من هذا إلى هذا فقد وصفه بصفة المخلوق .

و سئل الصادق (عليه السلام) هل لله رضا و سخط فقال : نعم و لكن ليس ذلك مما يوجد من المخلوقين غضب الله عقابه و رضاه ثوابه .

قوله سبحانه : فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ قال ابن عباس و مجاهد و قتادة و السدي و ابن زيد معنى آسفونا أغضبونا لأن الله تعالى يغضب على العصاة بمعنى أنه يريد عقابهم و الأسف في الأصل الغيظ من المغتم إلا أنه هاهنا بمعنى الغضب .

قوله سبحانه : يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ قال ثعلب معناه يا حسرة عليهم لا علينا و لا على رسلنا .

قوله سبحانه : أَ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَواهُ إنما سمي الهوى إلها من حيث إن العاصي يتبع هواه و يرتكب ما يدعوه إليه و قال الحسن معناه اتخذ إلهه بهواه لأن الله تعالى يعرف بحجة العقل لا بالهوى و قال ابن عباس معناه أ فرأيت من اتخذ دينه بهواه لأنه يتخذه بلا برهان و قال ابن جبير كانوا يعبدون العزى فإذا وجدوا ما هو أحسن منه طرحوا الأول و عبدوا الآخر .

قوله سبحانه : شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ أي أخبر بما يقوم مقام الشهادة من الدلالات الواضحة و الحجج اللائحة على وحدانيته من عجيب خلقه و لطيف حكمته فيما خلق و يقال شهد الله أي علم الله و قال أبو عبيدة أي قضا الله أنه لا إله إلا هو و الملائكة و أولو

العلم و قال الحسن و عمرو بن عبيد إن في الآية تقديما و تأخيرا و تقديرها شهد الله أنه لا إله هو قائما بالقسط أي بالعدل و شهد الملائكة أنه لا إله إلا هو قائما بالقسط و شهد أولو العلم أنه لا إله إلا هو قائما بالقسط و أولو العلم هو المؤمنون .

فصل :

قوله تعالى : كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ الشأن الأمر العظيم فمن شأنه أن يغفر ذنبا و يعرج كربا و يرفع قوما و يضع آخرين و قيل شأنه أنه يعتق رقابا و يفخم عقابا و يعطي رغابا و يقال شأنه أن يخرج كل يوم ثلاثة عساكر عسكر من الأصلاب إلى الأرحام و عسكر من الأرحام إلى الأرض و عسكر من الأرض إلى القبور ثم يرتحلون جميعا إلى الله .

قوله سبحانه : سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ معناه سنعمل عمل مجرد من غير شاغل و أصل الفراغ الخلق يقال درهم مفروغ مصبوب في القالب و ضربة فريغة واسعة و فرغ الإناء و نحوه و يقال أي سنفرغ لكم مما وعدناكم من الثواب و أوعدناكم من العقاب و يقال هذا كقولك للرجل و أنت غير مشغول سأفرغ للنظر في أمركم .

قال جرير :

بني عبدة إني فرغت إليكم و قد *** طال زجري ما نهاكم تقدمي

قوله سبحانه في الفاتحة ملك يوم الدين و مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ و لم يجز في سورة الناس مالك الناس لأن صفة ملك يدل على تدبير من يشعر بالتدبير و ليس كذلك مالك لأنه يجوز أن يقال مالك الثوب و لا يجوز ملك الثوب و يجوز أن يقال ملك الروم و لا يجوز مالك فجرت في الفاتحة على معنى الملك في يوم الجزاء و مالك الجزاء و جرت في سورة الناس على ملك تدبير من يعقل التدبير .

قوله سبحانه : مَلِكِ النَّاسِ إنما خص بأنه ملك الناس مع أنه ملك الخلق أجمعين

للبيان لأن مدبر جميع الناس قادر أن يعيذهم من شر ما استعاذوا منه مع أنه أحق بالتعظيم من ملوك الناس .

قوله سبحانه : الْحَيُّ الْقَيُّومُ قال مجاهد و الربيع و الزجاج القيوم القائم بتدبير عباده فيما يضرهم و ينفعهم كقوله قائِماً بِالْقِسْطِ و قوله قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ .

قوله سبحانه : اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ اللطافة من صفات الجوهر لأنه الجزء المنفرد و الرقيق و أنه بخلاف الكثيف و المعنى الصحيح فيه أنه لطيف بالتدبير و الصنع .

قوله سبحانه : وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ سمى نفسه وكيلا مع أنه مالك الأشياء لأنه لما كانت منافعه لغيره لاستحالة المنافع عليه و المضار صحت الصفة له من هذه الجهة .

قوله سبحانه : وَ اللَّهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ و الغالب الذي يعلو غيره لمنعه بنفسه ما يصير إليه في قبضته و الله غالب كل شيء بمعنى أنه غالب عليه لدخوله في مقدوره و لا يمكنه الخروج منه .

قوله سبحانه : سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى الأعلى معناه القادر الذي لا قادر أقدر منه و صفة الأعلى منقولة إلى معنى الأقدر حتى لو بطل معنى علو المكان لم يبطل أن يفهم تحقيقا إذ هي غير متضمنة بغيرها و لم ينقل صفة الأرفع و إنما يعرف في رفعة المكان و أما قول فرعون أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى فإنه كذب في دعواه .

قوله سبحانه : وَ يَأْبَى اللَّهُ الإباء هو المنع لا الكراهية .

[٩١]

قوله سبحانه : هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ هو الذي يقصر مقدار ما يكون من غيره عما يكون منه و هو على ضربين أحدهما عظيم الشخص و الآخر عظيم الشأن و معناه في صفة الله أن كل شيء سواه يقصر عن صفته بأنه قادر فيما يصح أن يكون مقدورا و عالم بحيث لا يخفى عليه شيء و غني بنفسه عن كل شيء لا يجوز عليه الحاجة .

قوله سبحانه : اللّٰه أخذت لفظة إله اسم جنس مثل قولنا بيت و لفظة الله اسم غالب له تعالى مثل البيت للكعبة و الحقيقة فيهما أنه من يستحق العبادة لكونه قادرا على خلق من ينعم عليه فيستحق عليه العبادة و قوله وَ يَذَرَكَ وَ آلِهَتَكَ مجاز و إنما قال ذلك لأن الكفار كانوا يعبدونها و هم إن أخطئوا في العبادة فما أخطئوا في اللفظ فيقال إنه تعالى إله فيما لم يزل و لا يزال و إله الجماد و العقلاء و لا يجوز أن يكون تعالى إلها للأعراض و لا للجوهر الواحد لاستحالة أن ينعم عليها ما يستحق به العبادة و إنما هو إله الأجسام الحيوان منها و الجماد .

قوله سبحانه : إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ معناه إن تنصروا دينه بالدعاء إليه و أضافه إلى نفسه تعظيما كما قال مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ و قيل معنى تَنْصُرُوا تدفعوا عن نبيه يَنْصُرْكُمْ أي يدفع عنكم أعداءكم في الدين عاجلا و عذاب النار آجلا .

قوله سبحانه : بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَ هُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ مع أنه لا يعتد بنصر غير الله مع نصرته فمعناه أنه إن اعتد بنصرة غير الله فنصرة الله خير منها لأنه لا يجوز أن يغلب و غيره يجوز أن يغلب و إن نصر فالثقة بنصرة الله تحصل و لا تحصل الثقة بنصرة غيره .

[٩٢]

قوله سبحانه : وَ مَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ و قد ينصر المؤمنين بعضهم بعضا و بعض المشركين بعضا قلنا إن نصر بعض المؤمنين بعضا من عند الله لأنه بمعونته و حسن توفيقه و أما نصر المشركين بعضهم ببعض فلا يعتد به لأنه بخذلان الله من حيث إن عاقبته إلى شر مال من العقاب الدائم .

قوله سبحانه : إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غالِبَ لَكُمْ أي بالمئونة التي توجب الغلبة لأن الله تعالى يقدر على إعطائهم ما يغلبون به كل من نازعهم و يقلعون كل من ناواهم و من كان الله ناصره بالحجة لم يغلبه أحد و إذا غلب بالحرب فلضرب من المحنة و شدة التكليف و لو هزم قوم من المؤمنين لجاز أن يقال هم المنصورون أي بالحجة .

قوله سبحانه : اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لم يقل الله نور و لو كان نورا في الحقيقة لم يكن للإضافة معنى لأن ما كان نورا في الحقيقة فهو نور لأي شيء كان و لو أراد على معنى الضياء لوجب أن لا يكون في شيء من السماوات و الأرض ظلمة بحال لأنه دائم لا يزول و أوجب أن يكون الاستضاءة به دون الشمس و بين أنه خالق النور فقال وَ جَعَلَ الظُّلُماتِ وَ النُّورَ فكيف يكون نورا مع كون النور مخلوقا و قال في آخرها يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ فلو أراد بذلك الضياء لما كان له معنى و جعل لنوره مثلا و هو المصباح في ضعفه و كيف يكون نورا و الأرض و السماء في ضوئهما و لو كان نورا لوجب أن يكون ذا أجزاء كثيرة لأن النور هو المضيء و المضيء لا يكون إلا بأن ينفصل منه أجزاء يضيء غيره بتلك الأجزاء و لو كان نورا لم يخل من أن يحجبه الظلمة و الحجاب أو لا يحجبه شيء فإن لم يحجبه شيء وجب أن تكون السماوات و الأرض في جميع الأوقات مضيئة و إن حجبه حجاب أو منعه مانع كان كسائر الأنوار ثم إن ذلك تحقيق قول الثنوية في زعمهم بالأصلين النور و الظلمة ابن عباس و الزجاج اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ مدبر أمورهما السدي بنوره أضاءت السماء و الأرض الضحاك به تكونت الأشياء و يقال الله واحد في سمائه و أرضه و يسمي الفرد نورا

قال الرضا (عليه السلام) هاد لأهل السماء و هاد لأهل الأرض .

[٩٣]

فصل

قوله تعالى : لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ تمدح سبحانه بالإجماع و بما يقتضيه سياق الآية بنفي إدراك الأبصار الذي هو رؤيتها و هذا التمدح راجع إلى ذاته لأن الإدراك ليس بمعنى فيتمدح بأن لا يفعله على سبيل التفضيل و كل ما تمدح بنفيه على هذا الوجه لا يكون إثباته إلا نقصا و موجبا ذما و هو يتعالى عما يوجب الذم و النقص أ لا ترى أنه تعالى لما تمدح بنفي الصاحبة و الولد و السنة و النوم في قوله مَا اتَّخَذَ صاحِبَةً وَ لا وَلَداً * و لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَ لا نَوْمٌ لم يجز إثبات شيء من ذلك في

حال من الأحوال لاقتضائه الذم و النقص كذلك هاهنا يوضح ذلك أن قبل الآية بَدِيعُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ صاحِبَةٌ * وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ فتمدح سبحانه بما تضمنته هذه الآيات من صفاته على حد واحد لا يختلف فيه الحال و كل ما كان نفيه مدحا فلا يكون إثباته إلا ذما عند أهل اللسان .

الرضا (عليه السلام) : لا تدركه أوهام القلوب فكيف تدركه أبصار العيون .

الصادق (عليه السلام) : أي إحاطة الوهم أ لا ترى إلى قوله قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ يقال فلان بصير بالدراهم و الثياب و الجوارح و الأشعار .

أبو جعفر الثاني (عليه السلام) : أوهام القلوب أدق من أبصار العيون أنت قد تدرك بوهمك البلدان التي لم تدخلها و لا تدركها ببصرك فأوهام القلوب لا تدركه فكيف تدركه الأبصار .

الصاحب :

قالت فقل لي أ بالأبصار تدركه *** فقلت جل عن الأبصار بالعقل

أجمعوا على أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال يا من يرى و لا يرى و هو بالمنظر الأعلى .

و كتب أحمد بن إسحاق إلى أبي الحسن الثالث (عليه السلام) يسأله عن الرؤية فكتب جوابه : ليس تجوز الرؤية ما لم يكن بين الرائي و المرئي هواء ينفذه البصر فمتى انقطع الهواء و عدم الضياء لم تصح الرؤية و في وجوب اتصال الضياء بين الرائي و المرئي هواء ينفذه البصر و الله يتعالى عن الأشباه فثبت أنه لا يجوز عليه سبحانه الرؤية بالأبصار .

و قيل للرضا (عليه السلام) إن رجلا رأى ربه في منامه فما يكون ذلك فقال : ذاك الرجل رجل لا دين له إن الله عز و جل لا يرى في اليقظة و لا في المنام و لا في الدنيا و لا في الآخرة .

أبو سعيد الواعظ في رجال الصوفية قال أمير المؤمنين (عليه السلام) سلوني قبل أن تفقدوني

[٩٤]

فقال ذعلب هل رأيت ربك فقال (عليه السلام) : ما كنت أعبد ربا لم أره قال كيف رأيته قال لم تره العيون بمشاهدة العيان و لكن رأته القلوب بحقائق الإيمان لا يدرك بالحواس و لا يقاس بالناس فصاح ذعلب و خر مغشيا عليه .

الصادق (عليه السلام) و قد سأله أعرابي هل رأيت ربك حين عبدته فقال (عليه السلام) : لم أكن أعبد ربا لم أره فقال كيف رأيته قال لم تره الأبصار بمشاهدة العيان بل رأته القلوب بحقائق الإيمان لا يدرك بالحواس و لا يقاس بالناس معروف بالآيات و الدلالات منعوت بالعلامات لا يجور في قضيته هو الله لا إله إلا هو فقال أعرابي الله أعلم حيث يجعل رسالاته .

قالوا نرى معبودنا و جاروا *** إذ قال لا تدركه الأبصار

لا يبصر الإنسان ما يراه *** إلا إذا حاذاه أو وازاه

يراه إذا رآه في المكان *** يقدر أن يشير بالبنان

الصاحب :

لو كان محسوسا بعيني ناظر *** لكان ملموسا بكفي زائر

فصل :

قوله تعالى : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ فقوله وُجُوهٌ لا يخلو إما أن يراد به الوجه أو العين أو الجملة فالأول لا يجوز لأن الوجه لا يرى و لا ينتظر و لا يكون

رائيا على الحقيقة فلا يصح حمله على أي وجه صرفت الآية إليه يدل عليه أنه لا يجوز أن يقول رآه وجهي و لا يجوز الثاني لأن العين لا توصف بالنضارة التي هي الإشراق و لأن العين في الحقيقة ليست بناظرة لأن الناظر و الرائي إنما هو الجملة إذ العين آلة يرى بها فلم يبق إلا أن المراد به الجملة و يبين ذلك قوله في نظيره وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ تَظُنُّ و الظن أنما يرجع إلى الجملة و لا يصح أن يكون المراد حقيقة الوجه من حيث وصف بالنضارة و البسور إذ ذلك جاء صفة الوجه و الجملة توصف بذلك يقال فلان عبوس كالح فهو بسر و بسير و أشباه ذلك و قوله يَوْمَئِذٍ و الخصم لا يثبت ذلك إلا في الجنة لأنه من الفضال التي يختص بها المؤمن و هاهنا في صفة القيامة و قوله ناظِرَةٌ النظر التأمل و هو لازم انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ و انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ و قد يتعدى هذا بالجار نحو أَ فَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ *

[٩٥]

أَ وَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ و الانتظار غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ و ما ينظر هؤلاء .

حسان :

وجوه يوم بدر ناظرات *** إلى الرحمن يأتي بالفلاح

الكميت :

و شعث ينظرون إلى بلال *** كما نظر الظباء حيا الغمام

البعيث :

وجوه بها ليل الحجاز على الندى *** إلى مالك ركن المعارف ناظرة

و المهلة فَنَظِرَةٌ إِلى مَيْسَرَةٍ * فَناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ * أَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ .

و انظرنا نخبرك اليقينا

و الرحمة انظر إلي نظر الله إليك و فلان ينظر لفلان و هو حسن النظر له و لا ينظر إليهم يوم القيامة و الإهلاك نظر الدهر إلى بني فلان .

نظر الدهر إليهم فاضمحلوا

و التحديق نحو الشيء طلبا للرؤية لأنهم يثبتون النظر دون الرؤية قولهم نظرت إلى الهلال فلم أره و ما زالت أنظر إليه حتى رأيته و انظر حتى ترى و لو لا أني كنت أنظر لما رأيته و نظرت إليه فوجدته جالسا و لا يقال نظرت إلى زيد متعريا كما يقال رأيته متعريا و الله تعالى رأى و لا يقال ناظر لأن النظر تقليب الحدقة الصحيحة نحو المرئي لطلب الرؤية و نظرت إليه نظر راض و نظر غضبان و نظرا شزرا و نظر بمؤخر عينه و قد أحد إليه النظر ينظرون إليك نظر المغشي عليه .

شاعر :

نظروا إليك بأعين محمرة *** نظر التيوس إلى شفار الجازر

غيره :

و نظره ذي شجن وامق إذا *** ما الركائب جاوزن ميلا

و النظر يتعدى بإلى و الرؤية و أمثالها بنفسها يقال نظرت إليه و رأيته قال الله تعالى وَ تَراهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَ هُمْ لا يُبْصِرُونَ و القول بذلك يؤدي إلى مناقضة قوله لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ إذ ذاك عموم لا تخصيص فيه و لأنه تمدح به كما تمدح بقوله وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ فهو إذا جار في عموم الأوقات مجراه لأن زوال ما يوجب المدح نقص و لا يجوز إلى ربها ناظرة لها لأن التخصيص لا يقع إلا بما يشتبه الأمر فيه فكيف بما

لا يقتضيه و نمط هذه الآية و ما يتعقبه لا ينبئ عنه و يبطله لأنه قال في نقيضه وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ ... الآية فلما أوجب الكفار خوف العقاب دون المنع من الرؤية ليتشاكل المعنيان لأنه لو قال إن المؤمنين يروننني و الكافرين أعذبهم لم يكن متشاكلا في المعنى بل كان معيبا عند البلغاء و قال الصاحب بن عباد ناظرة إلى ربها أي نعمة ربها لأن الآلاء النعم و في واحدها أربع لغات يقال ألى مثل قفا و إلى مثل معا و ألي مثل رمي و ألي مثل حسبي

[٩٦]

قال الأعشى :

أبيض لا يرهب الهزال و لا *** يقطع رحما و لا يخون إلى

و جاء في التفسير عن ابن عباس و الحسن و عمرو و مجاهد و قتادة و الأعمش و ابن جريح و أبي صالح و الضحاك و الكلبي و ابن المسيب و ابن جبير وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ يعني : مشرقة ينتظر ثواب ربها و هو المروي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) .

و قال أمير المؤمنين (عليه السلام) : ينظرون إليه في الآخرة كما ينظرون في الدنيا .

فصل :

قوله تعالى : رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ليس في مسألة الشيء دلالة على صحة وقوعه و لا جوازه لأن السائل يسأل عن الجائز و المحال مع العلم و فقد العلم لأغراض مختلفة ثم إنه سأل لقومه بعد ما أجابهم فلم يرتدعوا فاختار السبعين الذين حضروا الميقات ليكون سؤاله بمحضر منهم قوله يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتاباً مِنَ السَّماءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسى أَكْبَرَ مِنْ ذلِكَ فَقالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ و قوله وَ إِذْ قُلْتُمْ يا مُوسى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ

وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ و قوله فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِيَّايَ أَ تُهْلِكُنا

[٩٧]

بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا إضافة ذلك إلى السفهاء يدل على أنه كان بسببهم و أنهم سألوه ما لا يجوز عليه و قال أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ و النظر غير الرؤية و يقال إن موسى إنما سأل ربه أن يعلمه ضرورة بإظهار بعض أعلام الآخرة التي تضطر إلى المعرفة و يستغني عن الاستدلال فتزول عنه الدواعي و الشكوك و الشبهات كما سأل إبراهيم أن يريه كيف يحيي الموتى و السؤال و إن وقع بلفظ الرؤية تفيد العلم كما تفيد الإدراك بالبصر فقال له لَنْ تَرانِي أي لن تعلمني على هذا الوجه الذي التمسته مني و إنه أجابه الله تعالى بأنه لا يراه بلفظ محكم ظاهر جلي لا يحتمل التأويل عام لا تخصيص فيه و لَنْ تَرانِي معناه لا تراني أبدا لأن لن للتأبيد قوله وَ لَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً و قوله لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً و معلوم أنه إذا لم يره موسى (عليه السلام) فلا مطمع لغيره و الآية بالنفي أولى من الإثبات و إنه علق رؤيته بما يستحيل كونه و الشيء إذا علق كونه بما يستحيل حصوله استحال كقوله في الكفرة وَ لا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِياطِ فكذلك لما علق رؤيته بما يستحيل كونه و هذا استقرار الجبل في حال الدكة إذ محال سكون الشيء في حال تحركه و ذلك يوجب استحالة رؤيته فلما اندك الجبل عند سؤاله ذلك كان فيه غاية الإنكار إذ كان ذلك مما أوعد بأنه يكاد أن يحدث عند زعمهم أن لله ولدا قوله وَ قالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ و بين أن القول بالرؤية يضاهي القول باتخاذ الولد بل يزيد عليه إذ قال في اتخاذ الولد تَكادُ و في الرؤية حصل فكم بين الأمرين فرقا قال أبو علي و لم ينزل عليهم الصاعقة إلا بعد هذا السؤال و في ذلك دلالة على أن أصل كل سببه تجويز الرؤية على الله تعالى و يعبر برأي عن خمسة معان بمعنى أبصر رأيت زيدا قائما و بمعنى علم أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ و بمعنى ظن إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً و بمعنى اعتقد .

و إنا لقوم لا نرى القتل سبة *** إذا ما رأته عامر و سلول

و بمعنى الرأي : يقول رأيت هذا الرأي ، و هذا رأي أبي حنيفة .

قوله سبحانه : فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ التجلي هو إظهار الشيء و منه جلت الماشطة العروس جلوة و قد فسر قوله لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها أي لا يعرفكم وقتها سواه و تجلى

[٩٨]

و جلى بمعنى واحد كما يقال تصدق و صدق و تحدث و حدث و النظر إلى الشيء يقول تجلى فلان لفلان إذا نظر إليه و تجلى البازي للصيد إذا رفع رأسه ناظرا إليه فالأول غير جائز على الله تعالى لأن الظهور و الكمون تغير و هو من صفات المحدث و لو أراد تعالى ذاته لم يكن لذلك معنى لأن المتجلي يكون إما بمقابلة أو ظهور فلو أريد به المقابلة فصار الجبل دكا وجب أن يستقر له مكان في العرش و غيره بل يصير دكا و إن أراد ظهر لكان لا يصح لأنه تعلق نفي الرؤية بأن لا يستقر الجبل و المعلوم أنه لا يستقر بأن ينكشف له و يرى لأن ذلك في حكم أن يجعل الشرط في أن لا يرى ما يوجب أن يرى و ذلك متناقض و يحتمل أنه لما أظهر الله تعالى للجبل من آيات الآخرة صار الجبل دكا إذ قد بينا أن ظهوره ظهور آياته كما قال الحسن تجلى ربه بدا له نور العرش .

و في رواية تجلى الله علما من أعلام يوم القيامة فاقتلع الجبل .

و يحتمل أن يكون في الكلام تقديم و تأخير فيكون معناه فلما تجلى موسى للجبل أي فلما رفع رأسه ناظرا إليه جعله ربه دكا و ذلك أنه قال انظر إلى الجبل فإن استقر و نظيره أَ لَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ و تقديره أ لم تر إلى الظل كيف مده ربك .

فصل :

قوله تعالى : وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ * يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ * فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ التعلق بظواهرها لا يصح لأن اللقاء عندهم أفضل ثواب الله و الله تعالى حذرهم من لقائه بعد الأمر باتقائه و هم متى ما اتقوه لقوه بزعمهم و متى ما لم يتقوه لم يلقوه فالتوعد بذلك لا يصح عندهم لأنه من

أفضل الثواب و لو كان اللقاء الرؤية لرآه المؤمنون و الكافرون لأنه أخبر أنهم الذين يعلمون و يعتقدون أنهم ملاقو الله و عندهم أنه إنما يراه المستحقون لثوابه و ليس أحد يعلم يقينا أنه مستحق للثواب فإذا لم يجز أن يعلم أحد أنه يراه صح أن الملاقاة غير الرؤية و الملاقاة مفاعلة من اللقاء و أصله استقبال الشيئين أحدهما للآخر يقال داري تلقاء داره و يستعمل في الرؤية لاستقبال الرائي المرئي و الظاهر يقتضي أنهم يستقبلون الله و الله يستقبلهم و لو تركوا الظاهر سقط تعلقهم و إن كانت الملاقاة استقبال أحد الشيئين للآخر فلا معنى للتوعد به لأنهما لا يوجبان تحذيرا و لا تخويفا و ظاهر اللفظ يوجب أنهم يعلمون أنهم يلقونه في الوقت

[٩٩]

لأنه أخبر أنهم يعلمون أنهم ملاقوه و لم يقل سيلقونه في الآخرة و متى قلت فلان يلاقي فلانا فإنه يجب للحال و إذا لم يكن في الوقت كذلك سقط التعلق و لا يرد إلى الاستقبال لأنه عدول عن الظاهر و اللقاء مجاز في الرؤية لأنه يستعمل في ممارسة الشيء و إن لم يصح الرؤية عليه يقال لقيت منه شرا و برحا و لقيت منه الأمرين لَقَدْ لَقِينا مِنْ سَفَرِنا هذا نَصَباً * وَ لَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ .

فمن يلق خيرا يحمد الله أمره *** يلاقي كما لاقى مجير أم عامر

و على سبيل التوعد يجب أن تلقى الأمير فَإِذا لَقِيتُمُ * وَ قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا اللَّهِ * وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ و إذا كان مجازا لم يجز رده إليها إلا بدليل و متى منع الجري على ظاهره وجب رد المعنى إلى ما يصح الجري عليه كقوله وَ سْئَلِ الْقَرْيَةَ * فَأَتَى اللَّهُ بُنْيانَهُمْ يؤكد ذلك قوله فَأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ معناه يوم يلقون جزاءه لأن المنافقين لا يرون الله عند أحد من أهل الصلاة و كذلك قوله وَ لَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلى رَبِّهِمْ ... إلى آخر الآية معناه إذ وقفوا على جزاء ربهم لأن الكفار لا يرون الله عند أحد من الأمة و يستحيل الرؤية لموجب كون المرئي جسما كثيفا بأكثف من شعاع العين في محاذاة مخصوصة متوسطا في القرب و البعد من الرائي فلما استحال عليه ما به تصح الرؤية استحالت الرؤية عليه

فوجب صرف ما ينفى عنه من الألفاظ إلى غيره و قد فسره الله تعالى بما لا إشكال فيه أن جميع الناس يلقونه ثم بين كيفية اللقاء من سرور أو ثبور .

قوله سبحانه : قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذا جاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قالُوا يا حَسْرَتَنا عَلى ما فَرَّطْنا فِيها أي خسر هؤلاء الكفار الذين كذبوا بلقاء ما وعد الله به من الثواب و العقاب و جعل لقاءهم لذلك لقاءه تعالى مجازا كما يقول المسلمون لمن مات منهم لقد لقي الله و صار إليه يعنون لقاء ما يستحقه من الله كما قال وَ لَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ و الموت لا يشاهد أي رأيتم أسبابه و أنتم تنظرون .

فصل :

قوله تعالى : لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَ زِيادَةٌ الظاهر أنه لا دلالة

على ما قالوه لأن الزيادة لا تعقل بمعنى الرؤية فإذا لا يجوز أن يخاطب الله عباده بما ليس في لغتهم إلا مع البيان لذلك و إنما يصح ذلك في الشرع من حيث لم يكن لما أمر به في أصل اللغة اسم موضوع و ليس كذلك الرؤية و لا بيان هاهنا و أما حمل الآية على الحديث المروي عن أبي بكر فإسناده غير مرضي ثم إن رد ذلك إلى مخصوص جائز ما لم يرده اللغة و الأصول فاللغة تنفي ذلك لأن الزيادة على الشيء لا تكون إلا من جنس ذلك الشيء أ لا ترى أنه لا يجوز أن يقول له عشرة دراهم و زيادة ثم تكون الزيادة ثوبا و إن الزيادة على الشيء لا تكون أفضل من الشيء المذكور بل تكون دونه فلما كانت رؤيته أفضل من جميع الثواب و من الجنة لم يجز أن يكون المراد بلفظ الزيادة الرؤية و قوله لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى مثل قوله عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا السُّواى فمعنى الحسنى الثواب و معنى السوء العقاب و معنى الآية مفسر في القرآن في مواضع و هو أنه يعني به أن للمحسن جزاء إحسانه و زيادة تحصل له لا يستحقها بفعله كما قال مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها * لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ * وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ فبين أن الزيادة من فضله و لم يقل من رؤيته و لا معدل عما بينه الله و قد فسره

المفسرون قال ابن عباس و الحسن و مجاهد و قتادة الحسنى الثواب المستحق و الزيادة التفضل على قدر المستحق على طاعاتهم من الثواب و هي المضاعفة المذكورة في قوله فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها و قال أبو صالح و الكلبي نحو ذلك و قيل ما يأتيهم في كل وقت من فضل الله مجددا .

الباقر (عليه السلام) : الزيادة هي ما أعطاهم الله من النعم في الدنيا لا يحاسبهم به في الآخرة .

أمير المؤمنين (عليه السلام) : الزيادة غرفة من لؤلؤه واحدة لها أربعة أبواب .

قوله سبحانه : كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ليس في الآية ذكرها و لا محجوبين إثبات لكونهم غير محجوبين لأن اللفظ لا يدل عليه و لا ينبئ عنه و المتروك ذكره لا يدل على أنه بخلاف المذكور بل يكون موقوفا على الدليل على أن ما ذكر أنهم محجوبون عنه في يوم القيامة و عند القوم لا يراه أحد في ذلك الوقت بل الكل محجوبون و لو كان منعا عن الرؤية لناقض قوله وَ لَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلى رَبِّهِمْ فهذه تخبر عن وقوفهم عليه و تلك تخبر عن كونهم غير محجوبين عنه و يأتي لفظ الحجاب فيما هو أبلغ من الرؤية فيقال فلان محجوب عن الإرث إذا كان من لأجله لا يستحق الإرث و فلان محجوب عن ماله أي ممنوع من التوصل إليه و على هذا تأول الآية على أن الاستدلال بالآية مبني على دليل الخطاب و هو باطل .

فصل

قوله تعالى : ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى تعلقهم بذلك فاسد لأن التدلي في أول الآية أنما هو النزول لا الصعود يقال أدليت الدلو و تدلى الشيء و تدليت من السطح قوله وَ لَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أي نزولا ليعلم أن تدلي بمعنى النزول و لو لم يكن كذلك لم يصح قوله نَزْلَةً أُخْرى و الأول ليس بنزلة و قوله وَ لَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى يوجب أنه رآه مرتين و ليس ذلك مذهبهم و قوله لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ و لو كان كما زعموا لقال ربه و قد فسر

المخالفون قوله لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ أنه في الدنيا و عندنا أنه في الدنيا و العقبى فعلى قول الجميع لا يجوز أن رآه أحد في الدنيا فكيف يفسر آية بما يبطل هذه الآية و نمط الآية يبطل قولهم كما قال وَ ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى فبين أنه وحي و الموحي إليه إنما هو جبريل و بين أنه شديد القوى ذو مرة أي عقل فاستوى أي عقل وَ هُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلى يعني بالسماء العليا ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى أي نزل فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى أي كان جبريل من محمد على هذا المقدار فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى يعني جبريل إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى لم يكن فيما رأى شبهة يرتاب بها بل كانت رؤية صحيحة و هذه كلها من صفات الأجسام ثم قال وَ لَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى يعني بها عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى و زعموا أن السدرة في الجنة فيجب أن يكون رآه في الجنة فتارة يقولون إنه رآه على العرش و تارة يقولون إنه رآه في الجنة على أنه لم يقل في الجنة و لكن قال عِنْدَها و معنى ذلك كقوله إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى ظُلْماً ثم قال ما زاغَ الْبَصَرُ وَ ما طَغى أي لم يزغ في رؤيته و لم يكن فيه مخطئا ثم قال لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى فبين أنه رأى الكبرى من آيات ربه وَ ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ ... الآية بين أنه لا يجوز أن يكلم أحد إلا على هذه الوجوه الثلاثة فلا يجوز أن يكلمهم مخاطبة و مشافهة .

و روى الترمذي في صحيحة قال مسروق دخلت على عائشة فقلت هل رأى محمد ربه فقالت : لقد تكلمت بشيء وقف له شعري فقلت رويدا ثم قرأت لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى فقالت أين يذهب بك إنما هو جبريل ثم قالت بعد كلامه لكنه رأى جبريل لم يره في صورته إلا مرتين مرة عند سدرة المنتهى و مرة في أجياد له ستمائة جناح قد سد الأفق .

أبو ذر سئل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أ رأيت ربك ؟ فقال (عليه السلام) : أ نور إن أراه .

ابن عباس ما كَذَبَ

الْفُؤادُ ما رَأى قال : رآه بقلبه و روى المفسرون عن ابن عباس و ابن مسعود و الحسن و عائشة و مسروق و عمر بن دينار و معمر و هشام بن عروة نحو ما قلناه من الوجوه قال الجبائي في قوله لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرى رَبَّنا الكفار مجسمة فلذلك جوزوا الرؤية عليه و كذلك اليهود حيث قالت لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً و قد تكون الرؤية في النوم و الرؤية بالقلب فإذا قال جهرة لم يكن إلا رؤية العين على التحقيق .

قوله سبحانه : وَ إِذْ قُلْتُمْ يا مُوسى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً استدل البلخي بهذه الآية على أن الرؤية لا تجوز على الله تعالى لأنها إنكار تضمن أمرين ردهم على نبيهم و تجويزهم الرؤية على ربهم و يبين ذلك قوله فَقَدْ سَأَلُوا مُوسى أَكْبَرَ مِنْ ذلِكَ فدل ذلك على أن المراد إنكار الأمرين .

فصل :

قوله تعالى : فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أي تعلمون أن الأنداد التي تعبدونها من الأصنام و غيرها لا تضر و لا تنفع و لا تسمع و لا تبصر و المشركون لا يعتقدون أن الأصنام خلقت السماء و الأرض من دون الله فالوصف لهم هاهنا بالعلم أنما هو لتأكيد الحجة عليهم ليكونوا أضيق عذرا و يقال و أنتم تعلمون أي تعقلون أن من كان بهذه الصفة فقد استوفى شروط التكليف و ضاق عذره في التخلف عن النظر و إصابة الحق كما قال إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ و قال مجاهد المراد بذلك اليهود و النصارى خاصة و معنى وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أي إنكم تعلمون في التوراة و الإنجيل أنه إله واحد .

شريح بن هاني إن أعرابيا قام يوم الجمل إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) فسأله عن التوحيد فقال الناس أ ما تراه في تقسم القلب فقال (عليه السلام) دعوه فإن الذي يريد الأعرابي هو الذي نريده من القوم ثم قال يا أعرابي : إن الكلام في أن الله تعالى واحد على أربعة أقسام فوجهان منها لا يجوزان على الله تعالى و وجهان يثبتان فيه فأما

اللذان لا يجوزان عليه فقول القائل واحد يقصد به باب الأعداد فهذا ما لا يجوز عليه لأن ما لا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد أ ما ترى أنه كفر من قال ثالِثُ ثَلاثَةٍ و قول القائل هو واحد من الناس

[١٠٣]

يريد به النوع من الجنس فهذا ما لا يجوز لأنه تشبيه و جل ربنا عن ذلك و أما الوجهان اللذان يثبتان فيه فقول القائل هو واحد ليس له في الأشياء شبه كذلك ربنا و قول القائل إنه عز و جل أحدي المعنى يعني به أنه لا ينقسم في وجود و لا عقل و لا وهم كذلك ربنا .

و قال متكلم قولنا إنه واحد على أربعة أوجه الأول واحد ليس بذي أبعاض و لا يجوز عليه الانقسام و الثاني واحد في استحقاق العبادة و الثالث واحد ليس له نظير و الرابع في الصفات النفسية .

و قال أمير المؤمنين (عليه السلام) : و كل معدود بنفسه مخلوق و كل قائم بسواه معلول .

قوله سبحانه : وَ هُوَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَ فِي الْأَرْضِ أي المنفرد بالتدبير في السماوات و في الأرض لا أن أحل فيهما أو في شيء منهما لأنه لا يجوز أن يقال هو زيد في البيت و الدار إلا أن يكون في الكلام ما يدل على أن المراد به التدبير كقول القائل فلان الخليفة في الشرق و الغرب لأن المعنى في ذلك أنه المدبر فيهما و يجوز أن يكون خبرا بعد خبر كأنه قال هو الله و هو في السماوات و في الأرض و قال أبو علي إن قوله وَ هُوَ اللَّهُ قد تم الكلام و قوله فِي السَّماواتِ وَ فِي الْأَرْضِ متعلق بقوله يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَ جَهْرَكُمْ في السماوات و في الأرض لأن الخلق إنما يكونون ملائكة فهم في السماء أو الإنس و الجن فهم في الأرض فهو تعالى عالم بجميع ذلك لا يخفى عليه خافية و يقويه قوله وَ يَعْلَمُ ما تَكْسِبُونَ و قال هشام بن الحكم للمؤبد أ هما في القوة سواء قال نعم قال فجوهرهما واحد قال المؤبد لنفسه إن قلت إن جوهرهما واحد عاد إلى نعت واحد و إن قلت مختلف اختلفا أيضا في الهم و الإرادات و لم يتفقا في الخلق

فقال هشام كيف لا تسلم قال هيهات و قال أبو الهذيل لصالح بن عبد القدوس على أي شيء تعزم يا صالح قال أستخير الله و أقول بالاثنين قال فأيهما استخرت لا أم لك .

شاعر :

لو كان للخير سواه رب *** تبتت الملك و جاء الحرب

لو كان في الخلق له نظير *** لقيل هذا عاجز حقير

قوله سبحانه : وَ هُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ وَ فِي الْأَرْضِ إِلهٌ .

[١٠٤]

قال الديصاني لهشام بن الحكم إن في القرآن هذه الآية قوة لنا فكتب هشام إلى الصادق (عليه السلام) فأجابه قل له ما اسمك بالكوفة فإنه يقول فلان فقل ما اسمك بالبصرة فإنه يقول فلان فقل له كذلك ربنا في السماء إله و في الأرض إله و في البحار إله و في كل مكان إله قال فأتيته و أخبرته فقال هذا نقل من الحجاز .

الفضل بن شاذان قال ثنوي للرضا (عليه السلام) إني أقول إن صانع العالم اثنان فما الدليل على أنه واحد فقال (عليه السلام) : قولك اثنان دليل على أنه واحد لأنك لم تدع الثاني إلا بعد إثباتك الواحد فالواحد مجمع عليه و أكثر من ذلك مختلف فيه .

قوله سبحانه : وَ ما مِنْ إِلهٍ إِلَّا اللَّهُ دخول من فيه يدل على عموم النفي لكل إله غير الله و لو قال ما إله إلا الله لم يفد ذلك و إنما أفادت من هذا المعنى لأن أصلها لابتداء الغاية فدلت على استغراق النفي لابتداء الغاية إلى انتهائها و قال ثنوي لهشام بن الحكم أنا أقول بالاثنين فقال حفظك الله يقدر أحدهما يفعل شيئا لا يستعين بصاحبه عليه قال نعم قال فما ترجو من اثنين واحد خلق كل شيء .

أبو الخير فاذشاه :

تبارك الله العزيز الفرد *** من أن يرى ضد له أو ند

قوله سبحانه : لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ معناه ليس مثله شيء على وجه من الوجوه و تكون الكاف زيادة تقديره ليس مثل الله شيء من الموجودات و المعلومات .

قال أوس :

و قتلي كمثل جذوع النخيل *** يغشاهم سبل منهم

و قال المرتضى : الكاف ليست زائدة و إنما نفى أن يكون لمثله مثل فإذا ثبت ذلك علم أنه لا مثل له لأنه لو كان له مثل لكان له أمثال و كان لمثله مثل لأن الموجودات على ضربين ما لا مثل له كالقدرة و ما له مثل كالسواد و البياض و أكثر الأجناس فله أيضا أمثال و ليس في الموجودات ما له مثل واحد فحسب فعلم بذلك أنه لا مثل له أصلا من حيث لا مثل لمثله و يقال أي ليس كهو شيء فأدخل المثل توكيدا كقوله مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ أي مثل الجنة كقوله فِيها أَنْهارٌ و قالوا الكاف زيادة معنى و ذلك أن التشبيه يقع بمثل و بالكاف فأراد الله تعالى أن يبين أنه منزه عن التشبيه أنه كشيء أو مثل شيء .

[١٠٥]

قوله سبحانه : أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ * لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا معنى ذلك أنه لو صح إلهان أو آلهة لصح بينهما التمانع فكان يؤدي ذلك إذا أراد أحدهما فعلا و أراد الآخر ضده إما أن يقع مرادهما فيؤدي إلى اجتماع الضدين أو لا يقع مرادهما فينتقض كونهما قادرين أو يقع مراد أحدهما فيؤدي إلى كون الآخر غير قادر و كل ذلك فاسد .

قوله سبحانه : قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ

سأل أبو هاشم الجعفري أبا جعفر الثاني (عليه السلام) عن معنى الأحد قال : المجمع عليه بالوحدانية أ ما سمعته يقول وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ثم يقولون بعد ذلك له شريك و صاحبة .

أبو الطفيل الكناني سألت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن أدنى التوحيد فقال (عليه السلام) : إن الله لا يشبه شيئا و لا يشبهه شيء و كل ما وقع في الوهم فهو بخلافه .

ابن مسعود سألته عن التوحيد فقال (عليه السلام) : التوحيد ظاهره في باطنه و باطنه في ظاهره فظاهره موصوف لا يرى و باطنه موجود لا يخفى لا تخلو منه مكان و لا يخفى عليه شيء ظاهر غير محدود و باطن غير مفقود .

و سئل أمير المؤمنين (عليه السلام) عنه فقال : التوحيد أن لا تتوهمه و العدل أن لا تتهمه .

و سئل الصادق (عليه السلام) عنه فقال : هو أن لا تجوز على ربك ما جاز عليك و العدل أن لا تنسب إلى خالقك ما لامك عليه .

و سئل الصادق (عليه السلام) عنه فقال : كل ما أحاط به وهمك و جذبه تفكرك أو أصبته بالحواس فالله جل جلاله بخلاف ذلك .

فصل :

قوله تعالى : لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ قولهم إن الله واحد ثلاثة أشياء مناقضة لأن الواحد ما لا بعض له و ثلاثة ما له بعض فكأنهم قالوا لا بعض له و له بعض و ينزل منزلة قول القائل في الشيء الواحد إنه موجود معدوم قديم محدث و كل ما سوى الله فهو غير واحد لأنه إما أن يكون بالصفة و التركيب كالعدد و الجمع أو بالصفة و الصورة كالجوهر و العرض أو بالتولد كالأصل و الفرع أو بالمكان كالعرض

و الطول أو بالهم كالعقل و النفس أو بالاعتدال كالطبع و الموت أو في مقابلة شيء كالمثل و الشبه أو بالعنصر كالهيولى و العنصر أو بالعدد كالمكان أو بالمدد كالزمان أو بالحد كالصورة أو لقبول شيء كالخاصية أو للوهم كالمشكوك أو للوجود و العدم كالضد أو للوقف و الواحد على الحقيقة هو الله تعالى و كل مخلوق بنفسه اثنان جسم و روح و من اثنين من ذكر و أنثى و باثنين بالطعام و الشراب و في اثنين في الليل و النهار و

بين اثنين بين السماء و الأرض مع اثنين مع الشمس و القمر و لا تخلو من اثنين الحركة و السكون و كذلك من الغنى و الفقر و الصحة و المرض و النور و الظلمة و البر و البحر و الله تعالى واحد وحداني ليس معه ثاني .

و مر الحسن بن علي (عليه السلام) على قاض يقول سلوني قبل أن تفقدوني فقال دعوى لأنبهنه ثم قال له : شعرات رأسك شفع أم وتر فتحير الرجل .

فسئل الحسن (عليه السلام) عن ذلك فقال شفع لقوله وَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ و الفرد هو الذي لا شريك له .

قوله سبحانه : اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ... آية الكرسي ، رد على جميع الكفرة فالله رد على الدهرية لأن فيه إثباتا و أنهم قالوا بالنفي أصلا لا إله إلا هو رد على الثنوية لأنهم قالوا الله خالق كل الخير و إبليس خالق الشر و هو شريك الله الحي رد على من عبد صنما أو وثنا القيوم رد على أصحاب الطبائع حيث قالوا بالكمون و الظهور لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَ لا نَوْمٌ رد على من قال بإلهية عزير و عيسى و رد على جهم فإنه قال إنه عالم بعلم محدث فيجوز عليه السهو لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ رد على المفوضة أنه خلق العالم و فوض أمره إلى شخص محدث و على من قال إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَ نَحْنُ أَغْنِياءُ * مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ رد على من نفى الشفاعة يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ رد على الجبرية حيث قالوا إنه عالم بعلم و قادر بقدرة وَ لا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِما شاءَ رد على الكهنة و المنجمين فيما يعتقدونه في الكواكب وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ رد على الفلاسفة حيث قالوا العالم أرض و أفلاك فقط وَ لا يَؤُدُهُ حِفْظُهُما رد على اليهود في قولهم إن الله أعيا بخلق أولهم فاستراح يوم السبت وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ رد على الثنوية لثبوت التمانع .

قوله سبحانه : وَ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً فيكون مربوبا وَ لَمْ يَكُنْ

لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ فيكون عاجزا محتاجا إلى غيره ليعينه وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ أي لم يكن له حليف حالفه ينصره على من يناويه لأن ذلك صفة ضعيف عاجز و هذه الآية رد على اليهود و النصارى حيث قالوا اتخذ الله ولدا و على مشركي العرب حيث قالوا لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه و ما ملك و على الصابئين و المجوس حيث قالوا لو لا أولياء الله لذل الله تعالى عن ذلك علوا كبيرا و الحمد في الآية ليس هو على أن لم يفعل ذلك و إنما حمد على أفعاله المحمودة و وجه إلى من هذه صفته لا من أجل أن ذلك صفته كما تقول أنا أشكر فلانا الطويل الجميل ليس أنك تشكره على جماله و طوله بل على غير ذلك من فعله .

قوله سبحانه : وَ لِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى فَادْعُوهُ بِها و قوله قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى إنما أمره بذلك لأن مشركي قومه لما سمعوا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يدعو ربه تارة بأنه الله و تارة بأنه الرحمن ظنوا أنه إلهين حتى قال بعضهم الرحمن رجل باليمامة فأنزل الله هذه الآية احتجاجا لنبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) بذلك و أنه شيء واحد و إن اختلف أسماؤه و صفاته و قال نافع بن الأزرق لابن عباس تفتي في النملة و القملة صف لنا إلهك الذي تعبده فقال الحسن بن علي (عليه السلام) يا نافع من وضع دينه على القياس لم يزل الدهر في الارتماس مائلا عن المنهاج ظاعنا في الاعوجاج ضالا عن السبيل قائلا غير الجميل يا ابن الأزرق أصف إلهي بما وصف نفسه و أعرفه بما عرفه نفسه لا يدرك بالحواس و لا يقاس بالناس فهو قريب غير ملتصق و بعيد غير منفصل يوحد و لا يبعض معروف بالآيات موصوف بالعلامات لا إله إلا هو الكبير المتعال .

فصل :

قوله تعالى : وَ قالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً هو الغني المعنيون بذلك طائفتان أحدهما كفار العرب فإنهم قالوا الملائكة بنات الله و أخرى النصارى الذين قالوا المسيح ابن الله فكذب الفريقين فقال في العرب فَاسْتَفْتِهِمْ أَ لِرَبِّكَ الْبَناتُ وَ لَهُمُ الْبَنُونَ ... الآيات و قال قتادة و السدي كانت قريش تقول الملائكة بنات الله فنزلت الآية على وجه التقريع أن

يقول كيف يكون لربك البنات يا محمد و لهم البنون مع

قوله تعالى : إِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا و قوله أَصْطَفَى الْبَناتِ عَلَى الْبَنِينَ و من اصطفى الأدون على الأفضل مع القدرة كان ناقصا و من أين علموا أن الملائكة إناث أ شهدوا خلق الله لهم فرآهم إناثا على أنهم من إفكهم ليقولون ولد الله إنما يتخذ الولد من يجوز أن يكون مثل ذلك قد ولد و ذلك مستحيل و لذلك استهزئ بمن قال الملائكة بنات الله فقيل من أمهن و أما جواب النصارى فقد ذكرناه في الفصل الأول .

قوله سبحانه : وَ قالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ لا يجوز عليه تعالى التبني لأن التبني إقامة المتخذ لولد غيره مقام ولده لو كان له فإذا استحال أن يكون له تعالى ولد على الحقيقة استحال أن يقوم ولد غيره مقام ولده فلذلك لا يجوز أن يشبه بخلقه على وجه المجاز لما لم يكن مشبها به على الحقيقة و حقيقة الولد من ولد على فراشه أو خلق من مائه و لذلك لا يقال تبني الشاب شيخا و لا تبني الإنسان بهيمة و لما استحال أن يكون ذلك صار هذه الحقيقة مستحيلة فيه و لا يجوز أن يقال اتخذه ولدا إذا اختصه بضرب من المحبة لأن ذلك إخراج الشيء عن حقيقته كما أن تسمية ما ليس بطويل عريض عميق جسما إخراج له عن حقيقته .

قوله سبحانه : وَ اتَّخَذَ اللَّهُ إِبْراهِيمَ خَلِيلًا أما الخلة فقد جازت عليه تعالى لأحد شيئين أحدهما أن الخلة إخلاص المودة التي توجب الاختصاص بتخلل الأسرار فلما جاز أن يطلع الله تعالى إبراهيم (عليه السلام) على أمور لا يطلع عليها غيره تشريفا اتخذه خليلا على هذا الوجه و الثاني أن الخلة بالفتح هي الحاجة قال زهير و إن أتاه خليل يوم مسغبة و إنما اختص إبراهيم (عليه السلام) بذلك لانقطاعه عن الخلق و توكله على الخالق .

فصل :

قوله تعالى : قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَ

لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ الإيمان هو التصديق بالقلب و لا اعتبار بما يجري على اللسان و هو في وضع اللغة التصديق و ليس باسم لأفعال الجوارح يقال فلان يؤمن بكذا و قال الله تعالى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً و قال يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَ الطَّاغُوتِ و قال وَ ما أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنا وَ لَوْ كُنَّا صادِقِينَ أي بمصدق في الحق و قال مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسابِ و قال وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ و قال إِذا جاءَكَ الْمُنافِقُونَ قالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ كذبهم الله مع إظهار الشهادة و قال الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ و قال وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يُهاجِرُوا ما لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ أخبر أنهم مؤمنون و إن لم يهاجروا و قال وَ مَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحاتِ يدل على أنه يكون مؤمنا و إن لم يعمل الصالحات و قال إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فرق بين الإيمان و الأعمال و قال وَ إِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا إلى قوله إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ فسماهم في حال البغي و المعصية إخوة للمؤمنين و قال كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكارِهُونَ يُجادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ ما تَبَيَّنَ كَأَنَّما يُساقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ حكى عنهم كراهة الحق و الجدال فيه بعد وضوحه مع تسميتهم بالإيمان و قال مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صالِحاً العمل لا يطلق إلا على أفعال الجوارح لأنهم لا يقولون عملت بقلبي و إنما يقولون عملت بيدي أو برجلي ثم إن هذا مجاز يحمل على الضرورة و كلامنا مع الإطلاق قال سعيد بن جبير جاء بنو أسد إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في سنة جدبة و أظهروا الإسلام يطلبون الخير فأخبر الله سبحانه بذلك ليكون معجزة له فقال قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا أي خضعنا للإسلام و هو الاستسلام .

أنس قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : الإسلام قبل الإيمان و عليه يتوارثون و يتناكحون و الإيمان عليه يثابون .

قوله سبحانه : فَأَخْرَجْنا مَنْ كانَ فِيها مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَما وَجَدْنا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ و قوله وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ و قوله إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ يدل على أن الإسلام هو الإيمان على الحقيقة و متى عرى عنه كان مجازا .

قوله سبحانه : فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِناتٍ و قوله فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ إنما أراد من أظهر الإيمان فقط .

[١١٠]

قوله سبحانه : وَ ما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ قال ابن عباس و مجاهد و قتادة و ما يؤمن أكثرهم بالله في إقراره بأنه الخالق إلا و هو مشرك بعبادة الأوثان تقديره أنهم ما يصدقون بعبادة الله إلا و هم يشركون الأوثان معه في العبادة و قال الرماني لا تنافي بين أن يؤمنوا بالله من وجه و يكفروا به من وجه آخر كما قال أَ فَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتابِ وَ تَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ و أنكره البلخي و قال إنما هو في المنافقين يؤمنون في الظاهر و يشركون في الباطن و المعنى الصحيح أنه لا يؤمن أكثرهم إلا و أشرك في توحيده و عدله .

فصل :

قد استدلت المعتزلة على أن الطاعات من الإيمان بآيات منها

قوله تعالى : وَ ما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفاءَ وَ يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَ يُؤْتُوا الزَّكاةَ وَ ذلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ و لفظة ذلك عبارة عن الواحد فكيف يكون عبارة عن جميع ما تقدم ثم إن لفظة ذلك كناية عن التذكير و العبادات التي تقدم ذكرها إنما يشار إليها بلفظه تلك و ينبغي أن يكون عدة الشهور في قوله إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنا عَشَرَ شَهْراً من الدين .

و منها

قوله سبحانه : بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمانِ لا يدل على بطلان حكم الإيمان و ارتفاع التسمية به و قد قال تعالى وَ ما تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ و معلوم أن التفرقة لما حدثت بعد البينة لم تبطل حكم البينة بل كانت ثابتة على ما كانت عليه و إنما أراد تعالى بعد مجيء البينة ثم إن هذا الاستدلال مبني على القول بالعموم و نحن نخالف فيه و إذا جاز أن يكون لفظ الفسوق مخصوصا جاز أن يحمل على حكم الفسوق .

و منها

قوله سبحانه : وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمانَكُمْ أراد به التصديق الذي لا يعرف القوم في الإيمان سواه و القرآن غير ناطق بأن الإيمان المراد به الصلاة و لا معول في مثل ذلك على أخبار آحاد .

[١١١]

و منها

قوله سبحانه : إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ... الآية لا يقتضي نفي اسم الإيمان عمن لم يكن بالصفات المذكورة فيها و إنما يقتضي التفضيل و التعظيم فكأنه تعالى قال إنما أفاضل المؤمنين و خيارهم من فعل كذا و كذا كما يقول الرجل من يضبط نفسه عند الغضب و إن كان من لا يفعل ذلك لا يخرج من أن يكون رجلا .

قوله سبحانه : حَتَّى إِذا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ كان ذلك إيمان إلجاء لا يستحق به الثواب كما لا يستحق بالإيمان الضروري و هذا كقوله فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا .

قوله سبحانه : فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَ لا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ إنما لا يقبل معذرتهم لأنهم ملجئون في تلك الحال و لا هم يستعتبون أي لا يقبل عتبهم و لا يقبل منهم الإعتاب .

فصل :

و قد تعلقت الخوارج في تكفير كل عاص بآيات منها

قوله تعالى : وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ لفظة من يعم و يخص و إنما يعلم أحدهما بدليل .

و منها

قوله سبحانه : فَأَنْذَرْتُكُمْ ناراً تَلَظَّى لا يَصْلاها إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَ تَوَلَّى هذه الآية إنما يستفاد بظاهرها أن النار المتلظية الموصوفة في الآية لا يصلاها إلا من كذب و تولى فليدلوا بعد ذلك على أنه لا نار لله سوى هذه النار الموصوفة .

و منها

قوله سبحانه : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبَرَةٌ لا يدل على أن هناك وجوه أقوام ليست بهذه الصفة بل بصفة أخرى إما أن يكون عليها غبرة بل سمة أخرى أو بأن يكون عليها غبرة و لا تلحقها قترة و لو دل ذلك على ما قالوه لوجب أن يدل قوله يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَ تَسْوَدُّ وُجُوهٌ على أن كل من لا يبيض وجهه من المؤمنين يجب أن يكون مرتدا

لأنه تعالى قال لهم أَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ و الخوارج لا تقول ذلك لأن من المعلوم أن هاهنا كفارا من الأصل ليسوا بمرتدين عن الإسلام .

و منها

قوله سبحانه : يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَ تَسْوَدُّ وُجُوهٌ ليست من ألفاظ العموم عند أحد فغير ممتنع أن يكون الله تعالى أراد بعضها أو أراد سوادا مخصوصا يلحق الوجوه و إن لم يكن لاحقا بها .

و منها

قوله سبحانه : وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ لا يمتنع من أن تكون محيطة بغيرهم أيضا و منها

قوله سبحانه : وَ هَلْ نُجازِي إِلَّا الْكَفُورَ لو اقتضى نفي المجازاة عمن ليس بكفور لاقتضى أن يكون المؤمن غير مجاز بإيمانه و طاعته و يمكن أن يحمل الجزاء على الاصطلاح في الدنيا لأن الله تعالى أجرى العادة أن يعاقب بهذا الضرب من جزاء الكفار دون غيرهم كما قال فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَ بَدَّلْناهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ... الآية و منها

قوله سبحانه : لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ و المؤمن عندنا لا يجوز أن يكفر لأنه يؤدي إلى اجتماع استحقاق الثواب الدائم و العقاب الدائم معا لبطلان التحابط و الإجماع يمنع من ذلك فالوجه فيه لا تعتذروا المعاذير الكاذبة فإنكم بما فعلتموه قد كفرتم بعد أن كنتم مظهرين الإيمان الذي يحكم لمن أظهره أنه مؤمنين .

و منها

قوله سبحانه : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً المراد به من أظهر الإيمان و ليس كل من أظهر الإيمان يكون مؤمنا على الحقيقة في باطنه عند الله تعالى لجواز أن يكون ما أظهره نفاقا واقعا عن تقليد و الثواب إنما يستحق بالإيمان الحقيقي أو يكون بحكم الظاهر كما قال فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِناتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ و كما قال فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ .

و منها

قوله سبحانه : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً قال الحسن و قتادة و عطا نزلت في اليهود كفروا بعيسى و الإنجيل ثم ازدادوا كفرا بمحمد و القرآن قال أبو العالية نزلت في اليهود و النصارى كفروا بمحمد بعد إيمانهم بنعته

و صفته ثم ازدادوا كفرا بإقامتهم على كفرهم .

و منها

قوله سبحانه : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ أي الذين آمنوا باللسان ظاهرا آمنوا بالجنان باطنا قال مجاهد و ابن زيد يعني بذلك أهل النفاق إنهم آمنوا ثم ارتدوا ثم آمنوا ثم ارتدوا ثم ازدادوا كفرا على كفرهم و قال قتادة عنى بذلك الذين آمنوا بموسى ثم كفروا به بأن عبدوا العجل ثم آمنوا يعني النصارى آمنوا بعيسى ثم كفروا به ثم ازدادوا كفرا بنبوة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) و الأول أقوى و يكون خطابا للمنافقين و قال الجبائي و البلخي و الزجاج الخطاب لجميع المؤمنين أمرهم الله تعالى بأن يؤمنوا به في المستقبل بأن يستديموا الإيمان و لا ينتقلوا عنه لأن الإيمان الذي هو التصديق لا يبقى و إنما يستمر بأن يجدده الإنسان حالا بعد حال و هذا وجه جيد .

و منها

قوله سبحانه : إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلى أَدْبارِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ليس فيها ما يدل على أن المؤمن على الحقيقة يجوز أن يكفر لأنه لا يمتنع أن يكون المراد من رجع عن إظهار الإيمان بعد وضوح الأمر فيه و قيام الحجة عليه بالصحة .

و منها

قوله سبحانه : لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جُناحٌ فِيما طَعِمُوا إِذا مَا اتَّقَوْا وَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَ آمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَ أَحْسَنُوا الإيمان الأول هو التصديق و الإيمان الثاني هو الاطمينان إلى الصواب بفعله مع الثقة به .

و منها

قوله سبحانه : الَّذِينَ آمَنُوا وَ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ و في موضع إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ المراد بالأول أنه يذكر ثوابه و إنعامه فيسكن إليه و الثاني يذكر عقابه و انتقامه فيخافه و يجل قلبه .

باب ما يدخل في أبواب العدل

مذهب الجبر ينافي الأصول الخمس أ لا ترى أنه يؤدي إلى فساد معرفة شيء من طريق الاكتساب و معرفة الصانع و الملائكة و الرسل و الكتب و اليوم الآخر و ارتفاع الأمر و النهي و بطلان التكليف و زوال الحمد و الذم و سقوط الثواب و العقاب و إذ لم تقع معرفة

[١١٤]

من طريق الاكتساب و الاستدلال فالأدلة باطلة و المعجزات عبث و الهداية فاسدة لأن من جبر على معرفة الحق يعرفه ضرورة و من جبر على معرفة الباطل لم يعرفه بالاستدلال و الاكتساب و إذا فقد الاستدلال فقد معرفة الصانع لحصولها بالاستدلال و هو مبني على أن الفعل في الشاهد متعلق بالفاعل و إذا فسد الأصل لم يكن إلى إثباته سبيل و النبوات إنما تعلم من طريق الاكتساب بأن يظهر الله على أيديهم المعجزات و إذا فسد الأصل فسد الفرع و متى ما صح بطل التكليف و الأمر و النهي و الحمد و الذم و الثواب و العقاب و متى ما بطل ذلك بطلت النبوات رأسا لأنها مبنية على هذه الأصول و إن الله تعالى إذا خلق بعضهم كفارا و بعضهم مؤمنين و لا يقدران على التغيير فلما ذا يبعث الأنبياء و إذا جاز أن يضل الله الحق جاز أن يبعث من يضلهم عنه فلم يؤمن أن يكون داعيا إلى الضلال و إذا كان جميع الأفعال لله فبأي شيء يؤمر و ينهى و يكلف و يحث و يرغب و يرهب و هو لا يقدر على تقديم و تأخير و لا نقض و إبرام و لا فعل و ترك و لئن جاز تكليف من هذا حاله جاز تكليف الجماد و إن الله تعالى فرق بين فعل نفسه و فعل خلقه فقال هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كافِرٌ وَ مِنْكُمْ مُؤْمِنٌ * إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَ إِمَّا كَفُوراً * وَ قُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَ مَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ * قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها .

و قد ألزم على أفعالهم فقال إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها * مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَساءَ فَعَلَيْها * وَ مَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ * مَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ * قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ عَمِيَ فَعَلَيْها * مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَ مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ .

ذكر أن الجزاء بالأعمال فقال فَكُلًّا أَخَذْنا بِذَنْبِهِ * مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزى إِلَّا مِثْلَها * فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِما عَمِلُوا وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ * فَأُولئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ * لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَساؤُا بِما عَمِلُوا وَ يَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى * وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى * وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى وَ أَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى * وَ ما ظَلَمْناهُمْ وَ لكِنْ كانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ * فَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * ما يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَ آمَنْتُمْ * فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلًا * فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ مَآباً و فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ

[١١٥]

وَ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً * وَ هَلْ نُجازِي إِلَّا الْكَفُورَ * جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ * جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ * ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَساؤُا بِما عَمِلُوا * لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ .

و يجزيهم أسوأ الذين عملوا وَ لا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْها * لَها ما كَسَبَتْ وَ عَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ * وَ ما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ .

و أضاف أفعالهم إلى أعضائهم فقال يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ * فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ * وَ لا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ * ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ * ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ يَداكَ * وَ ما تُخْفِي الصُّدُورُ * يَتَمَتَّعُونَ وَ يَأْكُلُونَ كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ .

و أمرهم بالأوامر فقال آمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ * أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ * أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ * وَ أْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوابِها * وَ اسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَ أَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَ رَجِلِكَ وَ شارِكْهُمْ فِي الْأَمْوالِ وَ الْأَوْلادِ وَ عِدْهُمْ * اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ * وَ لِيَقْتَرِفُوا ما هُمْ مُقْتَرِفُونَ * اصْبِرُوا وَ صابِرُوا وَ رابِطُوا * وَ اقْتُلُوهُمْ وَ احْصُرُوهُمْ وَ اقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ وَ افْعَلُوا الْخَيْرَ * تُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً * اتَّقُوا اللَّهَ وَ قُولُوا قَوْلًا سَدِيداً .

و نهاهم بالنواهي فقال وَ لا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ * وَ لا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِراطٍ تُوعِدُونَ وَ تَصُدُّونَ * وَ لا تَكْتُمُوا الشَّهادَةَ * لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَ لا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ لا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ * وَ لا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ * وَ لا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ * وَ لا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هذا حَلالٌ وَ هذا حَرامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ * وَ لا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ * وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * وَ لا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً * وَ لا تَبْسُطْها كُلَّ

الْبَسْطِ * وَ لا تَكُنْ لِلْخائِنِينَ خَصِيماً * وَ لا تَتَّبِعِ الْهَوى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ * وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ .

و وصف المحسنين بأفعالهم فقال قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * التَّائِبُونَ * الْعابِدُونَ * إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَ الْمُسْلِماتِ * مُسْلِماتٍ مُؤْمِناتٍ قانِتاتٍ تائِباتٍ عابِداتٍ * إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَ يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ * إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُحْسِنِينَ كانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ ما يَهْجَعُونَ وَ بِالْأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَواحِشَ * وَ إِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ * و لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا * لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ .

و عنف المجرمين و ذكر عقوبتهم فقال السَّارِقُ وَ السَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُما جَزاءً بِما كَسَبا نَكالًا مِنَ اللَّهِ * الزَّانِيَةُ وَ الزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ واحِدٍ مِنْهُما مِائَةَ جَلْدَةٍ * وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ * وَ مَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ * وَ بَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَ

[١١٦]

حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ

إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ .

و صرح بمعتقد الأنبياء (عليهم السلام) فقال عن آدم رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا .

و عن نوح رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي .

و عن موسى رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي .

و عن إبراهيم أَ أَنْتَ فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنا يا إِبْراهِيمُ .

و عن يعقوب سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً .

و عن يوسف إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ وَ اتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائِي .

و عن داود لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ إِلى نِعاجِهِ .

و عن سليمان رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ هَبْ لِي مُلْكاً .

و عن عيسى ما قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا ما أَمَرْتَنِي بِهِ .

و عن نبينا (صلى الله عليه وآله وسلم) قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّما أَضِلُّ عَلى نَفْسِي وَ إِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِما يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي .

و عن الملائكة أَ تَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَ يَسْفِكُ الدِّماءَ وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَ نُقَدِّسُ لَكَ .

و نسب الكفر إليهم ظاهرا فقال وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً * وَ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ الْجِنَّ * وَ خَلَقَهُمْ وَ خَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَ بَناتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ * وَ جَعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ * وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ و أشباه ذلك .

و حكى مقالة الكفار فقال فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَ وَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ * وَ إِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتابِ وَ ما هُوَ مِنَ الْكِتابِ وَ يَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ ما هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ * وَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً قالُوا وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا وَ اللَّهُ أَمَرَنا بِها قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ أَ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنا وَ لا آباؤُنا وَ قالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ * وَ قالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ * وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَ نُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ .

و ذكر امتناعهم عن الحق فقال وَ لَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَ كَلَّمَهُمُ الْمَوْتى وَ حَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا * وَ لَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ بِكُلِّ آيَةٍ ما تَبِعُوا قِبْلَتَكَ * وَ إِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْراضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّماءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ **يعني** تلجيئهم إلى الإيمان و على ترك الكفر ما فعل ذلك و قوله أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ .

افتتح القرآن بالعدل فقال الْحَمْدُ لِلَّهِ أي قل الحمد لله و اختم به فقال قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ و ألبسه ابن الحباب .

إن كان يجزى بالخير فاعله *** شرا أو يجزى المسيء بالحسن

فويل لتالي القرآن في ظلم *** الليل و طوبى لعابد الوثن

فصل :

و قلتم إن من الله جور الجابرين و فساد المعتدين فهو عندكم المريد لشتمه و لقتل أنبيائه و لعنة أوليائه و إنه أمر بالإيمان و لم يرده و نهى عن الكفر و أراده و إنه قضى بالجور و الباطل ثم أمر عباده بإنكار قضائه و قدره و إنه المفسد للعباد و المظهر في الأرض الفساد صرف الناس عن الإيمان و أمرهم به و إنه يعذب أطفال المشركين بذنوب آبائهم و استبطأهم إن لم يفعلوا ما لا يقدرون عليه فقال كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ و إنه صرف أكثر خلقه عن الإيمان ثم قال فَأَنَّى تُصْرَفُونَ و أفكهم و قال أَنَّى يُؤْفَكُونَ و خلق فيهم الكفر ثم قال لِمَ تَكْفُرُونَ و لبس الحق عليهم بالباطل ثم قال لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْباطِلِ و إنه دعا إلى الهدى ثم صد عنه و قال لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ و إنه منع العباد من الإيمان و قال وَ ما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى و خلق فيهم الكفر و قال فَما لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ و إنه حال بينهم و بين الطاعة ثم قال وَ ما ذا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ و إنه ذهب بهم عن الحق ثم قال فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ و إنه لم يمكنهم من الإيمان و لم يعطهم قوة السجود ثم قال فَما لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ * وَ إِذا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ و إنه فعل بعباده الإعراض عن التذكرة ثم قال فَما لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ و إنه يمكر بأوليائه المحسنين و ينظر لأعدائه المشركين لأن العبد عندهم مجتهد في طاعته فبينا هو كذلك و على ذلك إذ خلق فيه الكفر و نقله مما يحب إلى ما يسخط و بينما عنده مجتهد في الكفرية و التكذيب له إذ نقله من الكفر إلى الإيمان فهو عندهم لعدوه أنظر منه لوليه فليس يثق وليه بولايته و لا يرهب عدوه من عداوته و إنه يقول للرسل اهدوا إلى الحق من أضللت عنه و انهوا عبادي أن يفعلوا ما شئت و أردت و أمروه أن يرضوا بما قضيت و قدرت لأنه عندهم شاء الكفر و أراد الفجور و قضى الجور و قدر الخيانة .

الصاحب :

و إن سقت ما قالوه في الجبر ضلة *** خشيت جبال الأرض منه تهدد

فهذا يقول الله يخلق نسبه *** ليشتم كلا فهو أعلى و أمجد

و قالوا أراد الكفر و الفسق و الزناء *** و قتل النبيين الذين تعبدوا

[١١٨]

و كلف ما لم يستطع فعل محنق *** على عبده ما شاء ما يتردد

و عاقبه عن تركه الفعل لم يطق *** عقابا له بين الجحيم يخلدوا

يقولون عدلا إن يكلف مقعدا *** قياما و عدوا مسرعا و هو مقعد

فصل :

قوله تعالى : وَ قَدْ كانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَ هُمْ سالِمُونَ .

سئل الصادق (عليه السلام) عن هذه الآية فقال : مستطيعون يستطيعون الأخذ بما أمروا به و الترك عما نهوا عنه و بذلك ابتلوا .

و قال أمير المؤمنين (عليه السلام) : ما أحسنت إلى أحد و لا أسأت إليه لأن الله تعالى يقول مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَساءَ فَعَلَيْها .

قوله سبحانه : فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أي أظلم لنفسه ليخرص على الله كذبا و يضيف إليه ما لا أصل له . s

أبو هريرة قال قام رجل من خثعم إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال يا رسول الله متى يرحم الله عباده قال : يرحم الله عباده ما لم يعملوا بالمعاصي ثم يقولوا هي من الله .

أنس قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : سيأتي أقوام يعملون بالمعاصي و يقولون هي من الله فإذا رأيتموهم فكذبوهم ثلاث مرات .

أبو الصلت الهروي عن الرضا عن أبيه عن الصادق (عليه السلام) و قد سئل عن ذنوبنا و ذنوب غيرنا فقال (عليه السلام) : لَيْسَ بِأَمانِيِّكُمْ وَ لا أَمانِيِّ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ .

و سئل الصادق (عليه السلام) عن أفعال العباد فقال : كل ما وعد الله و توعد عليه فهو من أفعال العباد .

و سئل الرضا (عليه السلام) فقال أ هي مخلوقة لله فقال : لو خلقها لما تبرأ منها و قد قال الله أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَ رَسُولُهُ و لم يرد البراءة من خلق ذواتهم و إنما تبرأ من شركهم و فضائحهم .

قوله سبحانه : الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ معناه أعطيناهم كل ما لا يصح الفعل إلا معه لأن التمكين إعطاء ما يصح معه الفعل فإن كان الفعل لا يصح إلا بعلم فالتمكين بإعطاء تلك الآلة لمن فيه القدرة و كذلك إن كان لا يصح الفعل إلا بآلة بعلم و نصب دلالة و صحة و سلامة و لطف و غير ذلك فإعطاء جميع ذلك و إن كان الفعل يكفي في صحة وجوده مجرد القدرة فخلق القدرة هو التمكين .

[١١٩]

و اتصل بأمير المؤمنين (عليه السلام) إن قوما من أصاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) خاضوا في التعديل و التجوير فقال أيها الناس إن الله لما خلق خلقه أراد أن يكونوا كذلك إلا بأن يعرفهم ما لهم و ما عليهم و التعريف لا يكون إلا بالأمر و النهي و الأمر و النهي لا يجتمعان إلا بالوعد و الوعيد و الوعد لا يكون إلا بالترغيب و الوعيد لا يكون إلا بضد ذلك ثم خلقهم في داره و أراهم طرفا من اللذات الخالصة التي لا يشوبها ألم إلا و هي الجنة و أراهم طرفا من المكاره التي لا يشوبها لذة إلا و هي النار فمن أجل ذلك ترون نعيم الدنيا مخلوطا بمحنها و سرورها ممزوجا بكدرها و غمومها .

و سمع الجاحظ هذا الحديث فقال : هو جماع الكلام الذي دونه الناس في كتبهم و تحاورهم بينهم ثم سمع أبو علي الجبائي فقال صدق الجاحظ هذا ما لا يحتمله الزيادة و النقصان .

العوني :

كيفوا من خلق الكيف فبئس الواصفونا *** ثم قالوا جبر الخلق على ما يفعلونا

فهم بالخير و الشر معا مستمعونا *** فعلى ما ذا يثابون و عما يسألونا

لم هذا بعذاب يوعد المستهزءينا *** أ يجور الله في الحكم و أنتم تعدلونا

جل رب الناس عن ذاك و ذل المجبرونا

فصل :

قوله تعالى : ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ و ما فيه تفاوت من الكفر و المعاصي ليس من خلق الله لأنه نفى نفيا عاما أن يكون فيما خلقه تفاوت و قال تعالى الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ و الكفر ليس بحسن و لا فعل متقن و قال تعالى الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ أي أوجد فيه وجها من وجوه الحكمة عريا من سائر القبائح و قال تعالى وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ قال الحسن و البلخي و الجبائي و الزجاج و الطبري معناه خلقهما للحق لا للباطل و قال تعالى وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما باطِلًا يدل على بطلان قول المجبرة إن كل باطل و سفه و ما يخالف الحكمة من فعل الله تعالى عن ذلك ثم قال ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا و وجدنا من الأفعال ما هو ظلم و عبث و فاعل الظلم ظالم و فاعل الفساد مفسد و فاعل العبث عابث و وجدنا أيضا في الأفعال ما هو طاعة و خضوع و فاعل الطاعة مطيع و فاعل الخضوع خاضع و لا يجوز أن يكون الله تعالى مطيعا و لا خاضعا و تعلق الصاحب بتفاحة على شجرة و أخذ نصفها

و بقي النصف عليها فقال له أبو إسحاق الأسفرائني عندك القادر على الشيء ينبغي أن يكون قادرا على ضده فقال الصاحب كما قدرت على أخذها أقدر على ردها إلا أن الرطوبة خارجة عنها فلا يتقبل .

و قال أبو حنيفة رأيت موسى بن جعفر (عليه السلام) و هو صغير السن في دهليز أبيه فقلت أين يحدث الغريب منكم إذا أراد ذلك فنظر إلي ثم قال : يتوارى خلف

الجدار و يتوقى أعين الجار و يجتنب شطوط الأنهار و مساقط الثمار و أفنية الدور و الطرق النافذة و المساجد و لا يستقبل القبلة و لا يستدبرها و يضع و يرفع بعد ذلك حيث شاء فلما سمعت هذا نبل في عيني و عظم في قلبي فقلت له جعلت فداك ممن المعصية فنظر إلي ثم قال اجلس حتى أخبرك فجلست فقال إن المعصية لا بد أن تكون من العبد أو من ربه أو منهما جميعا فإن كان من الله تعالى فهو أعدل و أنصف من أن يظلم عبده و يأخذه بما لم يفعله و إن كانت منهما فهو شريكه و القوي أولى بإنصاف عبده الضعيف و إن كانت من العبد وحده فعليه وقع الأمر و إليه توجه النهي و له حق الثواب و العقاب و وجبت الجنة و النار فقلت ذُرِّيَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

و نظم في هذا المعنى :

لم تخل أفعالنا اللاتي نذم بها *** إحدى ثلاث خصال حين نأتيها

أما تفرد بارينا بصنعتها *** فيسقط اللؤم عنا حين ننشيها

أو كان يشركنا فيها فيلحقه *** ما سوف يلحقنا من لائم فيها

أو لم يكن لإلهي في جنايتها *** ذنب فما الذنب إلا ذنب جانيها

سيعلمون إذا الميزان شال بهم *** أ هم جنوها أم الرحمن جانيها

فصل :

قوله تعالى : سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنا لَخَرَجْنا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ سأل غيلان العبدي أبا الهذيل عن الاستطاعة فقال خبرني عن هذه الآية هل يخلو من أن يكون أكذبهم لأنهم مستطيعون للخروج و هم تاركون له فاستطاعة الخروج فيهم و ليس يخرجون لقوله إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ أي هم يستطيعون الخروج و هم يكذبون فيقولون لسنا نستطيع و لو استطعنا لخرجنا فأكذبهم الله على هذا الوجه أو يكون على وجه آخر يقول إنهم لكاذبون أي إنني أعطيهم الاستطاعة و لم يخرجوا فتكون معهم الاستطاعة على الخروج و لا يكون الخروج و لا يعقل للآية معنى ثالث و قيل للنظام

إن كانت الاستطاعة لك فخذ لنا هذا العصفور فقال هذا من استطاعة الباشق و اليؤيؤ لا من استطاعتي و قال الكتبي لا أقدر

[١٢١]

على شيء و لا أملك أحدا فقال الشيخ المفيد أ حكمي حكمك على ما لا تملك قال نعم قال فرقت مالك على المساكين و طلقت زوجتك و أعتقت عبدك و وقفت ملكك و أتي بطرار أحول إلى والي البصرة فسأل عن الحكم فقال جبري يضرب خمسة عشرة درة و قال أبو عبد الرحمن بل ثلاثين خمسة عشرة لطره و خمسة عشرة لحوله فقال يا أبا عبد الرحمن لأضرب على الحول قال نعم إذا كانا جميعا من فعل الله فما جعل الضرب على الطر بأحق منه على الحول و قال رجل لأبي الهذيل من جمع بين الزانيين يا أبا الهذيل فقال يا ابن أخي أما بالبصرة فإنهم يقولون القوادون و لا أحسب أهل بغداد يخالفونهم في هذا القول فما تقول أنت فخجل الرجل و قال أبو العتاهية لتمامة و حرك يده من حرك هذا قال ملعون من الملاعين فغضب من قوله فقال إن لم يكن فعلك فما هذا الغضب و قيل لتمامة أ ترضى بمن خلق المعاصي ربا قال لا و لا عبدا و رفع إلى عياش برجل رمى فشج رأس بعضهم فقال له لم رميته فقال وَ ما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ رَمى فضربه مائة سوط و قال و ما ضربت إذ ضربت و لكن الله ضرب و نزل أبو الأسود الدؤلي في بني قشير فرجموه بالليل فاشتكى منهم فقالوا الله رجمك فقال لا تكذبوا على الله فلو أن الله رماني لما أخطأني .

ثم قال في ذلك :

رماني جاري ظالما برمية *** فقلت له مهلا فأنكر ما أتى

و قال الذي يرميك ربك جازيا *** بذنبك و الحوبات تعقب ما ترى

فقلت له لو أن ربي رمية *** رماني لما أخطى إلهي ما رمى

جزى الله شرا كل من نال سوءة *** و ينجل فيها ربه الشر و الأذى

و قال يزيد لعلي بن الحسين (عليه السلام) طلب أبوك شيئا لم يكن له بأهل فقتله الله على يدي من كان له أهلا فما ذنبي في ذلك فقال (عليه السلام) : قال الله أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ أ فتراه أنه لعن قاتله أم نفسه فبهت .

الصاحب :

زعم الرجال المجبرون بأنما *** قتل الحسين قضت به الأقدار

فعلام يلعن قاتلوه و إنما *** قتل الحسين قضي بالجبار

و ناظر أبو علي الجبائي في حال صباه صقرا فقال : ما تقول إن الله تعالى يخلق العدل قال نعم قال أ فتسميه بفعله العدل عادلا قال نعم قال أ تقول إنه يخلق الجور قال نعم قال مما أنكرت أن يكون بفعله الجور جائرا قال لا يصح ذلك قال مما أنكرت أن لا يكون بفعله العدل عادلا فانقطع صقر فجعل الناس يقولون من هذا الصبي فقيل غلام من أهل جبا فنسب إليه و كان مجبر

[١٢٢]

يسأل أصحاب بشر بن المعتمر و يقول أنتم تحمدون الله على إيمانكم فهم يقولون نعم فيقول فكأنه يجب أن يحمد على ما لم يفعل و قد قال وَ يُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِما لَمْ يَفْعَلُوا فيقولون له إنما ذم من أحب أن يحمد بما لم يفعل مما لم يعز عليه و لم يدع إليه و هو يشغب إذا قيل ثمامة بن أشرس فقال بشر دونك الرجل فسله فسأله عن المسألة فقال هل يجب عليك أن تحمد الله على الإيمان قال لا بل هو يحمدني عليه لأنه أمرني به ففعلته و أنا أحمده على الأمر به و التقوية عليه فانقطع المجبر فقال بشر شنعت فسهلت و قال المأمون لثنوي خبرني هل ندم مسيء قط على إساءة قال نعم قال فالندم على الإساءة إحسان أو إساءة قال إحسان قال فالذي ندم هو الذي أساء أو غيره قال هو الذي أساء قال فأرى صاحب الخير هو صاحب الشر و قد بطل قولكم إذا الذي ينظر نظر الوعيد هو الذي ينظر نظر الرحمة قال فإني أزعم أن الذي أساء غير الذي ندم قال فهذا الذي ندم على شيء كان منه أم من غيره فأفحمه .

و أنشد ذو الرمة :

و عينان قال الله كونا فكانتا *** فعولان بالألباب ما تفعل الخمر

فقيل له فعولين خبر الكون فقال لو سبحت ربحت و إنما قلت و عينان فعولان و صفتها بذلك و إنما تجوز بذلك من الجبر .

فصل :

قوله تعالى حكاية عن الكفار ما كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ فكذبهم الله تعالى بَلى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ يعترف إبليس بعصيانه يوم القيامة و يقول إِنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ و يعاند الجبري فيقول وَ اللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ فينطق أعضاءه يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ و يقول إبليس وَ ما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ و يقول قرينه من الجن و الإنس أو الملائكة رَبَّنا ما أَطْغَيْتُهُ وَ لكِنْ كانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ و قالت الكفرة ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ * هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ و الجبرية تضيف كل سيئة إليه وَ قالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ و قالت المشبهة كلتا يديه يمين و قالت النصارى إِنَّ اللَّهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ و قالت المجبرة تاسع تسعة و قالت المشركون بنات الله و قالت الجبرية صفات الله قديمة زعم المجبر أنه لا يقدر على تحريك ريشة ثم يعمل بالاختيار و النص و الشورى أول من أظهر الجبر في هذه الأمة معاوية ذلك أنه خطب فقال يا أهل الشام أنا خازن من خزان ربي أعطي

[١٢٣]

من أعطاه الله و أمنع من منعه الله بالكتاب و السنة فقام أبو ذر رحمة الله عليه و قال كذبت و الله إنك لتعطي من منعه الله بالكتاب و السنة و تمنع من أعطاه الله فقام عبادة بن الصامت ثم أبو الدرداء و قالا صدق أبو ذر صدق أبو ذر فنزل معاوية عن المنبر و قال فنعم إذا فنعم إذا و في رواية أنه خطب فقال قال الله تعالى وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ فلا نلام نحن فقام الأحنف فقال إنا و الله لا نلومك على ما في خزائن الله و لكن نلومك على ما أنزل الله علينا من خزائنه و أغلقت بابك علينا دونه .

شاعر :

إذا أعطى تمير حين يعطي *** و إن لم يعط قال أبا القضاء

يبخل ربه سفها و جهلا *** و يعذر نفسه فيما يشاء

أبو محمد الحسن بن أحمد الحسيني :

زعم السفيه و من يضاهي قوله *** إن الكبائر من فعال الخالق

إن كان حقا ما يقول فلم قضى *** حد الزناة و قطع كف السارق

الصاحب :

المجبرون يجادلون بباطل *** و بغير ما يجدون في القرآن

كل مقالة الإله أضلني *** و أراد أمرا كان عنه نهاني

أ يقول ربكم لقوم آمنوا *** عمدا و ينهاهم عن الإيمان

إن كان ذا فتعوذوا من ربكم *** و دعوا تعوذكم من الشيطان

غيره :

إياك و الجبر أن تدين به *** فإن بالجبر قالت الفسقة

فنزه الله عن محارمه و لا *** تكن من أولئك الطبقة

لو كان قد قدر الزناء لما *** قدر حد الزناء و السرقة

فقال من يسرق اقطعوا يده *** و قال في الملحد اضربوا عنقه

فصل :

قوله تعالى : مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ الهدى الإرشاد و أصله الطريق يقال هداه الطريق و للطريق و إلى الطريق و لذلك سمى لكل مرشد هاديا قوله في التوراة وَ جَعَلْناهُ هُدىً و في القرآن هُدىً لِلْمُتَّقِينَ و للنار أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً و بمعنى الدلالة و البرهان إذا أدى إلى ذلك و كان مقيدا مقرونا بها قوله اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ * وَ إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ * وَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ و بمعنى النجاة و الثواب إذا أطلق

قوله وَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمالَهُمْ أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللَّهُ و هذا بعد القتل و قوله يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمانِهِمْ وَ أَصْلَحَ بالَهُمْ بالجنة و بمعنى الوصف بذلك و الحكم به عليه قوله أَ تُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ يعني تسموا مهتديا من قد سماه الله ضالا .

الشاعر :

ما زال يهدي قومه و يضلنا *** جهلا و ينسبنا إلى الكفار

و بمعنى زيادة الألطاف و ذلك أنه يلطف لمن علم أنه مؤمن فيأتيه من الأسباب ما يعلم أنه يؤمن لسببه قوله وَ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنابَ * وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ * وَ الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ و بمعنى البيان و التعريف قوله إِنَّ عَلَيْنا لَلْهُدى * إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ * وَ هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ و أما قول المجبرة إنه بمعنى خلق الإيمان فيهم أو بأن يخلق ما يوجب ذلك من قدره و غيرهما أو يحملهم على ذلك جبرا أو ما جرى مجراه ففاسد لأنه لا يقول أهل اللغة لمن حمل غيره على سلوك الطريق جبرا إنه هداه إليه و إنما يقال رده إلى الطريق و حمله عليه و أكرهه و أمثال ذلك و يجوز هداه الله بمعنى التمكين أو ما يجري مجراه لأنه لا يصح التكليف إلا مع البيان .

و لنا :

و من يهتدي يرشد و من يلق ربه *** بكفر من الأحزاب فالنار موعده

قوله سبحانه : إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَ إِمَّا كَفُوراً المعنى إما أن يختار بحسن اختياره الشكر لله تعالى فيصيب الحق و إما أن يكفر نعمة فيكون ضالا عن الصواب و ليس المعنى أنه مجبر في ذلك و إنما خرج مخرج التهديد كقوله فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَ مَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ بدلالة قوله إِنَّا أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ ناراً و إنما المراد البيان بمن أنه قادر عليها فأيهما اختار جوزي عليه بحسبه و في الآية دلالة على أنه تعالى قد هدى جميع خلقه المكلفين لأن قوله إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ عام في جملتهم و ذلك مبطل قول المجبرة إن الله لا يهدي الكافر بنصب الدلالة على طريق الحق و اجتناب الباطل و ليس كل من ترك الشكر كان كافرا لأن الشكر قد يكون تطوعا كما يكون واجبا ثم إن الله تعالى بين أن ما ذكره على

وجه التهديد لكفرهم بقوله فَإِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَعِيراً و ذكر أيضا ما للمؤمنين لإيمانهم فقال إِنَّ الْأَبْرارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ

[١٢٥]

قوله سبحانه : فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ لم يرد نصب الأدلة على الحق لأنه تعالى سوى في ذلك بين الكافر و المؤمن كما قال وَ أَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى الْهُدى و إنما أراد من لطفه تعالى له بما علم أنه يؤمن فسمى ذلك اللطف هداية و قيل فمنهم من هدى الله إلى الجنة بإيمانه و منهم من حقت عليه الضلالة قال الحسن لأنهم ضلوا عن طرق الحق و كفروا بالله و قال أبو الهذيل حقت عليه الضلالة عن طريق الجنة بما ارتكبوا من الكفر و الضلالة و المراد بالضلالة هاهنا العدول عن الجنة و قد سمى الله العقاب ضلالا في قوله إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَ سُعُرٍ .

قوله سبحانه : إِنَّ عَلَيْنا لَلْهُدى قال قتادة إن علينا لبيان الطاعة من المعصية و فيه دلالة على وجوب هدى المكلفين إلى الدين و إنه لا يجوز صرفهم عنده .

قوله سبحانه : وَ الَّذِي قَدَّرَ فَهَدى التقدير تنزيل الشيء على مقدار غيره فالله تعالى خلق الخلق و قدرهم على ما اقتضته الحكمة فهدى معناه أرشدهم إلى طريق الرشد من الغي و هكذا كل حيوان إلى ما فيه منفعته و مضرته حتى إنه هدى الطفل إلى ثدي أمه و ميزه من غيره و أعطى الفرخ الهداية حتى طلب الزق من أبويه و العصفور على صغره يطلب مثل ذلك بهداية الله تعالى له .

قوله سبحانه : وَ الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا أي نرشدهم السبيل الموصل إلى الثواب و قيل لنوفقنهم لازدياد الطاعات فيزداد ثوابهم و قيل معناه لنرشدهم إلى الجنة .

[١٢٦]

قوله سبحانه : مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ أي من يحكم الله بهدايته و يسميه بها و بإخلاصه الطاعة فهو المهتدي في الحقيقة و فيه دعاء إلى الاهتداء و ترغيب فيه و فيه معنى الأمر به و قيل من يهدي الله إلى طريق الجنة فهو المهتدي إليها و قوله وَ مَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِهِ أي من يحكم بضلالته و يسميه ضالا بسوء اختياره

للضلالة فإنه لا ينفعه ولاية ولي له و لو تولاه لم يعتد بقوله لأنه من اللغو الذي لا منزلة له فلذلك حسن أن ينفى لأنه بمنزلة ما لم يكن و قيل من يضله الله عن طريق الجنة و أراد عقابه على معاصيه لم يوجد له ناصر يمنعه من عقابه .

قوله سبحانه : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَ لا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ ظاهر الآية أن من كفر بالله و رسوله يعاقبهم الله على كفرهم و ظلمهم و لا يهديهم الجنة بل يدخلهم النار و يحتمل أنه لم يكن الله يفعل بهم ما يؤمنون عنده في المستقبل عقوبة لهم على كفرهم الماضي و استحقاقهم حرمان ذلك و أنه يخذلهم عن ذلك حتى يسلكوا طريق جهنم و يكون المعنى لم يكن الله ليوفقهم للإسلام و لكنه يخذلهم عنه إلى طريق جهنم جزاء لهم على ما فعلوه من الكفر .

قوله سبحانه : كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ المراد به الثواب و ما يجري مجراه لأنه قد يؤمن الكافر و يتوب الفاجر و ينيب الغادر و الآية دليل لأهل العدل .

قوله سبحانه : إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ يعني إلى طريق

الجنة أو قلت لا يحكم الله بهداهم لأنهم كفار .

قوله سبحانه : لَوْ هَدانَا اللَّهُ لَهَدَيْناكُمْ إنما هو حكاية قول رؤساء المشركين في جهنم لقوله فَقالَ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا .

قوله سبحانه : فَرِيقاً هَدى وَ فَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ قد قلنا إن الهدى المطلق أنما يكون بمعنى البيان أو النجاة و هذه الآية إنما وردت فيمن أعيد بعد الممات أ لا ترى إلى أول قوله كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ .

قوله سبحانه : وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ معناه أنه لا يهديهم إلى طريق الجنة و الثواب لكفرهم و يحتمل لا يهديهم بمعنى لا يقبل أعمالهم كما يقبل أعمال المهتدين من المؤمنين لأن أعمالهم لا تقع على وجه يستحق بها المدح و قيل لا يحكم بهدايتهم لكونهم كفارا .

قوله سبحانه : وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ إخبار منه تعالى أنه لا يهدي أحدا ممن ظلم نفسه و كفر بآيات الله و جحد وحدانيته إلى الجنة كما أنه يهدي المؤمنين .

قوله سبحانه : وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ أي لا يحكم للفاسق بأنه مهتد و لا يجري عليه مثل هذه الصفة لأنها صفة مدح .

فصل :

قوله تعالى : لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ لم يقل ليس إليك فسقط التعلق و ذلك أنه إذ قال عليك كذا فإنما معناه أنه يجب عليك كذا كقوله وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ

[١٢٨]

و لا يلزم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) هداية أولئك و إنما عليه التبليغ لقوله أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ و يفسرون الهدى بالفقه و الثواب ثم قال وَ لكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ قال ابن الإخشيد و الزجاج إنما علق الهداية بالمشية لمن كان في المعلوم أنه يصلح باللطف و ليس كل أحد يصلح به فلذلك جاء الاختصاص بالمشية و قال الجبائي الهداية في الآية هو إلى طريق الجنة .

قوله سبحانه : إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ قالوا كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يحب إسلام أبي طالب و يكره إسلام الوحشي فنزلت الآية في أبي طالب و نزل في الوحشي يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ فلم يسلم أبو طالب و أسلم الوحشي فلو جاز للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يخالف الله تعالى في إرادته لجاز أن يخالفه في أوامره و نواهيه و إذا كان لم يرد إيمانه و أراد كفره و أراد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إيمانه فقد حصل غاية الخلاف بين إرادتي الرسول و المرسل .

ابن ذريك :

و لو لم يكن قد شاء طاعاتهم لما *** أتاهم بها عن ربهم مطلق الأمر

يوافق إبليس اللعين بزعمهم *** بغير وفاق المصطفى العلم الطهر

و حين أراد الكفر من معشر فلم *** دعاهم إلى الإيمان هذا من الهجر

و ما حاجة الدنيا إلى الرسل حين *** من توخى بهم إيمانهم سبب الكفر

قوله سبحانه : هُدىً لِلْمُتَّقِينَ الإيمان ليس بهدى من جهة كونه إيمانا و ليس فيه تخصيص و لا يصح أن يكون هدى مذهبهم لأن العبد عندهم غير مختار و هُدىً لِلْمُتَّقِينَ لا يدل على أنه ليس بهدى لغيرهم .

قوله سبحانه : مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنَّاسِ أي بيانا و دلالة على أن الله تعالى هدى الكافر إلى الإيمان كما هدى المؤمن .

قوله سبحانه : إِنْ تَحْرِصْ عَلى هُداهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ من فتح الياء

[١٢٩]

أراد أن الله لا يهدي من يضله أو قلت إن من أضله الله لا يهتدي و من ضم الياء أراد أن من حكم الله بضلالة و سماه ضالا لا يقدر أحد أن يجعله هاديا أو قلت إن من أضله الله لا يقدر أحد على هدايته إليها و لا يقدر هو أيضا على أن يهتدي إليها .

قوله سبحانه : اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ اللفظ لا ينبئ عن أنه يفعل خلافه و إنما يسأله ذلك المؤمنون و لو كان المراد به الإيمان لم يكن لسؤالهم ما أعطوه معنى و لكان الواجب أن يقول ذلك من لم يعطه و الظاهر يدل على الاستقبال .

و قال مجوسي لأمير المؤمنين (عليه السلام) كيف أدخل في دين لم يهتد أربابه حيث لا يزالون يقولون اهدنا فأجابه (عليه السلام) : إن معناه ثبتنا .

قوله سبحانه : فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ أي جعل الاتباع إلى المخلوق و لو كان من الله تعالى لقال فمن اتبعه هداي .

قوله سبحانه : وَ يَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً يزيد الذين اهتدوا إلى طاعة الله و اجتناب معاصيه هدى و وجه الزيادة لهم فيه أن يفعل بهم الألطاف التي تستكثرون عندها

الطاعات بما يبينه لهم من وجه الدلالات و الأمور الداعية إلى فعل الخيرات و قيل زيادة الهدى هي بإيمانهم بالناسخ و المنسوخ .

قوله سبحانه : إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كاذِبٌ كَفَّارٌ معناه أنه لا يهتدي إلى طريق الجنة أو لا يحكم بهدايته إلى الحق من هو كاذب على الله بأنه أمره باتخاذ الأصنام .

قوله سبحانه : وَ إِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَدى أي ستار لمن تاب من المعاصي فأسقط عقابه و أستر عليه معاصيه إذا أضاف إلى إيمانه الأيمان الصالحة

و قال قتادة معناه لزم الإيمان إلى أن يموت كأنه قال ثم استمر على الاستقامة و إنما قيل ذلك لئلا يتكل الإنسان على أنه كان أخلص الطاعة و في تفسير أهل البيت (عليهم الشلام) ثم اهتدى إلى ولاية أوليائه الذين أوجب الله طاعتهم و الانقياد لأمرهم و قال ثابت البناني ثم اهتدى إلى ولاية أهل البيت (عليهم الشلام) .

فصل :

قوله تعالى : يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ أي لدينه و إيمانه بأن يفعل له لطفا يختار عنده الإيمان إذا علم له أهلا و قيل يهدي الله لنبوته من يشاء ممن يعلم أنه يصلح لها و قيل يحكم بإيمانه لمن يشاء ممن آمن به .

قوله سبحانه : وَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ أي من لم يجعل الله له نورا في قلبه و يهده به فما له من نور يهتدي به و قيل من لم يجعل الله له نورا يوم القيامة يهديه إلى الجنة فما له من نور يهديه إليها .

قوله سبحانه : قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ أخبر أنه يخص بذلك المتبع لرضوانه و المتبع لرضوانه قد حصل له البيان و الإيمان .

قوله سبحانه : وَ أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَ ماتُوا الظاهر أن يكون الآيات زادتهم الرجس بالحقيقة و لا خلاف أن الآيات لا فعل لها في الحقيقة و أن الله زادهم رجسا بالآيات نحو ما ادعوه و هذا فاسد لأن عندهم أن الآيات غير موجبة

للرجس و لا يصح أن يزيدهم الله الرجس بالآيات و إنما يزيدهم ذلك بالقدرة الموجبة لذلك و لا يجيز أحد منهم أن تزيدهم الآيات رجسا

قوله سبحانه : وَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ و قوله قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ

[١٣١]

يَهْدِي مَنْ يَشاءُ الهدى ضد الضلالة و هو من فعله بلا خلاف فإذا هدى الكل صح وصفه بأنه يهدي من يشاء كما لو هدى البعض صح ذلك فيه و يدل على أنه هدى الجميع قوله إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ * هُدىً لِلنَّاسِ و الخصم معترف بأن الهدى في الآية بمعنى الدلالة لأولها لأنه بعث النبيين مبشرين و منذرين و قال اختلفوا بغيا و عدوا لا جبرا إذ محال أن يقول جاءتهم البينات و لم تأتهم أو يقول كانوا غير متمكنين من التبيين كما أنه محال أن يقول أتيت زيدا بكتاب فلم يقرأه بغيا و عدوانا و هو غير متمكن من قراءة .

قوله سبحانه : قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ فَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ على سبيل الجبر و لم يقل لاهتديتم و الهداية أنما هو البيان و الدلالة لأنه هدى الجميع بمعناهما أو الفوز و النجاة و لا خلاف في أنه لو شاء لنجى جميعهم و لأثابهم أو الإيمان و الدين و لا يصح ذلك لأنه لا يقال فيمن جبر غيره على أمر قد هداه و إنما يقال ذلك إذا أرشده إليه و دله عليه و معنى الآية أنه حكى عن قول الكفار فقال سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا فجعلهم في قوله إنه لو شاء الله ما أشركوا و لا حرموا شيئا كاذبين فوجب أن يكون الله بتكذيبه إياهم فيما ادعوا مريدا لإيمانهم كارها لما هم عليه من الشرك فلما كذبهم قال قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ إذ كانوا أشركوا من جهة أنفسهم من غير أن يكون أراد منهم الشرك أو أمرهم به أو حملهم عليه إذ لو فعل شيئا من ذلك لكان لهم الحجة عليه .

فصل :

قوله تعالى : أَ إِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ وَ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى عِلْمٍ اعلم أن ضل لازم يقال ضل الشيء أي ضاع و هلك قوله ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا و بمعنى العذاب إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَ سُعُرٍ و بمعنى إبطال العمل فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمالَهُمْ و متعد نحو ضل فلان الطريق أي لم يهتد له قوله إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ و قد جاء أضل على وجوه أضله فلان أهلكه قوله وَ أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ و بمعنى أضل الرجل دابته أي ضلت عنه .

هبوني أمرا منكم أضل بغيره

فالألف للفرق بين ما لا يفارق مكانه و بين ما يفارق و بمعنى أنه ضل منه لا من غيره كما يقولون أضلت فلانة فلانا و أذهبت عقله و هي لا تعرفه لكنه فسد و ذهب عقله من أجلها و عند رؤيته إياها

[١٣٢]

نسب إليها و بمعنى الحكم عليه بالضلال و التسمية أضله فلان أي سماه ضالا مثل أكفره إذا نسب عليه .

قال الكميت :

فطائفة قد أكفروني بحبكم

و قوله فَما لَكُمْ فِي الْمُنافِقِينَ فِئَتَيْنِ ... الآية و قوله أَ تُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ و بمعنى الوجدان أضللت فلانا قوله أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى عِلْمٍ و بمعنى أن تفعل ما عنده يضل العبد أو لأجله فينسب ضلاله إلى نفسه كقوله رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ و لا فعل للأصنام و بمعنى تشديد الامتحان مثل أن يسأل الرجل شيئا نفيسا فإذا بخل به قيل له قد بخلك فلان يريدون به عيب المسئول لا السائل و يقولون أفسدت فضتك في النار أي فسادها عند محنته و قوله وَ ما جَعَلْنا أَصْحابَ النَّارِ إلى قوله كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ بين أن إضلاله للعبد يكون على هذا الوجه من إنزاله آية متشابهة أو تكليفه إياهم أمرا لا يعرفون الغرض فيه و بمعنى الصد عن الخير و الرشد و الدعاء إلى الفساد مثل قوله وَ أَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ * وَ أَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ و قوله إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا إلى قوله يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً يعني بضرب المثل ثم قال وَ ما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ و لا خلاف أنه لا يضل بضرب المثل أحدا و إنما يضل المكلف عند ذلك و بمعنى الحرمان قوله فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ و يتعدى لفظة أضل إلى مفعولين و هو يأتي مع أداة و بغيرها فيقال أضله الطريق و عن الطريق قوله فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا و قوله لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ فهذا الإضلال بمعنى الإعراض عن الحق و إذا كان الضلال لفظا مشتركا فلا يجوز أن ينسب إليه أقبحها و هو ما أضافه إلى الشيطان بل ينبغي أن ينسب أحسنها و أجملها و ليس شيء من هذا الجنس مضافا

إلى الله تعالى لأنه ليس فيه أنه أضل عن الدين أو عن الحق و إنما يجيء مطلقا غير مقرون بما ضل عنه كقوله يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ * وَ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى عِلْمٍ و قولهم أضله الله جائز بمعنى العذاب و الإهلاك و الحكم و التسمية و الوجدان و المصادفة و بمعنى أن يفعل ما يضل العبد فيضيفه إلى نفسه و لا يجوز بمعنى خلق الضلال فيه أو خلق ما يوجبه من قدرة و غيره كما يقول المجبرة و عند بعضهم يجوز أن يضل بمعنى التلبيس و عند بعضهم يجوز أن يضل عن الدنيا ابتداء قال بعضهم لا يجوز ابتداء و كلها باطل من وجوه و ذلك أنه لا يقال في اللغة أضله بمعنى خلق فيه الضلال أو خلق فيه ما يوجب الضلال و لا سائر أقوالهم لأن العرب تقول أضله فلان عن الطريق إذا لبس عليه بشبه و لا يقال لمن رد غيره عن الطريق قهرا إنه أضله إنما يقال رده و صرفه و نحوهما و الإضلال في الدين لا يجوز من الله تعالى بحال لأنه لا يصح التكليف إلا مع البيان و الإضلال هو التلبيس

[١٣٣]

و التلبيس و البيان متضادان و لو أضلهم الله هكذا لم يكن للاحتجاج عليهم بالرسل و الكتب و إقامة الأدلة و الترغيب و الترهيب و الوعد و الوعيد معنى و لا فائدة .

قوله سبحانه حكاية عن إبليس وَ لَأُضِلَّنَّهُمْ وَ لَأُمَنِّيَنَّهُمْ ذم إبليس و حزبه من حيث أضل الناس عن الدين و أمرهم بالاستعاذة منه فقال قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ... السورة وَ قُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزاتِ الشَّياطِينِ * فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ فلو كان الله يضل عباده عن الدين كما يضل الشياطين لاستحق من المذمة مثل ما استحقوه و أوجبت الاستعاذة منه و إن يتخذوه عدوا و كيف يجوز أن يذم إبليس و حزبه لأمر يتعاطى مثله و هو أوله و آخره و إنه أضاف الإضلال عن الدين إلى جماعة و ذمهم لذلك فقال وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ * وَ لَأُضِلَّنَّهُمْ وَ لَأُمَنِّيَنَّهُمْ * وَ لَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيراً أي إبليس وَ أَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ * وَ أَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ أي الأصنام وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانا مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ * وَ إِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ * وَ إِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ فهؤلاء الذين ذمهم الله إما أن يكونوا قد أضلوا غيرهم عن الدين في الحقيقة دون الله أو يكون الله قد أضلهم دون

هؤلاء فهو سبحانه منقول عليهم و عابهم بما هو فيه دونهم و ذمهم بما لم يفعلوه و بهذا الوجه يقول القدرية و يزعمون أن إبليس و جنوده لم يضلوا أحدا عن الدين في الحقيقة دون الله و إنما أضلهم الله دون هؤلاء لأن هؤلاء لا يقدرون على الإضلال بحال و إذا كان الله مشاركا لهم في ذلك كيف يجوز أن يذمهم بفعل هو شريكهم قد ساواهم فيه و إن يستحقوا المذمة وجب له مثل ما استحقوه .

شاعر :

أ اثنان يبدأ منهما الفعل واحدا *** يلام عليه ذا و ذلك يحمد

و إنه بين أنه يضل الظالمين و أنه لا يضل إلا الفاسقين و أنه لا يهدي الكافرين و الفاسقين و الظالمين و أنه يضل من هو مسرف مرتاب و أنه يهدي قلب من هو مؤمن و أن من يجاهد فيه يهديه سبله فلو كان الله هو المضل ابتداء لكان جميع هذه الآيات باطلا لأنه قد يرتد المسلم و يكفر و يؤمن الكافر و يتوب و الضال لا يضل و على قضية قولهم يجب أن يقول إني لا أضل إلا المؤمن و لا أهدي إلا الكافر و إنه نفى الإلهية عما سواه مما

[١٣٤]

كانوا يعبدونه فقال قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ فلو كان يضل عن الحق لكان قد ساواهم في الإضلال و فيما لأجله نهى عن اتباعهم بل أربى عليهم و الإضلال في الدين على سبيل التلبيس إنما يفعله العاجز عن الضد و المنع كالشيطان فإنه لو قدر على المنع لما اجتهد بالحيلة و الوسوسة و الله تعالى غير عاجز فلا يضل عن الدين على سبيل التلبيس و إنه إنما أضاف ما أضافه إلى نفسه من الإضلال مطلقا غير مقرون بما أضل عنه و لم يقل في آية أضل أو يضل عن الدين و إنما قال أضل أو يضل من يشاء و إذا ورد مطلقا كان معناه الإهلاك و الإبطال كما أن لفظة ضل إذا أوردت كان معناها الهلاك و البطلان .

قوله سبحانه : فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ في خمسة مواضع من القرآن يعني يهلك و ينجي و لا يجوز فيها غير ذلك لمقتضى أوليها أو آخريها و لأنه مطلق .

[١٣٥]

قوله سبحانه : فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ يحتمل أمرين أحدهما أنه يحكم بضلال من يشاء إذا ضلوا هم عن طريق الحق و الثاني يضلهم عن طريق الجنة إذا كانوا مستحقين للعقاب و يهدي من يشاء إلى طريق الجنة .

قوله سبحانه : يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً أي بضرب المثل كفروا و لم يقل يضل عن الدين به .

الصاحب :

يضل عن ثوابه أعداءه *** و إنما صيره جزاءه

و لم يرد في حالة إغواءه *** بل جلب الإنسان ما قد شاءه

قوله سبحانه : وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ ليس فيها أنه أضل قوما أو يضلهم و لا أنه يريد ذلك و لم يقل و من يرد أن يضله عن الدين و إنه بين على جهة الجزاء .

قوله سبحانه : إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِها مَنْ تَشاءُ و لم يقل عن الدين و إن هي ترجع إلى متقدم و لا مذكور متقدم إلا الرجفة قال رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ .

قوله سبحانه : فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا إلى طريق الجنة و الثاني من يخذله الله عقوبة على معاصيه على طريق الرشاد و لم يوفقه لحرمانه نفسه بسوء اختياره فلن تجد له سبيلا إلى الحق يقضيه إليه .

قوله سبحانه : أَ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَواهُ وَ أَضَلَّهُ اللَّهُ ليس فيه أنه أضله عن الدين و أضاف الفعل إليه ثم بين أن الله أضله أي عاقبه .

قوله سبحانه : يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ و الخصم لا يجوز

[١٣٦]

ذلك وَ يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ أي يعذبهم .

قوله سبحانه : وَدَّتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَ ما يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ الإضلال الدعاء إلى الضلال الذي يقبله المدعو و قال بعضهم إنه لا يصح إضلال أحد لغيره و إنما يقال ذلك على وجه المجاز ذهب إلى أنه فعل الضلال في غيره لأنه لا يوصف بأنه مضل لغيره إذا ضل المدعو بإغوائه و قال الرماني هذا غير صحيح لأنه يذم بالاستدعاء إلى الضلال الذي لا يقبله المدعو فلذلك فرق بين الاستدعاءين فوصف أحدهما بالإضلال و لم يوصف الآخر به .

قوله سبحانه : قُلْ مَنْ كانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا و لم يقل إنه يمدهم و المد في الطغيان غير معقول و إنما يقال مد له في العمر و أمده بكذا فالمد إذا أطلق رجع إلى العمر و ليس هذا فعل من يريد إضلالهم بل جميع ذلك دال على أنه مريد الخير بهم و مريد منهم الطاعة و الرجوع

قوله سبحانه : يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَ يَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَ ما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ و قوله وَ يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ قال الطوسي من أطلق أن الله تعالى لا يضل و لا يهدي أو أن العباد يضلون أنفسهم أو يهدونها فقد أخطأ و نقول من أضله الله فهو الضال و من هداه فهو المهتدي و لكن لا نريد بذلك ما يريد به المخالف فيما يؤدي إلى التجوير لله في حكمه لأنهم يقولون إن الله يضل كثيرا من خلقه بمعنى أنه يصدهم عن طاعته و يحول بينهم و بين معرفته و يلبس عليهم الأمور و يحيرهم و يغلطهم و يشككهم و يوقعهم في الضلالة و يجبرهم عليها و منهم من يقول يخلقها فيهم و يخلق فيهم قدرة موجبة لها و يمنعهم الأمر الذي به يخرجون منها فيصفون الله تعالى بأقبح الصفات و أخبثها و قلنا إنه قد أضل قوما و هدى آخرين و إنه يضل من يشاء و يهدي من يشاء غير أنه لا يشاء أن يضل إلا من ضل و كفر كما هو مقتضى الآيات و أنه لا يشاء أن يضل المؤمنين المهتدين

[١٣٧]

المتمسكين بطاعته بل يشاء أن يهديهم و يزيدهم هدى و أنه يهدي المؤمنين بأن يخرجهم من الظلمات إلى النور كما قال وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَ آتاهُمْ تَقْواهُمْ و قال وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ .

فصل :

قوله تعالى : قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّما أَضِلُّ عَلى نَفْسِي وَ إِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِما يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي أضاف الضلالة إلى نفسه و لم يقل بقضاء ربي و إرادته .

قوله سبحانه : وَ يُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالًا بَعِيداً يدل على بطلان قول المجبرة إن الله تعالى يفعل المعاصي و يريدها لأنه نسب إضلالهم إلى أنه بإرادة الشيطان على وجه الذم لهم فلو أراد تعالى أن يضلهم بخلق الضلال فيهم لكان ذلك أوكد وجوه الظلم إضلالهم .

قوله سبحانه : إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطانُ بِبَعْضِ ما كَسَبُوا خلاف مذهب المجبرة لأن الله تعالى نسبه إلى الشيطان و هم ينسبونه إلى الله تعالى .

قوله سبحانه : وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ أي هو الذي يزين الكفر للكافرين بخلاف ما تقول المجبرة إن الله هو المزين لهم ذلك و فيها حجة على من قال إن الله تعالى لم يرد من الكافر الإيمان و إنه أرسل الرسل بينة عليهم و على زعم من زعم أنه أخذ الكافرين بالبأساء و الضراء في الدنيا ليس لما أراد من صلاحهم لأنه بين أنه إنما فعل بهم ذلك ليتضرعوا و هذه لام الغرض لأن الشك لا يجوز على الله تعالى .

قوله سبحانه : وَ أَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ معناه أنه دعاهم إلى عبادة العجل فضلوا عند ذلك فنسب الله تعالى الإضلال إليه كما ضلوا بدعائه و هذا خلاف مذهبهم .

[١٣٨]

قوله سبحانه : إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ إلى قوله قالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكافِرِينَ قال الحسن معناه كذلك يضل أعمالهم بأن يبطلها و قيل كذلك يضل الله الكافرين عن نيل ثواب الجنة و قيل كذلك يضل الله الكافرين عما اتخذوه آلهة بأن يصرفهم عن الطمع في نيل منفعة من جهتها .

فصل :

قوله تعالى : وَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَ يُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَواتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيماً و قال يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ وَ يَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ و قال تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيا وَ اللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ و قال يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَ ما هُمْ بِخارِجِينَ مِنْها و قال يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحاكَمُوا إِلَى

الطَّاغُوتِ و قال وَ تَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَ يُرِيدُ اللَّهُ قد أخبر الله تعالى أن ما أراد منهم غير ما أرادوه و أخبر أنه لا يريد الظلم بوجه من الوجوه قوله وَ مَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ * وَ مَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعالَمِينَ * ما يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ و أخبر أنه لا يحب المعاصي قوله وَ لا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ * وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسادَ * إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ * و لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ * وَ لكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ .

و سئل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) هل يريد الله المعاصي و هو يعلمها فاحمر خداه و قال : ففيم بعثت .

و سمع ابن سيرين رجلا يقول ما فعل فلان قال هو كما يشاء الله فقال ابن سيرين : لا تقل كما يشاء الله و لكن قل كما يعلم الله و لو كان كما شاء الله كان رجلا صالحا و قال فضيل بن عياض لو كانت الأمور بالمشية فالناس كلهم مطيعون و استدل جبري بقوله وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ فقال عدلي فأولها و آخرها يفسد دليلك أما أولها فَلَوْ لا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ و آخرها أَ فَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ .

فصل :

قوله تعالى : وَ ما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ كلام مجمل غير مفسر و هو في القرآن في ثلاثة مواضع و جميعه في الطاعات و الطاعة بأمره و مشيته و الكلام

متعلق بما تقدمه من ذكر الاستقامة لأنه تعالى قال وَ ما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ أي لا تشاءون الاستقامة إلا و الله مريد لها و الله يريد الطاعات و لو أراد جميع ما يشاءون لأدى إلى مناقضة القرآن لأنه بين أن إرادته خلاف إرادة المخلوق ذكرناها قبله و الحكيم لا يجوز أن يريد القبائح و لا المباح لأن ذلك صفة نقص و هو يتعالى عن ذلك و هذه الآية حجة لنا لأنه جعل لنا مشية و علقها بمشيته و عندهم أن مشية الله تعالى فعله و لا حجة لهم فيه لأنه معارض بالآيات الصريحة في أنه تعالى لا يريد القبح و يمكن حمل الآية على العموم لأن العباد يشاءون عندهم ما لا يشاؤه الله تعالى بأن يريد و أما علم الله سبحانه لأنه لا يقع بمنع أو غيره .

قوله سبحانه : فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً الضمير في قوله يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ عائد إلى اسم الله لقوله أَ فَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ و قوله أَ لَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ و المعنى أن الفعل مسند إلى اسم الله في اللفظ و في المعنى إلى المشروح صدره و إنما نسبه إلى ضمير اسم الله لأنه بقدرته كان و توفيقه كما قال وَ ما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ رَمى و يدل على أن المعنى لفاعل الإيمان إسناد هذا الفعل إلى الكافر في قوله وَ لكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ فكما أسند الفعل إلى فاعل الكفر كذلك يكون إسناده في المعنى إلى فاعل الإيمان و يحتمل أن يكون راجعا إلى من و تقديره أن المهدي يشرح صدر نفسه و يكون تقديره من أراده الله أن يهديه إلى طريق الجنة فليطعه و من أراد أن يعاقبه فليعصه و الإرادة واقعة على فعل العبد بقلبه الضيق يوضح ذلك قوله مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ وَ لكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فالاطمينان إلى الإيمان فعلهم لا محالة لأنه إيمان ثم نسب تعالى شرح صدرهم بالكفر إليهم .

قوله سبحانه : مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَ مَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ لا يجوز أن من يكون على عمومه لأنا قد علمنا أنه تعالى لا يشاء أن يضل الأنبياء و المؤمنين و لا يهدي الكافرين كما قال وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً و قال يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ و قال وَ يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ و قال وَ ما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ و تأويل مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ أي يخذله

بأن يمنعه ألطافه فأعرض عن الأدلة فيكون كالأصم و الأعمى و قيل من يشأ الله إضلاله عن طريق الجنة و نيل ثوابها يضلله على وجه العقوبة و من يشأ أن يرحمه يهديه إلى الجنة .

قوله سبحانه : وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ ليس فيها أكثر من أنه لو شاء أن لا يفعلوا ذلك ما فعلوه فمن أين يدل على أنه قد شاء ما فعلوه و ليس كل من لا يشاء شيئا يكون مريدا لضده لأن المسلمين لو شاءوا لمنعوا أهل الذمة في دار الإسلام عن المنكرات فليسوا بمانعين و هم غير راضين و لا مريدين لذلك .

قوله سبحانه : وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدى لم يقل إني لو شئت من جميعهم الهدى لآمنوا و لم يقل لو شاء لاجتمعوا على الهدى و كيفية جمعهم عليه إما أن يكون جبرا كقول المجبرة أو بأن يوجد فيهم القدرة الموجبة له كقول البخارية أو بأن يفعل بكل منهم اللطف يوضح ذلك قوله إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ آيَةً مع قوله وَ لَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ فمعلوم أن هذا الإيمان الذي نفاه عنهم عند إنزاله هذه الآيات ليس هو الإيمان الذي أوجبه بقوله فضلت أعناقهم إذ لو كانا واحدا لتناقض القولان لأن أحدهما يقتضي أنهم لا يؤمنون أبدا عند نزول شيء من الآيات و الآخر يقتضي إيمانهم عند نزول الآية من السماء فلا بد من فرق و إلا تناقض الكلام فما نفاه فهو الإيمان الاختياري و ما أثبته فهو الضروري .

قوله سبحانه : وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكُوا * وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ ما فَعَلُوهُ الظاهر أنه لو شاء أن لا يفعلوا ما فعلوا من الشرك و القتل و ليس فيه أنه قد شاء أن يفعلوا ذلك و لو شاء أن يلجئهم إلى خلاف ذلك إلجاء إذا فعلوه و لكنه فيه زوال التكليف و ارتفاع الأمر و النهي و غير ذلك .

قوله سبحانه : وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا قال الحسن هذا إخبار عن قدرته على

إلجائهم على الامتناع من الاقتتال أو بأن يمنعهم عن ذلك و قيل لا يدل قوله وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا على أنه قد يشاء اقتتالهم لأنه إذا احتمل الكلام وجهين جائز عليه و غير جائز وجب حمله على ما يجوز عليه و هذا كقول القائل لو شاء السلطان لم يشرب النصارى الخمر و لا نكحت المجوس المحرمات و ليس في ذلك دليل على أنه قد شاء .

قوله سبحانه : وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً لم يبين على أي وجه جبرا أو اختيارا الوزير الأمي

إذا فعلت ما أراد ربي و لم أحد عنه فما ذا ذنبييخلق ذنبي و أكون آثما يظلمني ثم أسمي ظالما

قوله سبحانه : وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً قال الحسن و الجبائي إنه إخبار عن القدرة كما قال وَ لَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها و قوله وَ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَ لكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ قال الجبائي معناه لو شاء الله لفعل بهم ما يختارون عنده الكفر لكنه لا يفعله لأنه مناف للحكمة و قال قوم لو شاء الله لجمعهم على ملة واحدة في دعوة جميع الناس شريعة واحدة مع اختلاف المصالح و قال الحسن المغربي معناه لو شاء الله لا يبعث إليهم أنبياء فيكونوا متعبدين بما في العقل و يكونون أمة واحدة .

قوله سبحانه : وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً وَ لا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِذلِكَ خَلَقَهُمْ عنى بالمشية إلجاء لا اختيارا و إنما أراد أن يخبرنا عن قدرته و أنه ممن لا يغالب و لا يعصى مقهورا و لفظة المشية في الآية لا يجوز حملها على الاختلاف و الذهاب عن الدين لأنه نهى عنه و توعد عليه فكيف يجوز أن يكون شائيا له و مجبرا للعباد عليه ثم إن الرحمة أقرب إلى هذه الكناية من الاختلاف و حمل اللفظ على أقرب المذكورين أولى و قوله وَ لِذلِكَ خَلَقَهُمْ كناية عن الاجتماع على الإيمان كما قال وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ و قال وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً

ومعناه أنه لو شاء أن يدخلهم أجمعين الجنة فيكونوا في وصول جميعهم إلى النعم أمة واحدة و لا يزالون مختلفين في الدين و الذهاب عن الحق فيه و قال أبو مسلم معنى مختلفين أي إن خلف هؤلاء الكافرين يخلف سلفهم في الكفر كما قال وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ خِلْفَةً و بهذا الاختلاف يريده الله تعالى

قوله سبحانه : وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إنما يقتضي إثبات قدرته على تكوين ذلك الشيء و أنه لو شاء أن يؤمن الكل على سبيل الجبر لآمنوا كما قال إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ و قد دل على أن المراد به الإكراه قوله أَ فَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ معناه أنه لا ينبغي أن يريد إكراههم لأن الله تعالى يقدر عليه و لا يريده لأنه ينافي التكليف ابن عباد :

و لو أراد ربنا أن يشتما *** و فعل الشاتم ما قد حتما

لكان فيه طائعا قد علما *** و كان من عذبه قد ظلما

قوله سبحانه : وَ لَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها لا خلاف أنه قادر على هداية الجميع و أنه لو شاء أن يفعله لفعله و النزاع في كيفية ما به يهديهم من جبر أو اختيار و الهداية في الآية الثواب يدل عليه عقيبه وَ لكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ فبين أنه قادر على ذلك و لو شاء لنجى الجميع و لكن وجب فيه أن يملأ جهنم منهم لاستحقاقهم و يحتمل أن يريد النجاة لقوله فيما قبل ذلك رَبَّنا أَبْصَرْنا فبين أنهم سألوا ردهم بعد ما عاينوا ما كانوا يوعدون فقال وَ لَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها يعني طلبتها و ما يتوصل به إلى نجاتها .

قوله سبحانه : وَ لَوْ نَشاءُ لَطَمَسْنا عَلى أَعْيُنِهِمْ قال الحسن و قتادة لتركناهم و الطمس محو الشيء حتى يذهب أثره و الطمس على العين إذهاب الشق الذي بين الجفنين و الطمس على المال إذهابه و الطمس على الكتاب إمحاؤه و طمس الريح الأثر و هذا بيان من الله تعالى أنهم في قبضته و هو قادر على ما يريد بهم فليحذروا تنكيله بهم ثم قال

[١٤٣]

زيادة في التحذير وَ لَوْ نَشاءُ لَمَسَخْناهُمْ عَلى مَكانَتِهِمْ و المسخ قلب الصورة إلى خلقة مشوهة كما مسخ قوم قردة و خنازير و المسخ نهاية التنكيل و قال الحسن و قتادة لمسخناهم على مقعدهم أو على أرجلهم و لو فعلنا بهم ذلك لما استطاعوا مضيا .

قوله سبحانه : أَ فَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً ظاهره يدل على أنه لو شاء لهداهم إلى الإيمان الاختياري و ما أثبته فهو الضروري و معنى أَ فَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أي لم يبين .

قال سجيم :

أقول لأهل الشعب إذ يبشرونني *** أ لم ييأسوا أني ابن فارس زهدم

قوله سبحانه : وَ عَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ أي بيان الهدى من الضلال و منها جائر أي طريق عادل عن الحق و لو شاء لهداكم أجمعين قال الحسن و البلخي لو شاء بالإلجاء و قال الجبائي لو شاء لهداكم إلى الجنة .

قوله سبحانه : ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عَلى مَنْ يَشاءُ إنما علقه بالمشية لأن قبول التوبة و إسقاط العقاب عندنا تفضل و لو كان ذلك واجبا لما جاز تعليق ذلك بالمشية كما لم يعلق الثواب على الطاعة و العوض على الألم في موضع بالمشية .

قوله سبحانه : وَ إِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إن شاء علقت بالمشية لأن منهم من لا يبلغ هذا المعنى الموعود به لأنه يجوز أن يموت قبله و يقال ليقطع الآمال إلى الله تعالى كما قال لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ .

قوله سبحانه : وَ لَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَ كَلَّمَهُمُ الْمَوْتى وَ حَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشاءَ لا خلاف أنهم لا يؤمنون إلا بمشيته لأنه لا يصح من أحد إيمان إلا بعد أن يأمره بذلك و يريده منه و متى ما لم يأمره بذلك و لم

يرد منه فليس بإيمان و في قوله إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ وجهان أن تلجئهم إلى ذلك و هو الصحيح و لا يجوز أنهم لا يؤمنون ما لم يشأ الله منهم أن يؤمنوا إنه لا يجوز أن يريد المعاصي فإنه قد أراد من الجميع الإيمان و إنه ذكر ذلك تقريعا لهم و لو أراد أنهم إنما لا يؤمنون لأني ما شئت منهم الإيمان و متى شئت آمنوا لكان مبنيا بذلك عذرهم و لصح احتجاجهم بأنه لو شاء الرحمن ما عبدوا من دونه من شيء و لأدى إلى تناقض القرآن نحو فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ * إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ .

فصل :

قوله تعالى : وَ لا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ ليس فيه أن أفعالنا متعلقة بمشيته لأنه لم يقل حتى تقول إن شاء الله أو لم يقل إلا أن تقول و ادعاء الحذف عدول عن الظاهر قال الفراء تجعل حرف الشرط الذي هو إن متعلقا بما قبله و بما هو متعلق به في الظاهر من تقدير محذوف و يكون التقدير و لا تقولن لشيء إني فاعل ذلك

غدا إلا أن تقول إن شاء الله لأن من عادتهم إضمار القول في مثل هذا الموضع و الموجود منه دلالة على المفقود و هذا تأديب من الله لعباده حتى يخرجوا من حد القطع و لا شبهة أن ذلك مختص بالطاعات دون المقبحات و لا يستجيز مسلم أن يقول إني أزني غدا إن شاء الله و قال أبو علي عنى بذلك أن من لا يأمن أن يبقى إلى غد فلا يقول إني سأفعل غدا كذا و كذا فإنه ربما مات أو عجز أو منع فلا يأمن أن يكون خبره كذبا في معلوم الله فلا يسلم خبره هذا من الكذب إلا بالاستثناء .

الناشي :

قد قلت ربي يشاء شيئا و يسخطه *** و إنه قد قضى ما ليس راضيه

و إنه قد يكون العبد متبعا لما *** يشاء يقضي و هو عاصيه

و إنه جائز في العدل خالقنا *** تكليف عبد ضعيف لا قوى فيه

و إنه أرسل الداعي ليدعونا *** و صد أكثرنا عن أمر داعيه

و قال من لم يجب داعي مستبقا *** فسوف أدخله نارا و أصليه

كفعل ذي حنق قاس و ذي عنت *** يعيب جور القضا منا و يأتيه

يقدر الكفر فينا ثم يسخطه *** يقول أ لم كان ما أقضي و أنشيه

[١٤٥]

قوله سبحانه : لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللَّهُ * إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّها مُصْبِحِينَ وَ لا يَسْتَثْنُونَ إنما أمر بالاستثناء ليكون فرقا بين كلام الخالق و كلام المخلوق يؤيد ذلك ما قلنا إنه لا يجوز أن يقول إني أزني غدا إن شاء الله و إنما جاز في الطاعات و المباحات و قال البلخي معنى إن شاء الله أي أمركم الله به لأن مشية الله تعالى لفعل عباده هو أمره به و قال قوم هو تأديب لنا كما قال وَ لا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ .

قوله سبحانه حكاية عن شعيب قَدِ افْتَرَيْنا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْها وَ ما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ ذكر أنه ليس له أن يعود فيها إلا أن يشاء الله و

متى شاء ذلك كان له أن يعود فيها و الخصم لا يجيز للمكلف أن يعود في الكفر إن شاء الله ذلك و قوله فيها كناية عن الملة .

قوله سبحانه : قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَ لا ضَرًّا إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ لم يقل لا أضر نفسي و لا أنفعها و لا يلحقها نفعا و لا ضرا إلا بمشيته بل نفى الملك للضر و المنفعة فوقع الاستثناء بالملك فوجب أن تكون المشية مشية الملك لا للضر الذي يملكونه و قد جعل له ملكا بقوله وَ ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ .

قوله سبحانه : وَ إِنَّا إِنْ شاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ الأفعال المستقبلة لا يصح إطلاقها دون تعليقها بمشيته ليخرج الخبر من أن يكون قطعا و حكما بتا كما ذكرناه و بعد فإنه إنما يصح ذلك في الطاعات دون المعاصي .

قوله سبحانه : فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ يعني لا يريد ثوابهم من أجل كفرهم فإذا لا يريد كفرهم لأنه لو أراده لم يكن نفى محبته لهم لكفرهم .

[١٤٦]

قوله سبحانه : كَمَثَلِ الشَّيْطانِ إِذْ قالَ لِلْإِنْسانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِينَ ليس فيها من قصة برصيصا شيء مما يقولون فيه العبدي :

و هم شبهوا الله العلي بخلقه *** و قالوا خلقنا للمعاصي و أجبرنا

و لو شاء لم نكفر و قد شاء كفرنا *** و إن شاء لم نؤمن و إن شاء آمنا

فصل :

قوله تعالى : لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها و لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا ما آتاها * لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَها و الوسع دون الطاقة .

كلفتها الوسع في سيري لها أصلا *** و الوسع منها دون الجهد و الوخد

و في ذلك دلالة على بطلان قول المجبرة من الله تعالى يكلف العبد ما لا قدرة له عليه و قوله فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ * وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا * ما جَعَلَ

عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ * يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَ لا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ * يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ و لو جاز تكليف ما لا يطاق لجاز أن يكلف الأعمى النظر و المقعد المشي و لجاز أن يكلفنا الطيران و لو جاز ذلك لجاز أن يكلف الأشجار و الأحجار و النبات و الجماد .

و سئل الرضا (عليه السلام) فقيل له هل يكلف الله العباد ما لا يطيقون فقال : الله أعدل من ذلك فقيل هل يستطيعون أن يفعلوا ما لم يقدر لهم فقال هم أعجز عن ذلك .

الصاحب :

لو كلف العبد بلا استطاعة *** ما ذم من أبدى له امتناعه

و لا أقام للعباد الساعة *** أف لهذا القول من شناعة

قوله سبحانه : وَ لا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ أي ما يشتد كلفته من العبادات المتعبة يقال و الله ما أستطيع النظر إليك و لا أطيق الاكتحال برؤيتك مع أنه يراه يدل عليه قوله وَ لا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً و لا تحملنا من العذاب ما لا طاقة لنا به في الدار الدنيا و إنه كلام مبهم ليس فيه دلالة على شيء .

الصاحب :

قالت أ يلزم نفسا فوق طاقتها *** فقلت حاشاه هذا فعل ذي خبل

قالت يشاء معاصينا و يؤثرها *** فقلت لو شاها لم نخش من زلل

[١٤٧]

قوله سبحانه : إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً لم يرد نفي القدرة و إنما أراد ثقله عليه لقوله وَ كَيْفَ تَصْبِرُ عَلى ما لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً و يقتضي أنه لا يستطيع الصبر في المستقبل لأن لن إذا دخلت أفادت الاستقبال و لم يرد به نفي قدرته عن الصبر لقوله وَ كَيْفَ تَصْبِرُ و لا يدل على أنه غير مستطيع الصبر في الحال و قد يجوز أن يخرج في المستقبل من أن يستطيع ما هو في الحال مستطيع له غير أن الآية يقتضي خلاف ذلك لأنه قد صبر عن المسألة عما لا يعرف و مثل ذلك يصعب على النفس و قد استقبل موسى الصبر

عن المسألة قوله وَ كَيْفَ تَصْبِرُ عَلى ما لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً و لو لم يكن كما قلنا لقال و كيف تصبر و أنت مطيق الصبر و قوله لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً أي إن الصبر ثقل على طبعك كما يقال للمريض إنك لا تستطيع الصيام و يعبر بالاستطاعة عن الفعل هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنا .

قوله سبحانه : أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ ليس فيها أنهم صم و أنهم لا يعقلون و إنما فيه أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لا يسمع و إن كانوا يعقلون أوقاتا .

قوله سبحانه : ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ الظاهر يقتضي نفي استطاعتهم السمع و البصر و ليس بفعل للعبد و لا يصح أن يكون له قدرة عليه و قد ذمهم بأنهم لا يستطيعون كالأعمى و الأصم و الأعمى و الأصم لا يستحقان الذم على كونهما أعمى و أصم و السمع و البصر ليس بمعنى فيكون مقدورا لأن الإدراك ليس بمعنى و لو ثبت أنه معنى لكان غير مقدور للعبد من حيث يختص القديم تعالى بالقدرة عليه هذا إذا أريد به نفس الحاسة و هي غير مقدورة للعباد لأن الجواهر و ما يختص به الحواس من البينة مما يصح به الإدراك ما يتفرد القديم تعالى بالقدرة عليه و لم يرد الله تعالى نفي الاستطاعة و إنما أراد بها نفي القبول عنهم و استثقالهم له كقول القائل ما أستطيع أن أسمع كلام فلان و لا يستطيع فلان أن يراني و لا أن يسمع بذكري و قوله لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً أي يستثقلون و يقول من يكلف غيره أمرا يستطيع أن يذهب بي إلى موضع كذا كما حكى الله تعالى عن الحواريين هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ فهم لم يشكوا في أن الله تعالى قادر فلو شكوا لكانوا كفارا و لكن أرادوا هل ينزل علينا مائدة

قوله سبحانه : لِلْفُقَراءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ يدل على فساد قول المجبرة في الاستطاعة لأن الله تعالى إذا عذر من لا يستطيع للمخافة كان لا يستطيع لعدم القدرة أعذر .

قوله سبحانه : ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْداً مَمْلُوكاً لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ فإنه جعل ذلك مثلا و لم يخبر أن جميع الناس كذلك فقال إذا كان عبدا لا يقدر على الإنفاق هل يستوي هو و من

يقدر على الإنفاق و أنفق و في الظاهر نفى القدرة عنه أصلا و لا تقول القوم بذلك و أخبر أن الآخر يقدر على الإنفاق فهو ينفق منه سرا و جهرا و ذلك خلاف قولهم .

قوله سبحانه : انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ليس فيه ذكر الشيء الذي لا يقدرون عليه و لا بيان له و إنما يصح ما قالوه لو بين أنهم لا يستطيعون سبيلا لأمر معين فأما ما لم يذكر ذلك فلا متعلق لهم على أن السبيل مما لا يستطاع فلا بد له من ترك الظاهر فسقط التعلق و المراد بالآية أنهم لأجل ضلالهم بضرب المثل و كفرهم لا يستطيعون سبيلا إلى الخير الذي هو النجاة من العقاب و الوصول إلى الثواب و المراد بنفي الاستطاعة أنهم مستثقلون الإيمان و قد يخبر عمن استثقل شيئا بأنه لا يستطيعه .

قوله سبحانه : الَّذِينَ كانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَ كانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً الظاهر أن أولئك لم يستطيعوا السمع الذي هو إدراك الصوت .

قوله سبحانه : سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنا لَخَرَجْنا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ يعني بالأيمان الكاذبة وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ أي يستطيعون فلا يفعلون أو لو استطاعوا ما فعلوا فلو كانت الاستطاعة مع الفعل لكانوا لعجزة و كانوا صادقين .

[١٤٩]

قوله سبحانه : مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا يدل على أن الاستطاعة قبل الفعل لأن الله تعالى أوجب الحج على المستطيع و من لا يستطيع لا يجب عليه و ذلك لا يكون إلا قبل فعل الحج و قيل أي من وجد الزاد و الراحلة و نحوهما و الاستطاعة بالسمع لا يصح للخصم فيه التعلق لأن من جوز تكليف الله تعالى الكافر الإيمان و هو لا يقدر عليه لا يمكنه العلم بنفي القبائح عن الله تعالى و إذا لم يمكن ذلك يلزمه تجويز القبائح في أفعاله و أخباره و لا نأمن أن يرسل كذابا و إن يخبر هو بالكذب تعالى عن ذلك .

قوله سبحانه : يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ وَ يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ إلى قوله وَ هُمْ سالِمُونَ و السالم غير العاجز فلو كانت الاستطاعة مع الفعل لكانوا عجزة إذا لم يفعلوا لأن الفعل معدوم و إذا عدم الفعل عدمت الاستطاعة لأنها معه .

قوله سبحانه : إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ الظاهر يقتضي التماس المعونة من قبله و لا يدل على تحصيل المعونة بالأمور المعينة على الطاعة نحو الصحة و الخواطر و التنبيه و الدواعي و غير ذلك فثبت أن الاستطاعة قبل القدرة و لا يدل على أن القدرة مع الفعل لأن الرغبة في ذلك تحتمل أن يسأل الله تعالى من ألطافه و ما يقوي دواعيه و يسهل الفعل عليه ما ليس بحاصل و متى لطف له بأن يعلمه أن له في عاقبته الثواب العظيم زاد ذلك في رغبته و أيضا فإنه يطلب بقاء كونه قادرا على طاعاته المستقبلة بأن يجدد له القدرة حالا بعد حال عند من لا يقول ببقائها أو لا يفعل ما يضادها و بنفيها عند من قال ببقائها .

قوله سبحانه : فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلًا يدل على أنه قادر قبل أن يفعل .

قوله سبحانه : وَ الَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْ نِسائِهِمْ إلى قوله فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً

[١٥٠]

أمر الله تعالى أن يحكم على المستطيع بصيام شهرين متتابعين و إنما يلزمه ذلك بعد العجز عن العتق و الصوم فثبت أن الاستطاعة قبل الفعل .

قوله سبحانه : سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ صابِراً لا يدل على أن القدرة مع الفعل لأنه أخبر أنه سيكون صابرا .

قوله سبحانه : خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ قال أبو علي أي القدرة التي خلقتها فيكم و في ذلك دلالة على أن القدرة قبل الفعل .

قوله سبحانه : وَ إِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ يدل على أن القدرة قبل الفعل أ لا ترى أنه أخبر بأنه قوي عليه و لم يجئ بعد بالعرش و قال بخاري لمحمد بن سويد أ تقول إن الاستطاعة قبل الفعل و ما من عامي إلا و يعلم خلاف قولك فقال بل يعلم خلاف قولك فانظر فدعا بحمال فقال إن هذا يزعم أنك لا تستطيع حمل هذا الكوز فشتم الحمال لمن يقول هذا .

الوزير الآبي :

ما كلف الإنسان ما لم يطق *** هل كلف الأخرس المنطق

أو كلف الأعمى انتقاد الدر *** أو الأصم سمع صوت الذر

قوله سبحانه : وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْماءِ هؤُلاءِ و هذا أقبح من تكليف ما لا يطاق الجواب ظاهر الآية إن كان أمرا يقتضي التعلق بشرط هو كونهم صادقين عالمين بأنهم إذا أخبروا عن ذلك صدقوا فكأنه قال خبروا بذلك إن علمتموه و متى رجعوا إلى أنفسهم فلم يعلموا فلا تكليف عليهم و قيل أنبئوني و إن كان ظاهره ظاهر أمر على الحقيقة بل المراد به على التقرير و التنبيه على مكان الحجة و إن الله تعالى لما قال للملائكة إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً إلى قوله وَ نُقَدِّسُ لَكَ قال لهم إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ أي أطلع على مصالحكم ثم أراد التنبيه على أنه لا يمتنع أن يكون غير الملائكة مع أنها تسبح و

[١٥١]

تقدس و تطيع و لا تعصي أولا بالاستخلاف في الأرض و إذا كان في ذريته من يفسد و يسفك الدماء فعلم آدم جميع أسماء الأجناس أو أكثرها ثم قال أَنْبِئُونِي بِأَسْماءِ هؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ مقررا لهم و دالا على اختصاص آدم بما لم يخصوا به فلما اعترفوا بذلك قال لهم تعالى أَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ أَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ .

أيا رب ما حملتني فوق طاقتي *** و حوشيت من تكليف ما لا أطيقه

فصل :

قوله تعالى : فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها و قوله صِبْغَةَ اللَّهِ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً

و روي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه و ينصرانه و يمجسانه .

الخبر ؛ تكلم الناس في ذلك فروي أنه قال التوحيد و قال أبو عبيد صبغة الله دين الله و فطرة الله التي فطر الناس عليها و قال ابن قتيبة يعني بذلك حديث الذر في الأصلاب و قال الجبرية أي خلق على كفر أو على إيمان و قال محمد بن الحسن كان

هذا في أول الإسلام قبل أن أمر الناس بالجهاد و الفطرة في اللغة هو الابتداء يقال فطر ناب البعير و قال مجاهد في قوله السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ أي منشق و قال غيره فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أي مبتدعهما فيكون معنى الآية و الخبر كل مولود يولد على الفطرة أي ابتداء الخلقة كان الله تعالى لما ابتدأهم و ابتدعهم فطرهم على العبودية له و نهاهم أن يعبدوا غيره يدل عليه ما بعد الآية لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ و يؤيده قوله وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ فمنهم من اهتدى و منهم من ضل من نفسه أو من غيره و قال الفراء سميت صبغة الله لأن اليهود و النصارى كانوا يصبغون أولادهم فيقول الله عز و جل الزموا صبغة الله و قال بعضهم كانت النصارى إذا أتى على أولادهم سبع سنين صبغوه في ماء نهر الأردن و كان ذلك لهم بمنزلة الختان للمسلمين و تزعم النصارى أن المسيح صبغه يوحنا المعمودان و كان يسمى هذا الفعل المعمودية .

ابن حماد :

يقولون في الله غير الجميل *** فقد ألحدوا فيه ما وحدوه

يولونه قبح أفعالهم *** تنزه عنها العلي النزيه

و قالوا يعذبنا في المعاد *** على فعله جل من جوزوه

قوله سبحانه : خَتَمَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَ عَلى سَمْعِهِمْ وَ عَلى أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ

[١٥٢]

الختم في الشاهد غير مانع من الإيمان لأنه يفك المختوم من الكتب و التكيس و يحمل منه و إنما هو علامة يعرف بها تناول المختوم عليه و المختوم على قلوبهم إما أن يكونوا قادرين على الإيمان قبل الختم أو غير قادرين فإن كانوا غير قادرين استحال المنع و إن كانوا قادرين عليه قبل فهم في حال الختم قادرين و قيل خَتَمَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ أي يشهد عليها بأنها لا تقبل الحق يقول القائل أراك تختم على كل ما يقوله فلان أي تشهد به و تصدقه و قد ختمت عليك بأنك لا تعلم أي شهدت و قيل خَتَمَ اللَّهُ إخبار عن تكبرهم و إعراضهم عن الاستماع لما دعوا إليه من الحق كما يقول فلان أصم عن هذا الكلام إذا امتنع عن سماعه و رفع نفسه عن تحمله و يحتمل أن يكون المراد بختم

سيختم و يكون الماضي بمعنى المستقبل كقوله وَ نادى أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابَ النَّارِ و قيل المعنى في ذلك أنه ذمهم بأنها كالمختوم عليها في أنه لا يدخلها الإيمان و لا يخرج عنها الكفر .

لقد أسمعت لو ناديت حيا *** و لكن لا حياة لمن تنادي

قوله سبحانه : بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْها و قوله طَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ و قيل معناه إن الله تعالى يجعل نكتة سوداء في قلب المنافق و الكافر لتكون علامة للملائكة يعرفون بها أنه ممن لا يفلح أبدا و قيل أي طبع فيها أثر الذنوب لتعرفها الملائكة فيتبرءوا منهم و لا يبالوهم يستغفروا لهم و قيل المراد بذلك الذم لها بأنها كالمطبوع عليها فلا يدخلها خير و لا ينتفي عنها شر و حال الذم تقتضي صفات المدح .

قال جرير :

السم خير من ركب المطايا *** و أندى العالمين بطون راح

و بعد فإن الطبع وقع بنفس الكفر فقال بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ و الخصم لا يقول بذلك و يكون معنى الطبع و الختم العلامة المميزة بين الكافر و المؤمن و المنع أنما يصح في القادر لأن من ليس بقادر على الشيء غير معقول .

قوله سبحانه : إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَ زِدْناهُمْ هُدىً وَ رَبَطْنا عَلى قُلُوبِهِمْ الربط هو الشد في الأصل و لا تعلق بذلك في باب الإيمان و ليس فيه ما به ربط على قلوبهم و إنما فيه الإخبار عن الربط .

[١٥٣]

قوله سبحانه : وَ جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذانِهِمْ وَقْراً لا تعلق للخصم فيه لأنهم لما عدلوا عن الحق جعلت الأكنة على قلوبهم و الوقر في آذانهم عقوبة لهم لاختيارهم ذلك و أنه قال أَنْ يَفْقَهُوهُ و لم يقل لئلا يفقهوه و هذا عدول عن الظاهر و الكن على القلب و الوقر في الأذن غير مانعين من الإيمان لأن الغطاء المسمى الخلب

هو في البطن و له غطاء و الصم آكد من الوقر و قد يؤمن الأصم و لا مانع هناك لقوله وَ ما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا و نحوها .

قوله سبحانه : لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ وَ جَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا ... الآية المنع من الإيمان لا يصح على مذهبهم و إنما صح على مذهب من قال بالاختيار و الجري على الظاهر غير موجب المنع من الإيمان لأن المغلول و المأخوذ عليه يؤمن و ما ذكره جرى على جهة الذم لهم و التوبيخ و إنهم من حيث أعرضوا عن الإيمان لم ينتفعوا بالآيات الدالة على الحق يشهد بذلك قوله عقيب الآية بلا فصل سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ و عقيب الآية الثانية وَ إِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً ثم إن المراد بهذه الآيات وصف حالهم في الآخرة فقوله في الأغلال و السلاسل كقوله خُذُوهُ فَغُلُّوهُ و قوله إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَ السَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ و قال السدي يَوْمَ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الْمُنافِقاتُ إلى قوله مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ قال وَ نَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَ بُكْماً وَ صُمًّا قال السدي إن ناسا من قريش هموا بقتل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فلما جاءوه جعلت أيديهم إلى أعناقهم فلم يستطيعوا أن يبسطوا إليه يده و قال قوم حال الله بينهم و بين ما أرادوه فعبر عن ذلك بأنه غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ و قوله فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ أي بظلمة الليل فهم لا يبصرون النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كما قال وَ إِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وَ بَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجاباً مَسْتُوراً .

قوله سبحانه : عَلى قُلُوبِهِمْ وَ عَلى سَمْعِهِمْ وَ عَلى أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ ليس فيها أنه

[١٥٤]

يفعلها الله تعالى في القلب أو يصد بها عن الإيمان و إنما أراد بالغشاوة الفهم للكفر و محبتهم له و لم يقل تعالى إنه جعل على قلوبهم غشاوة بل أخبر أنه كذلك .

قوله سبحانه : وَ جَعَلْنا قُلُوبَهُمْ قاسِيَةً أي منعناهم الألطاف التي تنبه المؤمنين .

قوله سبحانه : كَلَّا بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ معناه ليس الأمر على ما قالوه بل غلب على قلوبهم يقال رانت الخمر على عقله ترين رينا إذا سكر فغلب على عقله فالرين غلبة الشك على القلب .

قال أبو زبيد الطائي :

ثم لما رآه رانت به الخمر *** و أن لا يرينه باتقاء

و قال الحسن و قتادة الرين الذنب على الذنب حتى يموت القلب و قيل معنى ران غطى و غشي قال البلخي و في ذلك دلالة على ما يقوله أهل العدل لأن الله تعالى أخبرهم أنهم الذين يجعلون الرين على قلوبهم .

قوله سبحانه : فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً قالوا إذا كان الله هو الذي ألف بين قلوبهم و أنقذهم من النار صح أن أفعال الخلق خلق له قلنا لا يجب ذلك لأنا نقول إن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ألف بين قلوب العرب فأنقذهم من النار و لا يجب ذلك أن يكون أفعالهم أفعالا للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و لا مشاركا لهم و معنى فأنقذكم من النار أنه دعاهم إلى الإيمان و رغبهم فلما كان إسلامهم و نجاتهم بمئونته و دعائه كان هو المؤلف لقلوبهم و المنقذ لهم من النار على هذا المعنى لا أنه أنشأ أفعالهم و أحدثها و يجوز أن يقال ألف الله بين الكفار فلم يأتلفوا و أنقذهم فلم يستنقذوا فيفيد ذلك كما قال وَ أَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى الْهُدى .

قوله سبحانه : وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ وعدهم بالحيلولة بينهم و

بين قلوبهم و الوعيد لا يقع إلا بما ذكروه و الظاهر يقتضي أن يفرق بين المرء و قلبه حتى لا يتصل أحدهما بالآخر لأن هذا هو حقيقة الحيلولة و ليس للإيمان فيها ذكر يحول بين المرء و قلبه بإزالة عقله و إبطاء تمييزه و إن كان حيا يقال لمن فقد عقله و سلب تمييزه إنه بغير قلب قال الله تعالى إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ .

و لي ألف باب قد عرفت طريقها *** و لكن بلا قلب إلى أين أذهب

و بمعنى المبالغة في الإخبار عن قربه من عبيده و إن الضمائر له بادية قوله وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ و إذا كان عز و جل أعلم بما في قلوبنا منا و يجوز علينا السهو و النسيان و الضلال جاز له أن يقول إنه يحول بيننا و بين قلوبنا لأن كل شيء يحول بين شيئين فهو أقرب إليهما فقد بالغ الله تعالى في صفته القرب و لم يرد به المسافة كما تقول العرب فلان أقرب إلى قلبي و زيد مني قريب يحول بينهما أي يحول بينه و بين ما يدعوه إليه قلبه من القبائح بالأمر و النهي و الوعد و الوعيد لأنا نعلم أنه تعالى لو لم يكلف العاقل مع ما فيه من الشهوة و النفار لم يكن له عن القبيح مانع فكان التكليف حائل بينه و بينه من حيث زجر عن فعله ثم إن المؤمنين كانوا يفكرون في كثرة عددهم فيدخل في قلوبهم الخوف فأعلمهم تعالى أنه يحول بين المرء و قلبه بأن يبدله بالخوف أمنا و يبدل عدوهم على ضده الجبائي يحول بين المرء و بين الانتفاع بقلبه بالموت فلا يمكنه استدراك ما فات و يقوي ذلك مقاله في آخر الآية وَ أَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ .

و هشام بن سالم قال الصادق (عليه السلام) : يحول بينه و بين أن يعلم أن الباطل حق .

ابن زريك :

و ليس يحول الله بين مكلف *** و طاعته كلا و هو شيء من الجبر

قوله سبحانه : لا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا أي وجدناه غافلا متبعا هواه يدل على ذلك قوله وَ اتَّبَعَ هَواهُ وَ كانَ أَمْرُهُ فُرُطاً و يقال لا تطع من سميناه غافلا أو نسبناه إلى الغفلة كقولك كفرناه أي نسبناه إلى الكفر و يقال أي من تركنا قلبه غفلا و لم نسمه بسمة المؤمنين من الكناية و يكون ترك السمة أصلا علامة أيضا على الكفر .

قوله سبحانه : وَ أُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَما يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمانُكُمْ

ليس فيها ذكر للمحبة و العجل لا يشرب و كذلك المحبة و لم يقل إن الله أشرب قلوبهم و ذكر أنهم أشربوا ذلك بكفرهم و لفظ المجهول لا حكم له و قد يأبى أن يكون له فاعل سوى الموصوف .

شاعر :

لم يخلق الله خلقه عبثا *** و لم يدعهم سدى بما صنعوا

إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم *** و إن أساءوا بفعلهم وقعوا

قوله سبحانه : لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَ لَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أي كأنهم لم يفقهوا بقلوبهم و لم يسمعوا بآذانهم و لم يبصروا بعيونهم ما كانوا يؤمرون به كأنهم صم بكم عمي .

مسكين الداري :

أعمى إذا ما جارتي خرجت *** حتى يواري جارتي الستر

و أصم عما كان بينهما *** سمعي و ما بي غيره وقر

قوله سبحانه : وَ ما تُغْنِي الْآياتُ وَ النُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ قالوا ما للنفي يعني ما تغني عنهم شيئا يدفع الضرر إذا لم يفكروا فيها كقولك و ما تغني عنك المال شيئا إذا لم تنفقه في وجوه و قالوا ما للاستفهام كقولك أي شيء تغني عنهم من اجتلاب نفع أو دفع ضرر إذا لم يستدلوا بها .

قوله سبحانه : وَ إِذا أَرادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ أراد بالسوء عذابا و نقمة و العذاب يكون سوءا و لا يكون إساءة لأن الإساءة هي التي متى فعلها فاعلها فهو مسيء و الإساءة الكفر و أما السوء فقد يكون حكمة و عدلا و العذاب و النقمة من العدل و الحكمة .

قوله سبحانه : وَ لا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ فيه دلالة على أن الكفر ليس من فعل الله و لا بإرادته لأنه لو كان مريدا له لكان راضيا به لأن الرضا هو الإرادة إذا وقعت على وجه .

[١٥٧]

فصل

قوله تعالى : سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ إنه ذكر عن نفس الآيات و ليس للإيمان فيها ذكر و الآيات في الدلائل و الكتاب و الأمور الماضية و أصلها العلامة صرفهم عن ثواب النظر في آيات الله المستحق صاحبها الثواب و يعني بالآيات الأدلة و معجزات الأنبياء و كانوا عنها غافلين و أراد صرفهم عن زيادة المعجزات بعد ما تقدم من آيات الأنبياء لأنه تعالى إنما يظهرها إذا علم أنه يؤمن عندها من لم يؤمن بما تقدم من الآيات و يكون الصرف إما بأن لا يظهرها جملة أو بأن يصرفهم عن مشاهدتها و إذا صرفهم عنها فقد صرفها عنهم و إن بعض الجهال في زمانه (عليه السلام) اعتقدوا جواز المعجزات على يد الكفار المذكورين فأكذبهم الله بذلك و صرف من رام المنع من أداء آياته لأن من الواجب على الله تعالى أن يحول بين من رام ذلك و بينه لأنه ينقض الغرض في البعثة وَ اللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ فتكون الآيات القرآن و نحوه و الصرف هاهنا الحكم و التسمية و الشهادة و من شهد على غيره بالانصراف عن شيء فجائز أن يقال صرفه عنه كما قال ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم يوافقه قوله ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ كانُوا عَنْها غافِلِينَ و لما علم الله تعالى أن الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق سيصرفون عن النظر في آياته و الإيمان بها إذا أظهرها على أيدي رسله جاز أن يقول سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فيريد سأظهر ما ينصرفون بسوء اختيارهم عنه يقول سأبخل فلانا و سأخطيه أي أسأله ما يبخل ببذله و أمتحنه بما يخطئ فيه و الصرف هو المنع من إبطال الآيات و القدح فيها بما يخرجها أن تكون حججا و إن الله تعالى لما وعد موسى (عليه السلام) و آمنه بإهلاك عدوهم قال سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ .

قوله سبحانه : ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لم يقل فصرف على سبيل الحكم و الخبر إذ لو كان على ذلك لأدخل عليه الفاء و إنما قال على سبيل الدعاء عليهم كقولك خرج

زيد لعنه الله و لو كان ذلك خبرا لقال فلعنه الله و إنه لم يذكر المصروف عنه و المصروف عنه محذوف غير مذكور و إن ذلك كالجزاء على انصرافهم لأن انصرافهم كفر و لا يجوز أن يجعل الجزاء عليه كفرا آخر .

بيت :

و كل امرئ يجزى *** بما كان ساعيا

آخر :

كل امرئ في رشده و غيه *** و إنما يجزى بقدر سعيه

[١٥٨]

قوله سبحانه : وَ إِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وَ بَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجاباً مَسْتُوراً مثل قوله وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَ جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ... الآية و سبب نزولهما أن الكفار كانوا إذا سمعوا القرآن من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) آذوه و رجموه و شغلوه عن صلاته كما قال لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَ الْغَوْا فِيهِ و قال وَ ما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكاءً وَ تَصْدِيَةً فحال الله بينهم و بين استماع ذلك في تلك الحال التي كانوا عازمين فيها على أذاه بأن ألقى عليهم النوم إذ قعدوا يرصدونه و لا يعرفون مكانه و إنما فعل ذلك لعلمه بأنهم لا يؤمنون كما قال وَ إِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها و قال إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ و يمكن أنه تعالى يضيق صدورهم فلا يفقهون و لا يسمعون لعلمه بأنهم لا يؤمنون من غير أن يكون حائلا بينهم و بين الإيمان و الحجاب و الوقر و الأكنة على وجه الاستعارة و المجاز كما سمي الكفر عمى و يحتمل أن يشبه الكفر الذي في قلوبهم بالكن و ينسب هذا الجعل إلى نفسه كما يقول جعلت فلانا فاضلا و جعلته فاسقا و جعل القاضي فلانا عدلا أو فاسقا و إن لم يكن من ذلك شيء .

جعلتني باخلا كلا و رب منى *** إني لأسمح كفا منك في الرب

فصل :

قوله تعالى : فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أي حزن و علة و لو كان الشك مرضا لكان الشاك مريضا و المؤمن صحيحا فيجب أن يسمى كل كافر مريضا و كل مؤمن صحيحا .

و أما قول الشاعر :

و ليلة مرضت في كل ناحية *** فما يضيء لها شمس و لا قمر

فإنه بالغ في كثرة حزنه و علته كأنه مظلم و قال أبو عبيدة الشك و النفاق و قال الطوسي فيكون معناه أن المنافقين كانوا كلما أنزل الله آية أو سورة كفروا بها فازدادوا بذلك كفرا إلى كفرهم و شكا إلى شكهم فجاز لذلك أن يقال فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً لما ازدادوا عند نزول الآيات و مثله حكاية عن نوح إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَ نَهاراً فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي إِلَّا فِراراً أو هم الذين ازدادوا فرارا عند دعائه و مثله فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ

و التقدير في الآية في اعتقاد قلوبهم الذي يعتقدونه في الدين و التصديق بنبيه مرض و حذف المضاف و أقام المضاف إليه مقامه كما قال يا خيل الله اركبي يعني يا أصحاب خيل الله و كقوله وَ سْئَلِ الْقَرْيَةَ و إنما سمي الشك في الدين مرضا لأن كل فاسد يحتاج إلى علاج و مرض القلب أعضل و دواؤه أعسر و أطباؤه أقل ثم قال في آخر الآية وَ ماتُوا وَ هُمْ كافِرُونَ فيه بيان أن المرض في القلب أداهم إلى أن ماتوا على الكفر .

قوله سبحانه : فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ الظاهر لا يقتضي أن الآيات زادتهم رجسا و في عدولهم عنها ترك للظاهر و آخر الآية وَ ماتُوا وَ هُمْ كافِرُونَ فيه بيان أن رجسهم كان سبب موتهم كفارا .

قوله سبحانه : وَ يَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ قال الفراء الرجس العذاب يجعله على الذين لا يعقلون أي كأنهم لا يعقلون شيئا ذما لهم و عيبا و قال ابن عباس الرجس الغضب و السخط و قال أبو عبيدة الرجس العذاب و قال الحسن الرجس الكفر أي يجعله بمعنى أنه يحكم أنهم أهله ذما لهم و عيبا .

قوله سبحانه : فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَ جَعَلْنا قُلُوبَهُمْ قاسِيَةً القسوة قلة الرحمة و قد يوصف بعض الكفار بأنه رقيق القلب كما أنه يوصف بعض المؤمنين بأنه قاسي القلب فلا تعلق لها بالكفر و الكفر لا يوجب القساوة لأنها أنما يجب عن القدرة الموجبة لذلك دون الكفر و لأنه جعلنا كالجزاء على الكفر و لا يجوز أن يجعل الجزاء على الكفر كفرا آخر لأنه يؤدي إلى ما لا نهاية له .

فصل :

قوله تعالى : إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَ تِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ لا يدل على أنه جعل للكفار دولة على المؤمنين كما جعل للمؤمنين دولة و غلبه عليهم لأنه لا يجوز أن ينصر الله الكفار على المؤمنين كما ينصر المؤمنين على الكفار

و يعني بقوله نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ أنه يجعل بعض القوم مبتدئا آمنا معافا مسرورا و الذين أصابهم القرح في غم و حزن و ألم و يجوز ذلك من الله تعالى في المؤمنين و الكافرين جميعا لأن الله تعالى يمتحن الكافرين و المؤمنين بمثل هذا و معنى الدولة الغناء قوله كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِياءِ مِنْكُمْ و منه حديث أبي سفين تداولها تداول الكرة .

قوله سبحانه : رَبَّنا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَ مَلَأَهُ زِينَةً وَ أَمْوالًا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا رَبَّنا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ ... الآية إنما أعطاهم الله تعالى ذلك عليه مع تعربه من وجوه الاستفساد و هذا استفهام و الاستفهام لا يدل على أنه فعل ذلك ثم قال لِيُضِلُّوا و هذا بخلاف مذهبه و اللام لام العاقبة و هو ما يئول إليه الأمر كقوله فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَناً قال الخليل اللام هاهنا بمعنى الفاء تقديره فضلوا و قال البلخي هذا مقدم مؤخر تقديره ربنا ليضلوا عن سبيلك فلا يؤمنوا ربنا اطمس على أموالهم و قيل المعنى فلا يؤمنون إيمان إلجاء حتى يروا العذاب الأليم و هم مع ذلك لا يؤمنون إيمان اختيار أصلا .

قوله سبحانه : وَ لكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَ آباءَهُمْ ليس فيه أنه متعهم لذلك و الإمتاع ليس بموجب للنسيان على مذهبه .

قوله سبحانه : وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً قال البلخي و لا تحسبن الذين كفروا أن إملاءنا لهم رضى بأفعالهم و قبول لها بل هو شر لهم لأنا نملي لهم و هم يزدادون إثما يستحقون به عذابا أليما و مثله وَ لَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ أي ذرأنا كثيرا من الخلق سيصيرون إلى جهنم بسوء أفعالهم و جوز الأخفش في قوله لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ كسر أنما ليجعله حجة لأهل القدر و يجعله على التقديم و التأخير كأنه قال وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ فقال بعضهم فكيف يكون هذا و إلى جنبه و لهم عذاب مهين .

[١٦١]

قوله سبحانه : إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ تأخيرهم إما لقوله ليزدادوا خيرا أو لقوله لِيَزْدادُوا إِثْماً أو يدفع بهم عن الأولياء قوله وَ لَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ أو ليخرج منهم الولد الصالح أو لقوله وَ ما كانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ أو أنه يبين حلمه أو أنه إنما يجعل من يخاف الفوت .

قوله سبحانه : وَ لَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ ... الآية قال المفسرون اللام لام العاقبة و ليست بلام الغرض كأنه قال إن عاقبة أمرهم ازدياد الإثم كما قال فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا و قال وَ جَعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ و قال لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَ قالُوا لِإِخْوانِهِمْ إِذا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ إلى قوله لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ .

لدوا للموت *** و ابنوا للخراب

و لا يجوز أن يحمل ذلك على لام الغرض و الإرادة لوجهين أحدهما أن إرادة القبيح قبيحة و لا يجوز ذلك على الله تعالى و الثاني لو كانت اللام لام الإرادة لكان الكفار مطيعين لله من حيث فعلوا ما أراده و ذلك خلاف الإجماع و قد قال الله وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ .

بيت :

و ليس للإنسان إلا ما سعى *** و كل ساع سعيه سوف يرى

فصل :

قوله تعالى : وَ ما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ الإذن العلم من قولهم أذنت فلانا بكذا و أذنت لكذا وَ ما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ أي بعلمه قوله فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلى سَواءٍ و الأمر فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ أي يسهل السبيل إليه و قد جاء الإذن بمعنى التخلية و الإباحة لأن الموت ليس إلى الإنسان فيكون مأمورا به أو مباحا له و ليس ذلك من فعله و لا خلاف بأن الإنسان يموت بأجله عند الوقت الذي علم الله تعالى .

قوله سبحانه : ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ أي بعلم الله فكأنه قال

[١٦٢]

لا يصيبكم مصيبة إلا و الله تعالى عالم بها قال البلخي معناه إلا بتخلية الله بينكم و بين من يريد فعلها و سأل محمد بن سليمان الهاشمي عمر بن قائد عن قوله وَ ما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فقال يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ ثم قال وَ يَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ أي الذين لم يعلموا ما أوجب عليهم وصفهم بأنهم لا يعقلون كما قال صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ أي إنه لا يمكن أحد أن يؤمن بإطلاق الله له في الإيمان و تمكينه منه و دعائه إليه بما خلق فيه من العقل الموجب لذلك و قال الحسن و أبو علي إذنه هاهنا أمر كما قال ابن قائد و حقيقة إطلاقه في الفعل بالأمر .

قوله سبحانه : وَ ما هُمْ بِضارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ يعني تخلية الله فكأنه أفاد أن العباد لا يعجزونه و ما هم بضارين به من أحد إلا بأن يخلي الله بينهم و بينه و لو شاء لمنعهم بالقهر زائدا على منعهم بالزجر أو تكون إلا زيادة فيكون المعنى و ما هم بضارين به من أحد بإذن الله كما يقال لقيت زيدا إلا أني أكرمته أي لقيت زيدا فأكرمته و يكون الضرر المضاف إليه هو ما يلحق المسحور من الأدوية التي يطعمه إياها السحرة و الضرر الحاصل نحو هذا من فعل الله بالعادة لأن الأغذية لا توجب ضرا و لا نفعا و إن كان المعرض للضرر من حيث كان الفاعل له هو المستحق للذم و عليه يجب العوض و الضرر المذكور من التفريق بين الأزواج إنه إذا ارتد أحد الزوجين و كفر بانت منه زوجته فاستضر بذلك كانوا ضارين له مما حسنوه له من الكفر إلا أن الفرقة لم تكن إلا بإذن الله و حكمه لأنه تعالى هو الذي حكم و أمر بالتفريق بين المختلفي الأديان فلهذا قال وَ ما هُمْ بِضارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ و المعنى أنه لو لا حكم الله

تعالى و إذنه في الفرقة بين الزوجين باختلاف الملة لم يكونوا ضارين له هذا الضرب من الضرر الحاصل عند الفرقة .

و قد روي أنه كان من دين سليمان (عليه السلام) أنه : من سحر بانت منه امرأته .

قوله سبحانه : فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ

[١٦٣]

الزيغ هو الميل وَ مَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ * ما زاغَ الْبَصَرُ و الميل يكون عن الحق و عن الباطل و ليس في الآيات ذكر و إنما يعرف ذلك بدليل .

قوله سبحانه : فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لا يخلو من أن يكون منهم أو من الله فإن كان منهم فسد مذهبهم و كان قوله أَزاغَ اللَّهُ مصروفا إلى الرحمة و الثواب .

قوله سبحانه : رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا هذا سؤال و مثله لا يدل على أنه أن يفعل خلافه و بينا جواز مسألته أن يفعل ما فعله لا محالة و لا يفعل خلافه كقوله رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ و ذلك دعاء بالتثبيت على الهداية و إمدادهم بالألطاف التي معها يستمرون على الإيمان و متى قطع إمدادهم بألطافه و توفيقاته زاغوا كما يقال اللهم لا تسلط علينا من لا يرحمنا معناه لا تخل بيننا و بينه فيتسلط علينا لا تزغ قلوبنا لا تشدد علينا المحنة في التكليف فيقضي ذلك بنا إلى زيغ قلوبنا بعد الهداية لا تزغ قلوبنا عن ثوابك و رحمتك بعد أن دعوتنا إليه و دللتنا عليه و معنى هذا السؤال أنهم سألوا الله تعالى أن يلطف بهم في فعل الإيمان حتى يقيموا عليه و لا يتركوه في مستقبل عمرهم فيستحقوا بترك الإيمان أن تزيغ قلوبهم عن الثواب و أن يفعل بهم بدلا منه العقاب كقوله فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ و قوله أُولئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ و قوله أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ وَ أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ و ضد هذه الآيات في قلوب الكافرين الآية محمولة على الدعاء بأن لا يزيغ القلوب عن اليقين و الإيمان و لا يقتضي ذلك أنه تعالى سأل ما كان لا يجب عليه فعله لأنه غير ممتنع أن يدعوه على سبيل الانقطاع إليه و الافتقار إلى ما عنده بأن يفعل ما يعلمه أنه لا بد من أن يفعله بما أعلم أنه واجب أن لا يفعله إذا تعلق بذلك ضرب من

المصلحة كما قال إبراهيم وَ لا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ و قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و قل رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ .

بيت :

و من بعد ما زاغوا أزاغ قلوبهم *** و غير لما غيروا نعمة المثري

[١٦٤]

فصل :

قوله تعالى : رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا النسيان من فعل الله تعالى و لا تكليف على الناس في حال نسيانه فكيف يأمرنا على سبيل العادة لنا بالدعاء كذلك ثم إنه إما أن يكون النسيان من فعلنا أو نكون متعبدين بمسألته تعالى ما نعلم أنه واقع لأن مؤاخذة الناسي مأمونة منه تعالى قال قطرب النسيان هاهنا الترك كما قال وَ لَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ و كقوله نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ أي تركوا طاعته فتركهم من رحمته كما يقال لا تنسى من عطيتك .

و لا كنت يوم الروع للطعن ناسيا

أي تاركا .

و قوله أَ تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ و يحمل النسيان على السهو و يكون وجه الدعاء بذلك على سبيل الانقطاع إلى الله تعالى و إن كان مأمونا المؤاخذة بمثله كقوله رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَ لا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ .

قوله سبحانه : فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ ... الآية هذا كما قال في قصة آل فرعون وَ بَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَ السَّيِّئاتِ .

قوله سبحانه : إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا الخطأ ما وقع سهوا أو عن غير عمد أما الأول فقد يجوز أن يريد بالخطإ ما يفعل بالتأويل للشيء و عن جهل بأنها معاص لأن من قصد شيئا على اعتقاد أنه بصفة فوقع بخلاف ما هو بخلاف معتقده يقال قد أخطأ فكأنه أمرهم بأن يستغفروا مما تركوه متعمدين من غير سهو و لا تأويل و مما أقدموا عليه متأولين

و يقال أخطأنا أذنبنا و إن كانوا له متعمدين و به عالمين لأن جميع المعاصي قد توصف بأنها خطأ من حيث فارقت الصواب و إن كان فاعلها متعمدا و كأنه أمرهم بأن يستغفروا مما تركوه من الواجبات و مما فعلوه من المقبحات ليشتمل الكلام على جهتي الذنوب .

قوله سبحانه : قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَ غَضِبَ عَلَيْهِ وَ جَعَلَ

[١٦٥]

مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَ الْخَنازِيرَ وَ عَبَدَ الطَّاغُوتَ ... الآية قد وبخهم على كفرهم فلا مدخل لكونه خالقا لكفرهم في باب ذمهم و لا شيء أبلغ في عذرهم من أن يكون خالقا لما ذمهم من أجله و هذا يقتضي أن يكون الكلام متناقضا و إذا أردنا ذم إنسان قلنا أ لا أخبركم بشر الناس من فعل كذا و صنع كذا فيعدد من الأفعال و الأحوال قبائحها و لا يدخل في جملتها ما ليس بقبيح و أكثر ما فيها أنه خلق و جعل من يعبد الطاغوت كما جعل منهم القردة و الخنازير و لا شبهة في أنه تعالى خلق الكافر غير أنه لا يوجب أنه خلق كفره و جعله كافرا و الدليل قد دل على أن ما به يكون القرد قردا و الخنزير لا يكون إلا فعله و هكذا حكم من كفر و لا يكون

قوله تعالى : وَ عَبَدَ الطَّاغُوتَ معطوفا على القردة و الخنازير بل معطوفا على من لعنه الله و غضب عليه و تقديره من لعنه الله و من غضب عليه و من عبد الطاغوت و من جعل الله منهم القردة و الخنازير و هو الصحيح لأن عبد فعل و الفعل لا يعطف على الاسم و أما جعلهم قردة و خنازير عقوبة لهم على أفعالهم فجرى ذلك مجرى أفعالهم كما ذمهم بأن لعنهم و غضب عليهم من حيث استحقوا ذلك بأفعالهم و عبادتهم الطاغوت .

قوله سبحانه حكاية عن موسى (عليه السلام) رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى أَمْوالِهِمْ وَ اشْدُدْ عَلى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ إلى قوله دَعْوَتُكُما الطمس على أموالهم لا يوجب نفي الإيمان لأن مع ذلك يصح منهم الإيمان و كذلك يصح مع الشدة على القلوب لأن معناه يحتمل وجهين إما كن شديدا عليهم و الشدة راجعة إلى المسئول دون المسئول له لأنه لم يقل اشددهم أو شدد قلوبهم و أيضا إن لفظ الشد يختلف باختلاف ما يتعلق بها من

حروف الصفات و بأماكنها يقال شد كذا و شد عليه كذا إذا جعله مشدودا بحبل أو نحوه و شدده إذا جعله شديدا و شد على فلان مطلقا إذا حمل عليه قال ابن مرداس أشد على الكتيبة لا أبالي و يقال شدوا عليهم شدة واحدة إذا حملوا عليهم فيحتمل أن يريد احمل عليهم .

قوله سبحانه : وَ لَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ أضاف التثبيت إلى نفسه

[١٦٦]

و الركون إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و جعله من فعله فإن جاز العدول عن ذلك جاز العدول عن الأول ثم إنه ثبته و لم يبين وجهه و يجوز أن يثبت العبد على الطاعة بوجوه ألطافه و ليس يوجب ذلك جبرا .

بيت :

استأثر الله بالوفاء و بالعدل *** و ولى الملامة الرجلا

قوله سبحانه : رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً يعني تشبيها بتفريغ الإناء من جهة أنه نهاية ما يوجبه الحكمة كما أنه نهاية ما في الواحد من الآنية و قوله وَ ثَبِّتْ أَقْدامَنا تثبيت الأقدام يكون بشيئين أحدهما بتقوية قلوبهم و الثاني بإلقاء الرعب في قلوب أعدائهم حتى يظهر فيهم الخور في قتالهم و قيل باختلاف كلمتهم حتى يقع التخاذل بينهم و الصبر و الثبوت من فعل العبد لأنه يجازى عليهما و أما النصر ففعل الله تعالى .

فصل :

قوله تعالى : وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا صُمٌّ وَ بُكْمٌ فِي الظُّلُماتِ وصفهم بأنهم صم و بكم إما أن يكون حقيقة أو تشبيها فإن كان حقيقة فلا يكونون ملومين عليه على أنها غير مانعة من الإيمان و كذلك كونهم في الظلمة فلم يبق إلا التشبيه و قد جاء في موضع بأنهم لا يبصرون و لا يسمعون و إن على أبصارهم و أسماعهم غشاوة قال أبو مسلم صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ معناه لا يسمعون عن قدرة و لا يتدبرون ما يسمعون و لا يعتبرون بما يرون بل هم عن ذلك غافلون فكان الله تعالى يقول في الآخرة أَسْمِعْ بِهِمْ وَ أَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنا لكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ و المراد به التعجب من قوة أبصارهم و أسماعهم في

الآخرة لقوله يَوْمَ يَأْتُونَنا فيدل على أنهم عارفون بالله ضرورة و تجري هذه الآية مجرى قوله لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ و أما الآيات الأخر ففي حال التكليف و هي الأحوال التي كان الكفار فيها ضلالا عن الدين .

قوله سبحانه : وَ لا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ و هذا على سبيل الشرط و لم يقل إنه فعل الغواية و أرادها و إنما أراد أن نصح النبي

[١٦٧]

لا يقع إن كان الله يريد غوايتهم و وقوع الإرادة لذلك و جواز وقوعها لا دلالة عليه في الظاهر و لا خلاف في أن نصيحة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لا تنفع من أراد الله إغواءه و لكن ليس فيها أنه يريد إغواءهم أو لا يريد و هو محل النزاع على أن الغواية لفظ مشترك يقال أصبح فلان غاويا أي مريضا و غوى الفصيل إذا فقد اللبن فمات و أغويت فلانا أهلكته فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا الخيبة.

شاعر :

و من يغو لا يعدم *** على الغي لائما

هؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنا أَغْوَيْناهُمْ كَما غَوَيْنا هذا الأخير لا يجوز على الله تعالى فكأنه قال تعالى إن كان الله يريد أن يعاقبكم بسوء عملكم فليس ينفعكم نصحي ما دمتم مقيمين على ما أنتم عليه و ما قبل الآية يدل على ما قلنا و إن القوم استعجلوا عقاب الله فقالوا يا نُوحُ قَدْ جادَلْتَنا ... الآيات و قال جعفر بن حرب كان قوم نوح جبرية فقال الله تعالى على سبيل الإنكار عليهم إن كان القول كما تقولون فما ينفعكم نصحي و قال الحسن إن كان الله يريد أن يعذبكم فليس ينفعكم نصحي عند نزول العذاب بكم و إن آمنتم به لأنه لا يقبل الإيمان عند نزول العذاب و لو كان مريدا لإغوائهم لوجب أن يترك نوح نصيحتهم بعد ما اعترف بذلك فلما كان نوح مجدا في النصح لهم مجتهدا في مجادلتهم حتى قالُوا يا نُوحُ قَدْ جادَلْتَنا ... الآية صح أن الله لم يكن مريدا لإغوائهم عن الدين .

قوله سبحانه : يا لَيْتَنا نُرَدُّ وَ لا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا وَ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بَلْ بَدا لَهُمْ إلى قوله لَكاذِبُونَ فقوله يا لَيْتَنا نُرَدُّ وَ لا نُكَذِّبَ على وجه التمني و قوله وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ راجع إلى الأمر

الذي تمنوه لأن التمني لا يكون صدقا و لا كذبا وقع ما تمناه أو لم يقع فيكون قوله وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ مصروفا إلى حال الدنيا و يحمل أيضا على غير الكذب الحقيقي و المعنى أنهم تمنوا ما لا سبيل إليه فكذب أملهم و تمنيهم يقال كذب أمله و أكدى رجاءه .

قال شاعر :

كذبتم و بيت الله لا تأخذونها *** مراغمة ما دام للسيف قائم

و قالوا يا لَيْتَنا نُرَدُّ هذا هو التمني ثم قال وَ لا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا وَ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فأخبروا بما علم الله تعالى أنهم فيه كاذبون و إن لم يعلموا من أنفسهم مثل ذلك فلهذا كذبهم .

الصاحب :

قالت فأفعالنا من ذا يكونها *** فقلت نحن مقالا صين عن خلل

قالت فلم لا يكون الله خالقها *** فقلت لو كان خلقا لم تكن عملي

فصل

قوله تعالى : وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ إنه إخبار عن قدرته فحسب و لم يقل لسلطهم عليكم و كيف يتسلط من لا يقدر قوله وَ ما كانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطانٍ .

قوله سبحانه : أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا إنما جعله متعلقا بكونهم كفارا لأن قوله الكافرين ليس باسم جنس و إنما هو جزاء كفرهم و لم يقل أرسلناهم على المؤمنين لأنهم معتصمون بحبله و الكافرون لما لم يستعصموا بحبله و لم يقبلوا حجة أرسل الشياطين عليهم إذ خلاهم و إياهم كما يقال أرسلت كلبك على الناس إذا لم يمنعه و الآية تدل على فساد مذهبهم فإنه أخبر أن الشياطين تؤزهم .

قوله سبحانه : وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ يعني في الآخرة بدلالة قوله حَتَّى إِذا جاءَنا قالَ يا لَيْتَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ثم قال وَ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ و قد جاء في الأخبار :

أن كل آدمي يدخل جهنم يقرن بشيطانه الذي كان يقبل منه في دار الدنيا .

قوله سبحانه : وَ كَذلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً أي نكل بعضهم إلى بعض في الآخرة فنكل الذين كانوا يعصون الله بأمر هؤلاء الظالمين و اتباع أهوائهم إليهم ليوقنوا بالإياس من رحمة الله إذ كانوا لا يملكون لهم في الآخرة نفعا و يدل على أنه في الآخرة قوله بِما كانُوا يَكْسِبُونَ و هو مثل قوله نُوَلِّهِ ما تَوَلَّى وَ نُصْلِهِ جَهَنَّمَ أي نكله إلى ما كان عبده في الدنيا من الآلهة .

قوله سبحانه : وَ قَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ و قال الحسن معناه خلينا بينهم و بين الشياطين فأغووهم و قال الجبائي التقييض إحواج بعض العباد إلى بعض كحاجة الرجل إلى المرأة

و المرأة إلى الرجل و قال قوم التقييض المماثلة و المقايضة فالمعنى على هذا أنا نضم إلى كل كافر قرينا له من الجن مثله في الكفر في نار جهنم كما قال نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً و قوله فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ و لم يقل ليزينوا و تزين الفعل أنما يصح على مذهبنا

قوله سبحانه : كَذلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ و قوله إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ كيف يزين للغير عمل نفسه و متى ما أحدثها فسواء كان مزينا لهم ذلك أم غير مزين و لما قال لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ استغنى عن تزيين ذلك و إنهم سيفعلونها في المستقبل فالكلام مجمل .

قوله سبحانه : وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ التي كفروا بها و عصوا الله فيها فصدهم عن السبيل أي طريق الحق فهم لا يهتدون إليه لاتباعهم دعاء الشيطان و عدولهم عن الطريق الواضح و كانوا مستبصرين أي عقلا يمكنهم تمييز الحق من الباطل بأبصارهم له و فكرهم فيه .

قوله سبحانه : وَ كَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ و قوله وَ كَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ قال أبو علي أي حكم بأنهم أعداء و قال غيره أي خلا بينهم و لم يمنعهم من العداوة و قيل المراد بذلك أن الله تعالى لما أنعم على أنبيائه بضروب النعم و شرفهم بالبعثة حسدهم على ذلك خلق و عادوهم عليه فيجوز أن يقال بأن الله جعل لهم أعداء على وجه المجاز و قيل بينا أنهم أعداؤهم كما يقال جعله لصا أو خائنا و قيل أمرنا أن يسموهم بذلك .

قوله سبحانه : وَ يَمُدُّهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ المد هو الإنساء في الأجل يقال مد الله في عمره و لا يقال مد في الطغيان و لم يقل مد في طغيانهم و إنما قال يَمُدُّهُمْ ثم قال فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ الطغيان الفعلان من طغى يطغى إذا تجاوز حده و منه كَلَّا إِنَّ الْإِنْسانَ

[١٧٠]

لَيَطْغى و الطاغية الجبار العنيد و لو تعلق يعمهون بيمدهم لقال يعمهوا و معنى الآية أنه تركهم في الكفر فلم يعصمهم بالعصمة التي عصم بها المؤمنين لما عرفهم و بين لهم الكفر من الإيمان فاعتصموا بما عرفهم الله من دينه .

قوله سبحانه : وَ لَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً فِي قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ استدل أبو علي بهذه الآية أنه متى كان في معلوم الله أنه لو آتاهم الآيات التي طلبوها لآمنوا عندها وجب أن يفعلها بهم و لو لا أن ذلك كذلك لم يحتج على العباد في منعه آياتهم التي طلبوها إني إنما منعتهم إياها لأنهم كانوا لا يؤمنون و لو آتيتهم إياها لقالوا إن هذا إلا سحر مبين و هذا دليل على وجوب اللطف .

فصل :

قوله تعالى : وَ كَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا لم يقل لأجل الإصغاء أو لأجل كذا و قوله وَ لِتَصْغى عطف و ليس بجواب لقوله جَعَلْنا و لا تعلق للخصم فيه إذ ليس شيء منها يحدث عما علقه به على مذهبهم و إنما يصح على مذهبنا .

قوله سبحانه : إِنَّا جَعَلْنَا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ معناه أنا حكمنا بذلك لأنهم يتناصرون على الباطل .

قوله سبحانه : وَ جَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً أي حكموا بذلك حكما باطلا .

قوله سبحانه : وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ جعل على وجوه الخلق وَ جَعَلَ الظُّلُماتِ وَ النُّورَ و الأمر ما جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ و الحكم بالشيء وَ جَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ و الاتخاذ إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً و بمعنى الآية أنه وصفهم بذلك و حكم

[١٧١]

به عليهم أو يعني به يوم القيامة كقوله في فرعون فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ و قول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في إمرئ القيس بيده لواء الشعراء يقودهم إلى النار .

قوله سبحانه : وَ جَعَلْنا قُلُوبَهُمْ قاسِيَةً قال البلخي أي سميناهم بذلك عقوبة على كفرهم و نقض ميثاقهم و قال في قوله وَ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ الْجِنَّ أراد بذلك أنهم سموا لله شريكا و يجوز أن المراد أن الله تعالى بكفرهم لم يفعل بهم اللطف الذي ينشرح به صدورهم كما يفعل بالمؤمن و ذلك مثل قولهم أفسدت سيفك إذا ترك تعاهده و جعلت أظافيرك سلاحك إذا لم تقصها و جعلته بحيث لا يفلح أبدا و جعلته ثورا و حمارا و قوله يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ لا يدل على أنه جعل قلوبهم قاسية ليحرفوا بل يحتمل أن يكون كلاما مستأنفا و يمكن أن يكون حالا لقوله فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ.. . يُحَرِّفُونَ أي محرفين .

قوله سبحانه : وَ جَعَلْنا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَ رَحْمَةً و قوله لا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا لا حجة لهم فيه لأن الجعل لفظ مشترك كما بيناه و إذا ضيف جعل الشيء إلى الله تعالى إذا وقع من الأرض تخلية بينه و بينه أو بينه و بين ما يحصل عنده كما يقول أحدنا جعلتني ذليلا إذا خلى بينه و بين من أذله .

قوله سبحانه : أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ معناه جعله بحكمه فكأنه مكتوب فيه و قال الحسن ثبت الإيمان في قلوبهم بما فعل فيهم من الألطاف و قيل جعل فيها كتابة على سبيل العلامة للفرق بين المؤمن و الكافر كما فعل الطبع و الختم لخلق الكافر و خلق الإيمان في قلوبهم لا يسمى كتابة حقيقة و مجازا .

قوله سبحانه : قُلْ لَنْ يُصِيبَنا إِلَّا ما كَتَبَ اللَّهُ لَنا قال الحسن أي كل ما يصيبنا من خير أو شر فهو مما كتبه الله في اللوح المحفوظ من أمرنا و قال الجبائي و الزجاج أي لن يصيبنا في عاقبة أمرنا إلا ما كتب الله لنا في القرآن من النصر الذي وعدنا و قال البلخي يجوز أن يكون كتب بمعنى علم و بمعنى حكم .

[١٧٢]

فصل :

قوله تعالى : أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ هذه الآية وردت حجة على الكفار و لو كان المراد ما قالت المجبرة لكان فيها حجة على الله لأنه إذا كان الخالق لعبادتهم الأصنام هو الله فلا يلحقهم اللوم بل يكون لهم أن يقولوا إنك خلقت فينا ذلك فلم توبخنا بفعلك ثم إن الخلق اختراع و أفعالنا مباشر أو متولد في محل القدرة .

قوله سبحانه : اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ أراد به المبالغة كقوله تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ * و يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ * وَ أُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ و من زعم أن الله تعالى تمدح بالآية أكثر الخالقين خلقا و أوسع الفاعلين فعلا حتى إن أفعال العباد مخلوقة له أخطأ لأنه لا مدحة في خلق الكفر به و الفرية عليه و على أنبيائه و الظلم و الجور و كل قبيح بل الذم في ذلك و النقص و الخلق يعبر به عن التقرير قوله وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فيكون معناه أنه خالق أعمال العباد بمعنى أنه مقدر لها .

قوله سبحانه : خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ لا مدحة في خلق الكفر و الضلال و سائر القبائح فلا يدخل فيه أفعال العباد مفعولة في ستة أيام و قد ذكرنا أنه يجيء بمعنى التقدير .

قوله سبحانه : إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَ إِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً لا يدل على أنه خلق الجزع و الهلع و المراد أنه خلق الإنسان ضعيفا عن تحمل الشدائد و الصبر على تحمل المحن و كنى عن ذلك بما الضعف سببه كما قال وَ خُلِقَ الْإِنْسانُ ضَعِيفاً و إذا كان تعالى قد خلق في الإنسان النفار عن المضار و الشهوة للمنافع جاز أن يقال إنه خلق جازعا من تلك و مانعا من هذه بمعنى أنه خلق فيه ما يدعو إلى ذلك .

[١٧٣]

قوله سبحانه : وَ مِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَ أَلْوانِكُمْ لا دلالة لهم فيه لأن حمل اللسان على الجارحة حقيقة فلا يحمل على المجاز و يريد باختلاف الألسنة ما فيها من غنة و لثغة يقتضيهما خلق الإنسان و مخارج الحروف منه .

قوله سبحانه : وَ أَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ أَ لا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ معناه أ لا يعلم قول من خلق و سره و أحواله و لو أراد ما ظنه المخالف لقال أ لا يعلم ما خلق لأن من لمن يعقل و إنما وجب أن يكون تعالى عالما بأسرارنا من حيث كان خالقنا لأن الخالق للعباد لا يكون إلا قديما عالما لنفسه .

قوله سبحانه : وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً معناه أن كل شيء يطلق عليه اسم المخلوق فإنه خلقه لأن أفعالنا لا يطلق عليها اسم الخلق حقيقة لأن الخلق يفيد الاختراع و إنما يسمونها بذلك مجازا لا يعتد بما يخلقه العباد في جنب ما خلقه الله لكثرة ذلك و قلة ما خلقه العبد أو يكون المراد أنه قدر كل شيء و أفعال العباد مقدرة لله تعالى من حيث بين ما يستحق عليها من الثواب و العقاب أو لا يستحق شيئا من ذلك يقوي ذلك قوله فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً .

قوله سبحانه : أَ فَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ الخلق في اللسان هو التقدير و الإتقان في الصنعة و فعل الشيء لا على وجه السهو و المجازفة بدلالة قوله وَ تَخْلُقُونَ إِفْكاً و قوله وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ و قوله أَحْسَنُ الْخالِقِينَ فأعلمنا أن غيره يسمى خالقا لأنه لو لم يستحق اسم خالق غيره لما قال أَحْسَنُ الْخالِقِينَ كما لا يجوز أن يقال إنه أعظم الآلهة لما لم يستحق الإلهية غيره إلا أنا لا نطلق هذه الصفة إلا فيه تعالى لأن ذلك يوهم و الوجه في الآية الرد على عبادة الأصنام و الجمادات التي لا تقدر على نفع و لا ضر يقوي

[١٧٤]

ذلك قوله في آخرها وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْياءٍ .

فصل :

قوله تعالى : وَ كَذلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ قال أبو علي معنى قوله فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ أي شددنا التكليف على أشرف العرب و كبرائهم بأن أمرناهم بالإيمان برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بتقديم هؤلاء الضعفاء على نفوسهم لتقدمهم إياهم في الإيمان و كونهم أفضل عند الله و هذا أمر كان شاقا عليهم فلذلك سماه فتنة .

قوله سبحانه : وَ جَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً قال الحسن معناه كما يقول الأعمى لو شاء لجعل لي عينا مثل فلان و يقول السقيم لو شاء لأصحني مثل فلان و قال الفراء كان الشريف إذا أراد أن يسلم و قد سبق المشروف إلى الإسلام فيقول أسلم بعد ذا فكان ذلك فتنة و قيل وَ جَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً للعداوات التي كانت بينهم في الدين و الفتنة شدة في التعبد تظهر ما في نفس العبد من خير و شر و هي الاختيار .

قوله سبحانه : الم أَ حَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَ هُمْ لا يُفْتَنُونَ قال مجاهد أي يبلون في أنفسهم و أموالهم و قيل أي يصابون بشدائد الدنيا .

قوله سبحانه : ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا وَ اللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ أصل الفتنة التعريض لما به يظهر المخالص من الشوائب و متى صرف عن ظاهره سقط تعلقهم بها على أن الفتنة الامتحان يقال فتنت الذهب في النار فإنا قد فتنا قومك و فتناك فتونا و الفتنة أيضا الإحراق يقال فتنت الرغيف في النار قوله يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ .

إذا جاء عبسي جورنا برأسه *** إلى النار و العبسي في النار يفتن

و لا يصرف إلى الكفر إلا بدليل و لا دليل هاهنا يجب صرفه إليه و إذا كانت بمعنى الامتحان

صح أن الإنسان مختار و امتحان المجبور محال لأنه إنما جربه ليتبين فيه ما يكون منه من طاعة أو معصية و موالاة أو معاداة و إذا كان الممتحن هو الفاعل بجميع ذلك بطل الامتحان

قوله سبحانه : وَ ما جَعَلْنا أَصْحابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِكَةً وَ ما جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا فعدة الملائكة لا تكون كفرا للكافر و لا خلاف أنهم لا يكفرون لأجل عدتهم و إنما يكفرون لغير ذلك .

قوله سبحانه : رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً و قوله لا تَفْتِنِّي سؤال و لا تعلق بالسؤال و لا يدل على أن المسئول يفعل ما يشاء أو يفعل بخلافه .

قال أمير المؤمنين (عليه السلام) : لا يقولن أحدكم اللهم إني أعوذ بك من الفتنة لأنه ليس أحد إلا و هو مشتمل على الفتنة و لكن من استعاذ فليستعذ من مضلات الفتن فإن الله تعالى يقول إِنَّما أَمْوالُكُمْ وَ أَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ .

و معنى الآية أن الله تعالى يختبرهم بالأموال و الأولاد ليتبين الساخط لرزقه و الراضي بقسمة و إن كان تعالى أعلم بهم و لكن ليظهر الأفعال التي يستحق بها الثواب و العقاب لأن بعضهم يحب الذكور و يكره الإناث و بعضهم يحب تثمير المال و يكره انثلام الحال .

قوله سبحانه : فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ أي عاملناهم معاملة المختبر بأن شددنا عليهم في التعبد بأن ألزمناهم عند إخراج العجل إلى أن يستدلوا على أنه لا يجوز أن يكون إلها و لا أن يخلو من إله .

قوله سبحانه : فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ لم يذكر ما فيها و جعلها مضافة إلينا و لا يجوز بمعنى الإضلال من حيث توعدهم بها و التوعيد لا يصح بالإضلال و كيف يصح أن يتوعد بالإضلال من هو ضال على أنه إنما توعد المخالف لأمره فلو كان بمعنى الإضلال لكان بمثابة أن لو قال فليحذر من أضللته لمخالفة أمري أن أضله

[١٧٦]

قوله سبحانه : وَ إِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ و قوله وَ كَذلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ و أمثالهما لا يدل على مذهبهم أن الله تعالى إنما يضلهم بقدرة موجبة للضلال و أنه لا يقع إضلالهم بمثل ما تعلق به .

قوله سبحانه : وَ مَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً لا خلاف أن من أراد الله فتنته فلن يملك أحد له من الله شيئا على أي وجه فسر الفتنة و إنما الخلاف في جوازه لأنه لا خلاف أنه يريد فتنة العبد بمعنى الامتحان و التكليف و هاهنا في العذاب أو نحوه كما قال يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً و إنه لا يريد تطهير قلب من كفر لأن تطهيره إما أن يريد به أن يطهره جبرا و بهذا يبطل التكليف أو يريد به الحكم بطهارته و غير جائز أن يحكم الله بطهارة قلب من هو كافر أو يريد إثابته و هو لا يريد إثابة الكافر .

نظم :

و كم حذر الله العباد عدوهم *** و شيطانهم فاستأثروا الترك للحذر

و لكن إذا ما ضل قوم عن الهدى *** أضلهم الرحمن في السر و الجهر

فصل :

قوله تعالى : وَ كَذلِكَ جَعَلْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكابِرَ مُجْرِمِيها لِيَمْكُرُوا فِيها وَ ما يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَ ما يَشْعُرُونَ أي فعلنا بهؤلاء مثل ما فعلنا بأولاء إلا أن أولئك اهتدوا بحسن اختيارهم و هؤلاء ضلوا بسوء اختيارهم لأن كل واحد منهما جعل بمعنى صار به كذا إلا أن الأول باللطف و الثاني بالتمكين من المكر فصار كأنه جعل كذا و إنما خص أكابر المجرمين بهذا المعنى لأن الأكابر إذا كانوا في قبضة القادر فالأصاغر بذلك أجدر و قوله لِيَمْكُرُوا فِيها اللام لام العاقبة كقوله فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَناً و ليس لام الغرض لأنه تعالى لا يريد أن يمكروا و قد قال وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ و إرادة القبيح قبيحة فيكون التقدير و كذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليطيعون فكان عاقبتهم أن مكروا بالمؤمنين

و ما يمكرون إلا بأنفسهم أي وبال مكرهم يعود إليهم و لا يصح أن يمكر الإنسان بنفسه على الحقيقة لأنه لا يصح أن يخفي عن نفسه ما يحتال به عليها كما يصح أن يخفي ذلك عن غيره .

قوله سبحانه : وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ المكر هو إدخال الضرر على الغير حيلا كان أو سلبا من جهة الحيلة و التورية و الله يتعالى عن ذلك و ليس المكر من الإضلال بسبيل لأنه يستعمل في الحروب و في أمور يستعمل فيها الحيل و قد يسمى قصد الإنسان بتدبير مكرا كقوله وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا و ليس ذلك إضلالهم إياه عن الدين بل هو كما فسره بقوله ليثبتوك و الإجماع أن قوله يمكرون إنما هو ما كانوا يكيدون به النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من القصد لإهلاكه و أخبر أنه مكر لهم أي أهلكهم من حيث لا يعلمونه أو جازاهم على مكرهم فسمي الجزاء على المكر مكرا كما سمي الجزاء على الاعتداء اعتداء و هذا من باب تسمية الابتداء باسم العاقبة و العاقبة باسم الابتداء .

نظم :

و إني لأستحيي من الله أن أرى *** يخالف قولي الفعل سرا و لا جهرا

أ بي ذلك خوف الله جل ثناؤه *** و هل يأمن الإنسان من ربه المكرا

قوله سبحانه : وَ مَكَرُوا مَكْراً وَ مَكَرْنا مَكْراً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ يعني قولهم قبل الآية قالُوا تَقاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ و مكرنا مكرا أي جازيناهم على مكرهم بأنا دمرناهم و قومهم أجمعين أي أهلكناهم عن آخرهم و قيل إن الله تعالى أرسل عليهم صخرة عظيمة أهلكهم بها و قيل أي أبحنا المؤمنين المكر بالكفار بكل ما يقدرون عليه من الإضرار بهم و إلجائهم إلى الإيمان و إنما نسبه إلى نفسه لما كان بأمره

قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الحرب خدعة

كما فعله (صلى الله عليه وآله وسلم) بالمشركين عند اجتماعهم على الإيقاع به فأمر عليا (عليه السلام) بالمبيت على فراشه و الهجرة إلى حيث أمره الله فأضاف ما فعله و فعله المؤمنون إلى نفسه من حيث كان ذلك بأمره و تعليمه كما قال وَ ما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ إلى قوله وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا قال الطبري و الخطيب في تاريخهما و القزويني و الثعلبي في تفسيريهما كان مكر الله بيات علي على فراش النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) .

قال الشاعر :

[١٧٨]

و لما سرى هادي النبي مهاجرا *** و قد مكر الأعداء و الله أمكر

و نام علي في الفراش بنفسه *** و بات ربيط الجأش ما كان يذعر

فكان مكان المكر حيدرة الرضى *** من الله لما كان بالقوم يمكر

فيكون المعنى أن الله تعالى يرد مكركم عليكم كما يقال إن فلانا أراد أن يخدعني فخدعته و قصد إلى أن يمكر بي فمكرت به و على هذا يؤول وَ جَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ لأن الثاني لا تكون سيئة و إنما يكون جزاء و هكذا في آية الاستهزاء .

قوله سبحانه : كَذلِكَ كِدْنا لِيُوسُفَ أي علمنا يوسف من جهة الخفية دون الظاهر و ذلك أن الحكم كان في أيام العزيز من سرق شيئا أخذ بسرقة و ملك .

قوله سبحانه : يُخادِعُونَ اللَّهَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ ما يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ الخداع مشتق من الخدع و هو إخفاء الشيء مع إيهام غيره و منه المخدع و الخدع التغير .

أنشد :

طيب الريق إذا الريق خدع

أي تغير و فسد قال أبو عبيدة يُخادِعُونَ اللَّهَ بمعنى يخدعون .

و خادعت المنية عنه سرا

و مثل ذلك قولهم قاتله الله و عافاه الله و معناه أن المنافق يخادع الله بلسانه خلاف ما في قلبه و الله يخادعه بما فيه نجاة نفسه قال الحسن و الزجاج و الأزهري معنى يُخادِعُونَ اللَّهَ أنهم يخدعون نبيه كما قال وَ إِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ و قيل إنهم ينافقون و الله يجازيهم على فعلهم كما قال وَ إِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا * وَ جَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها .

قوله سبحانه : إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً أي يحتالون في دفع الحجج و إنكار الآيات وَ أَكِيدُ كَيْداً أي أجازيهم على كيدهم و سمي الجزاء على الكيد باسمه لازدواج الكلام و قيل إنهم يحتالون لإهلاك النبي و أصحابه و أنا أسبب لهم النصر و الغلبة و أقوي دواعيهم إلى القتال فسمي ذلك كيدا حيث يخفى عليهم وجه ذلك .

[١٧٩]

قوله سبحانه حاكيا عن إبليس رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِي إنه كلام إبليس و إنه ليس ممن يقبل قوله و إن أبانا آدم هو الصدوق المعتمد قالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فاعترف أنه الظالم لنفسه فيما يتعاطى من ترك المذنوب إليه و لم يضفها إلى ربه فقوله أصح و كلامه أثبت و إن إبليس قد اعترف في الآخرة اضطرارا في قوله وَ ما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَ لُومُوا أَنْفُسَكُمْ ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَ ما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ ثم إنه لم يقل إنك أغويتني عن الحق و قال تعالى وَ لا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ و لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ فأخبر أننا مختارون .

قوله سبحانه : وَ لَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلًا وَ لَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ لا تعلق فيه لأنه قال لو فعلت كذا لفعلت و ليس يوجب ذلك بأنه يفعله ؛ و قد قال في نظمه :

لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْناهُ

و ليس ذلك بمجوز أن يفعله .

قوله سبحانه : وَ هُوَ شَدِيدُ الْمِحالِ فتأويله مثل ما قلنا في الكيد و المكر .

قوله سبحانه : وَ أَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا ... الآية أبى ذو الكلاع الحميري قتال علي (عليه السلام) فوضع عمرو بن العاص أن السعيد من سعد في بطن أمه و الشقي من شقي في بطن أمه و انتحله إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و قارنه بهذه الآية فبايع ذو الكلاع معاوية فانتشر ذلك في بني أمية و أتباعهم إلا عمر بن عبد العزيز فإنه لم يقبله فإن صح الخبر فتأويله و تأويل الآية إن السعيد و الشقي من يظهر أمره في قبره لأن الأم كل ما يرجع إليه قوله فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ و الأرض هو المرجع قوله مِنْها خَلَقْناكُمْ وَ فِيها نُعِيدُكُمْ و قوله أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفاتاً أَحْياءً وَ أَمْواتاً و قال الضحاك المعنى أن الذين سعدوا

بطاعات الله يدخلون الجنة خالدين فيها و استثني من جملتهم من كان مستحقا للنار و لو أراد عقابهم ثم إخراجهم منها فكأنه قال خالدين فيها إلا مدة ما كانوا معاقبين في النار و ذلك صحيح لإجماع الأمة على جواز

[١٨٠]

إخراج بعض الأشقياء من النار بعد دخولهم فيها و سمع الحسن قول أبي معشر الكوفي إن الله خلق خلقا و قال هؤلاء للجنة و هؤلاء للنار فقال يا لكع أ و جعله الله قرعة بين عباده .

موسى بن جعفر (عليه السلام) : ليس من العدل أن يشترك اثنان في فعل فيعذر القوي و يلام الضعيف .

و حقيقة السعادة أنه يتأتى له ما يريد الوصول إليه من المنافع و دفع المضار و هذا لا يوجب ما زعموا .

قوله سبحانه : رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا الغلبة أنما تصح من القادر الحي و لا وجه لإضافة الغلبة إلى الشقاوة على أن السعادة و الشقاوة أنما يستعمل في إصابة الخير و حرمانه .

قوله سبحانه : وَ لَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ الظاهر أنه خلقهم لجهنم و لا يوجب ذلك أنه يريد منهم الكفر و أنه يريد العقاب و إن لم يرد ما يستحق به ذلك كما يريد التوبة من الفاسق و إن لم يرد ما لأجله يجب التوبة و لام لجهنم لام العاقبة دون غرض الفعل لأنه قال في آخره أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ و كيف يقول ذلك و إنما فعلوا ما له خلقوا و كيف يذمهم لفعل ما خلقهم له و أراده منهم و لام كي التي تكون لغرض الفعل يدخل على الأفعال دون الأسماء و يناقض قوله وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ فإذا خلقهم لعبادته فكيف يخلقهم لجهنم و إذا كان خلق جميعهم للعبادة فقد شاء من جميعهم العبادة .

بيت :

و ما الناس إلا للعبادة خلقهم *** و لكن تعدى من تعدى على خير

و يدل على أنه لام العاقبة قوله فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَناً و آل فرعون لم يلتقطوه لذلك و إنما التقطوه لقوله قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَ لَكَ .

فللموت تغذوا الوالدات سخالها *** كما لخراب الدور تبنى المساكن

قوله سبحانه : وَ لا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِذلِكَ خَلَقَهُمْ يعني به من أسلم من هؤلاء المختلفين لأنهم إذا أسلموا ارتفع الخلاف بينهم و صاروا متفقين على الخير و لذلك خلقهم لأن يرحمهم ابتداء و أن يرحمهم على فعل أو خلق النصارى ليخالف

[١٨١]

اليهود و اليهود ليخالف النصارى كما حكى عنهم وَ قالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَ قالَتِ النَّصارى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ و قال الحسن إنهم يختلفون بالأرزاق و الأحوال و تسخير بعضهم لبعض .

قوله سبحانه : فَأَغْرَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ أي إغراء اليهود بمعاداة النصارى في ادعاء النصارى أن لله ولدا و اعتقادهم التثليث و إغراء النصارى بمعاداة اليهود بجحدهم بنبوة المسيح و شتمهم أمه و قال البلخي يكون الإغراء بين النصارى خاصة بعضهم لبعض على ظاهر الآية و هو أن الله تعالى نصب الأدلة على إبطال كل فرقة من فرق النصارى فإذا عرفت طائفة منها فساد مذهب الأخرى فيما نصب الله لها من الأدلة و إن جهلت فساد مقالة نفسها لتفريطها في ذلك و سوء اختيارها فجاز على هذا إضافة الإغراء إلى الله تعالى .

قوله سبحانه : يا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ معنى تتقون للتقوا لأن لعل بمعنى لام كي و عند المفسرين لعل من الله واجب فإذا كان خلق جميعهم للتقوى فقد أراد من جميعهم التقوى .

قوله سبحانه : وَ هذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَ اتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ أمر من الله باتقاء معاصيه و اتباع نبيه لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ لكي ترحموا و إنما قال وَ اتَّقُوا لَعَلَّكُمْ مع أنهم إذا اتقوا

رحموا لا محالة لأمرين أحدهما اتقوا على رجاء الرحمة لأنكم لا تدرون ما توافون في الآخرة و الثاني اتقوه لترحموا و معناه ليكون الغرض بالتقوى منكم طلب ما عند الله من الرحمة و الثواب .

قوله سبحانه : حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ ... الآية فيها دلالة على أنهم كانوا يقدرون على الطاعة فتمنوا الرجوع ليعملوا الخير بخلاف ما تقول المجبرة .

[١٨٢]

قوله سبحانه : فَهَلْ لَنا مِنْ شُفَعاءَ فَيَشْفَعُوا لَنا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ يدل على أنهم كانوا قادرين على الإيمان في الدنيا فلذلك طلبوا تلك الحال و لو لم يكونوا قادرين لما طلبوا الرد إلى الدنيا و إلى حالهم الأولى و تدل أيضا على بطلان مذهب الحسين النجار في تكليف أهل الآخرة و هو خلاف القرآن و الإجماع .

قوله سبحانه : لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ و لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ و لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ و لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ و لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ و لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ فيها دلالات على أن الله تعالى أراد منهم المذكورات لأن كلها لامات الغرض .

فصل :

قوله تعالى : وَ أَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقاً لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ قال أكثر المفسرين إنه لو استقام العقلاء على طريقة الهدى و استمروا عليها و عملوا بموجبها لجازاهم على ذلك بأن أسقاهم ماء غدقا أي كثيرا و في ذلك ترغيب في الهدى و قال الفراء معناه و أن لو استقاموا على طريقة الكفر لفعلنا بهم ما ذكرناه تغليظا للمحنة في التكليف و لذلك قال لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ .

قوله سبحانه : فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً علمنا في الجملة أن هذه الآيات مخصوصة فلا نعتقد فيها تخصيص و ليس يلزمنا أكثر من ذلك و من تكلف و قال إنما فتح أبواب كل شيء ليفرحوا و يبطروا فيستحقوا العقاب قلنا انصرفنا عنه بدليل كما انصرفنا عن آيات الجبر و التشبيه ثم إن

لفظة الكل هاهنا المراد به التكثير دون العموم مثل قوله وَ أُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ و قوله وَ لَقَدْ أَرَيْناهُ آياتِنا كُلَّها و يقال هذا قول أهل العراق و أهل الحجاز و يراد به قول أكثرهم .

[١٨٣]

قوله سبحانه : وَ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً يريد الله ألا يجعل لهم حظا في الآخرة الإرادة لا تتعلق بألا يكون الشيء و إنما تتعلق بما يصح حدوثه قال ابن إسحاق يريد الله أن يحبط أعمالهم بما استحقوه من المعاصي و الكبائر و قال غيره إن الله يريد أن يحكم بحرمان ثواب الذين عوضوا بتكليفهم و هو لائق بمذهبنا لأن الإحباط باطل .

قوله سبحانه : وَ لَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ما تَرَكَ عَلَيْها مِنْ دَابَّةٍ وَ لكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى يعني أنه تعالى لو يؤاخذ الكفار و العصاة بذنوبهم و يعاجلهم بعقوباتهم لما ترك على الأرض أحدا من الظالمين و إنما يؤخرهم تفضلا منه ليتوبوا و لما في ذلك من المصلحة لباقي المكلفين ليعتبروا بهم و الوجه في تعميمهم بالإهلاك مع أن فيهم مؤمنين أن الإهلاك و إن عمهم فهو عقاب الظالم دون المؤمن لأن المؤمن يعوض عليه على أن ذلك يكون خاصة و التقدير ما ترك عليها من دابة من أهل الظلم ثم إنه لو هلك الآباء بكفرهم لم يؤاخذ الأبناء .

قوله سبحانه : يا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ آمِنُوا إلى قوله فَنَرُدَّها عَلى أَدْبارِها قال ابن عباس المعنى عبد الله بن سلام و غيره فلما أسلموا دوفع عنهم و قال أبي و كعب الطمس إن ترد عن بصائر الهدى و تحول الوجوه إلى الأقفاء و يكون المعنى أن يحول بالمعصية و تسمى بالضلال و قال الحسن و مجاهد و الضحاك و السدي نطمسها عن الهدى فنردها على أدبارها في ضلالتها ذما لها بأنها لا تنصلح أبدا و إن كانوا في الضلالة في الحال فتوعدهم بأنهم متى لم يؤمنوا بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ازدادوا بذلك ضلالا إلى ضلالتهم و إما أن يسألهم أن يؤمنوا من بعد و هو المروي عن أبي جعفر (عليه السلام) و يقال يكون ذلك في القيامة تقلب وجوههم إلى أدبارهم .

[١٨٤]

فصل

قوله تعالى : وَ إِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا مُتْرَفِيها فَفَسَقُوا فِيها فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً الإهلاك على سبيل الامتحان أو الاستحقاق حسن و إنما يقبح إذا كان ظلما و الله تعالى منزه عن ذلك و لا ظاهر الآية يقتضي ذلك و إذا قامت الدلالة على أنه تعالى منزه عن القبائح علمنا أن هذه الآية لم تتعلق إلا بالإهلاك الحسن قوله أَمَرْنا مُتْرَفِيها المأمور به محذوف و ليس يجب أن يكون المأمور به هو الفسق و إن وقع بعده الفسق و هذا كما يقول أمرته فعصى و دعوته فأبى و المراد أمرته بالطاعة و دعوته إلى الإجابة و إنه تعالى لم يعلق الإرادة إلا بإهلاك مستحق بما تقدم من الذنوب و الذي حسن قوله إِذا أَرَدْنا هو أن في تكرار الأمر بالطاعة و الإيمان إعذارا إلى العصاة و إنذارا لهم و إثباتا للحجة عليهم حتى يكونوا متى خالفوا بعد تكرار الإنذار ممن يحق عليه القول و يجب عليه الحجة يوضح ذلك قوله قبل الآية وَ ما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا و يكون أَمَرْنا مُتْرَفِيها من صفة القرية و صلتها و لا يكون جوابا لقوله وَ إِذا أَرَدْنا و يكون تقدير الكلام و إذا أردنا أن نهلك قرية من صفتها أنا إذا أمرنا مترفيها ففسقوا فيها و لم يأت لها جواب ظاهر في الآية للاستغناء عنه بما في الكلام من الدلالة عليه نحو حَتَّى إِذا جاؤُها وَ فُتِحَتْ أَبْوابُها وَ قالَ لَهُمْ خَزَنَتُها سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خالِدِينَ وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ ... الآية و لم يأت لإذا جواب في طول الكلام للاستغناء عنه .

قال الهذلي :

حتى إذا سلكوهم في قنائدة *** شلا كما تطرد الحمالة الشردا

حذف جواب إذا و البيت آخر القصيدة و يكون ذكر الإرادة في الآية مجازا و إنهم متى أمروا فسقوا و يجري ذكر الإرادة في الآية هاهنا مجرى قولهم إذا أراد التاجر أن يفتقر أتته النوائب من كل جهة و الخسران من كل طريق و قولهم إذا أراد العليل أن يموت خلط في مأكله و تسرع إلى ما تتوق إليه نفسه و هذا كقوله فَوَجَدا فِيها جِداراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقامَهُ و يحمل الآية على التقديم و التأخير فيكون تلخيصها إذا أمرنا مترفي قرية بالطاعة فعصوا و استحقوا العقاب أردنا إهلاكهم و يشهد بذلك قوله يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ و قوله وَ إِذا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ و الطهارة قبل القيام إلى الصلاة و قيام الطائفة معه يكون قبل إقامة الصلاة و يحتمل كأنه قال تعالى و إذا أردنا أن نهلك قرية مأمورا مترفوها كررنا الأمر

عليهم أو أعدنا للوعظ لهم أو أمرناهم ثانيا ففسقوا فيها فحق عليهم القول و يمكن أن يتحمل لإذا في الآية جواب و هو أن يجعل الفاء في قوله فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً زائدة و يجعل دمرناها جوابا لإذا كقولهم أخوك فمجده و زيدا فاضرب و عمرا فأكرمه و منه وَ ثِيابَكَ فَطَهِّرْ وَ الرُّجْزَ فَاهْجُرْ .

قوله سبحانه : سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ لا يقتضي أكثر من أنه يستدرج من كذب بآياته و لم يذكر ما يستدرجه إليه و أصله من الدروج و هو الهلاك و يقال من دب و درج و سينه لا يمكن إجراؤها عن السؤال في أوصافه قال ابن عباس إنهم كلما أحدثوا خطيئة جدد لهم نعمة و إنما يستدرجهم إلى الضرر و العقاب الذي استحقوه بما تقدم من كفرهم و لله تعالى أن يعاقب المستحق بما شاء أي وقت شاء فكأنه تعالى لما كفروا و بدلوا نعمه و عاندوا رسله لم يغير نعمه في الدنيا بل أملهم إلى وقت أراد و لو جاز أن يستدرجهم إلى الكفر ثم يعذبهم عليه لجاز أن يعذبهم ابتداء و لو جاز أن يأمرهم بالفسق لكانوا بفعله مطيعين ففسقوا فيها دال على أنه إنما أمرهم بالطاعة فصاروا بمفارقة أمره فاسقين و لو كان أمرهم بالفسق ففعلوا ذلك لكانوا بذلك مطيعين و الإرادة لإهلاك قوم قد يكون حسنا إذا كانوا مستحقين و قد بين أنه لا يهلك أحدا إلا بالاستحقاق قوله وَ ما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى * وَ ما كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرى .

فصل :

قوله تعالى : فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كافِرُونَ ابن عباس و قتادة في الكلام تقديم و تأخير فلا يعجبك يا محمد و لا يعجب المؤمنين معك أموال هؤلاء الكفار و المنافقين و لا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة عقوبة لهم على منعهم حقوقها و مثله فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ ما ذا يَرْجِعُونَ المعنى فألقه إليهم فانظر ما ذا يرجعون ثم تول عنهم و معنى التعذيب بالأموال و الأولاد في الدنيا ما هو جعله للمؤمنين من قتالهم و غنيمة أموالهم و سبي أولادهم و في ذلك إيلام لهم و قد أخبر الله تعالى نبيه (عليه السلام) أنه يرزق الكفار الأولاد و الأموال لا لكرامة لهم بل للمصلحة

الداعية إلى ذلك و أنهم مع هذه الحال معذبون بها بالوجه المذكور و المراد بذلك كل ما يدخل عليهم في الدنيا من الغموم و المصائب بأموالهم عقاب و جزاء و هو للمؤمنين محنة و جالبة للعوض و يجوز أيضا أن يراد به ما ينذر به الكافر قبل موته و عند احتضاره و عند انقطاع التكليف عنه مع أنه حي من العذاب الدائم الذي قد أعد له و إعلامه أنه صائر إليه و منتقل إلى قراره الحسن و الطبري المراد بذلك ما ألزمه هؤلاء الكفار من الفرائض و الحقوق في أموالهم لأن ذلك يؤخذ منهم على كره و هم إذا أنفقوا بغير نية فتصير نفقتهم غرامة و عذابا من حيث لا يستحقون عليها أجرا و هذا غير صحيح و قال المرتضى تقدير الآية أنما يريد الله ليعذبهم بأموالهم و أولادهم الواقع ذلك منهم في الحياة الدنيا من إنفاقهم الأموال في وجوه المعاصي و حملهم الأولاد على الكفر .

قوله سبحانه : وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ أي يموتون على الكفر و ليس يجب إن كان مريدا لا تزهق أنفسهم و هم على هذه الحال أن يكون مريدا للحال نفسها على ما ظنوه لأن الواحد منا قد يأمر غيره و يريد منه أن يقاتل أهل البغي و هم محاربون و لا يقاتلهم و هم منهزمون و لا يكون مريدا لحرب أهل البغي للمؤمنين و إن أراد قتالهم على هذه الحال و كذلك قد يقول لغلامه أريد أن تواظب إلي في السجن و أنا محبوس و للطبيب صر إلي و لازمني و أنا مريض و لا يريد الحبس و لا المرض و إن كان قد أراد ما هو متعلق بهاتين الحالتين و لا يكون قوله وَ هُمْ كافِرُونَ حالا لزهوق أنفسهم بل يكون كأنه كلام مستأنف و التقدير فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ و هم مع ذلك كلهم كافرون صائرون إلى النار و تكون الفائدة أنهم مع عذاب الدنيا قد اجتمع عليهم عذاب الآخرة و يكون معنى تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ على هذا الجواب غير الموت بل المشقة الشديدة .

قوله سبحانه : وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ لم يقل إلا و قد آمن به في الماضي و إنما قال إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ في مستقبل من الزمان فيجوز أن يكون ذلك عند

[١٨٧]

نزول عيسى و خروج المهدي (عليه السلام) و يجوز أن يريد بقوله قَبْلَ مَوْتِهِ إذا عاين حاله لأن المعاين لم يمت إلا و قد عرف ما كان عليه من هدى أو ضلال .

قوله سبحانه : سَيَصْلى ناراً ذاتَ لَهَبٍ لما سمع أبو لهب هذه السورة لو كان آمن لكان فيه تكذيب الله تعالى و إن لم يجب عليه الإيمان فهو خلاف الإجماع الجواب خبر الله تعالى مشروط بأنه سيصلى نارا إن لم يؤمن و يجب عليه أن يعلم ذلك و أنه يدل على صدق معجزة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) .

قوله سبحانه : ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا إجماع أن الله تعالى لا يطلق الكفر به و الشتم له و الفرية عليه فالمجوز له خارج عن الإجماع و قوله يَلْعَبُونَ ليس بجواب ذَرْهُمْ .

قوله سبحانه : وَ لكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ أخبر أنه منعهم من الخروج فليسوا يخلون من أن يكونوا قادرين على الخروج أو غير قادرين فمنع غير قادرين محال و إن كانوا قادرين و قد منعهم الله فقد صح مذهبنا و بعد فقوله وَ لكِنْ كَرِهَ اللَّهُ و الله تعالى غير كاره على قاعدتكم .

فصل :

قوله تعالى : وَ إِذْ نَجَّيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ يُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَ فِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ قوله وَ فِي ذلِكُمْ إشارة إلى المقدم ذكره من إنجائه من المكروهات و قالوا إنه معطوف على ما تقدم من قوله يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ... الآية و البلاء مشترك بين الخير و الشر قوله وَ نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً وَ لِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً و هو الاختيار قوله وَ بَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَ السَّيِّئاتِ و مصدر بلي الثوب يبلى قال الراجز المرء يبليه السربال و يقال قد أبلى فلان في الحرب و إذا وقعا على الأمرين لم يكن الخصم في رده إلى المحنة بأسعد منا في رده إلى النعمة على أنه في الإنعام أولى لقوله وَ إِذْ أَنْجَيْناكُمْ فبين أنه أنجاهم من قتلهم الأبناء و استحيائهم

النساء ثم قال وَ فِي ذلِكُمْ بَلاءٌ أي نعمة و لو كان كما زعموا لم يكن ذلك امتنانا عليهم و لكان موجبا إسقاط اللائمة من فرعون فيما كان يفعله و أما إضافة النجاة إليه تعالى و إن كانت واقعة بسيرهم لو دل على ما ظنوه لوجب إذا قلنا إن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنقذنا من الشرك و أخرجنا من الضلالة و نجانا من الكفر أن يكون

فاعلا لأفعالنا و يقال أنا نجيتك من كذا و كذا و خلصتك و لا يريد أنه فعل فعله فلهذا صح أن ما وقع بتوفيق الله تعالى و دلالته و معونته و ألطافه قد يصح إضافته إليه تعالى و قوله وَ إِذْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يخاطب بذلك من لم يدرك فرعون فلأنجى من شره هذا كما يقال قتلناكم يوم عكاظ المعنى و إذ أنجينا آباءكم و أسلافكم و النعمة على السلف نعمة على الخلف .

قوله سبحانه : اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ الاستهزاء إما يقصد به إلى عيب المستهزئ به و الإزراء عليه و إذا تضمنت التخطئة و التجهيل و التبكيت هذا المعنى جاز أن يجري عليه اسم الاستهزاء و يشهد بذلك قوله وَ قَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتابِ أَنْ إِذا سَمِعْتُمْ آياتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِها وَ يُسْتَهْزَأُ بِها و الآيات لا يصح عليها الاستهزاء و السخرية و إنما المعنى إذا سمعتم آيات الله يكفر بها و يرزأ عليها و قد يقام الشيء مقام ما قاربه في معناه ليجري عليه اسمه .

سكت الدهر زمانا عنهم *** ثم أبكاهم دما حين نطق

و إنه تعالى يجازيهم على استهزائهم فسمى الجزاء على الذنب باسم الذنب كما قال وَ جَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها و قال فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ و قال وَ إِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ .

و قال عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهلن أحد علينا *** فنجهل فوق جهل الجاهلينا

و العرب تقول الجزاء بالجزاء و الأول ليس بجزاء و لا شك أن ما وقع منه تعالى ليس باستهزاء على الحقيقة و لكنه سماه بذلك ليزدوج اللفظ و يخف على اللسان و قيل استهزاؤهم لما رجع ضرره عليهم جاز أن يقول عقيب ذلك اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ و الله تعالى هو الذي يرد استهزاءهم عليهم و إن ضرر ما فعلوه لم يتعدهم كما يقال أراد فلان أن يخدعني فخدعته المعنى أن ضرر خداعه عاد إليه و لم يضررني و قيل الاستهزاء من الله هو الإملاء الذي يظنونه إغفالا و روي أن ذلك يكون في القيامة كما جاء في التفسير قوله كُلَّما أَرادُوا أَنْ

يَخْرُجُوا مِنْها أُعِيدُوا فِيها و استهزاء الله تعالى الإهلاك و التدمير و استهزاء الخلق السفه و العنف و لا خلاف أن المبتدأ ليس بعقوبة و لا جزاء و يجري هذه مجرى قوله يُخادِعُونَ اللَّهَ وَ هُوَ خادِعُهُمْ * وَ يَمْكُرُونَ وَ يَمْكُرُ اللَّهُ * إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ .

قوله سبحانه : فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِياءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ما لام هؤلاء على ما لم يفعلوا و لم يدركوا و إنما ذلك كقولهم هزمناكم يوم الجفار و فضحناكم يوم الستار أي قتلت آباؤنا آباءكم ثم إنه لما كانت الأبناء راضية بما صنعت الآباء دخلوا معهم في الغضب و شاركوهم فيه .

قوله سبحانه : وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَ لْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ وَ ما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ إن الله لا يؤاخذ أحدا بذنب غيره فلا يصح إذا أن يتحمل أحد ذنب غيره كما قال وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى و ليس ذلك بمنزلة تحمل الدية عن غيره لأن الغرض في الدية أداء المال عن نفس المقتول فلا فصل بين أن يؤديه زيد عن نفسه و بين أن يؤديه عمرو عنه لأنه بمنزلة قضاء الدين .

قوله سبحانه : وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَ أَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ معناه أنهم يحملون خطاياهم في أنفسهم التي لا يعملونها لغيرهم و يحملون الخطايا التي ظلموا بها غيرهم فحسن لذلك فيهم التفصيل الذي ذكر الله تعالى .

قوله سبحانه : لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ مِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ و قوله أَ تُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا و قوله إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَ إِثْمِكَ و أشباهها إذا عرض على العقل و الكتاب و السنة و الإجماع بطل ذلك و لا يجوز في العقل أن يفعل ما هو ظلم و الأخذ بغير الجرم ظلم فهو غير فاعل له و الحمل المعقول أنما هو حمل شيء به ثقل و الوزر في اللغة الثقل و من نقل الحمل و الوزر عن ذلك كان تاركا للظاهر و المعلوم أن من حمل من ثقل غيره يكون ذلك تخفيفا عنه و لا خلاف أنه لا يخفف عن

المحمول من أوزارهم لأنهم يقولون إن هؤلاء لا يحملون من أوزارهم من غير أن يخفف عنهم و من أوزار الذين يضلونهم بغير علم أي من أوزار إضلال الذين يضلونهم مثل قوله وَ سْئَلِ الْقَرْيَةَ و في القرآن قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّما أَضِلُّ عَلى نَفْسِي * وَ لا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْها * وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى و أشباهها و بالإجماع لا يجوز ذلك من حيث إن ذلك يوجب التخفيف عنه فمعناه أنهم يحملون مثل أوزارهم لإغوائهم و ذلك أنهم فعلوا فعلين ضلوا و أضلوا فاستحقوا حظين من العذاب و تحملوا حملين من الوزر .

بيت :

بذنبها تؤخذ كل وازرة

فصل :

قوله تعالى : اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ النور و الظلمة المذكوران في الآية جائز أن يكون المراد بهما الجنة و النار و الثواب و العقاب و قد تصح الكناية عن الثواب و النعيم في الجنة بأنه نور و عن العقاب في النار بأنه ظلمة و إذا كان المراد بهما الجنة و النار ساغ إضافة إخراجهم من الظلمات إلى النور لأنه لا شبهة في أنه تعالى هو المدخل المؤمن الجنة و العادل به من طريق النار فلو حمل على الإيمان لتناقض المعنى و لصار تقدير الكلام أنه يخرج المؤمن من الكفر إلى الإيمان و إذا كان الكلام يقتضي الاستقبال في إخراج المؤمن من الظلمات كان حمله على ذكر طريق الجنة و العدول بهم عن طريق النار أشبه بالظاهر و بعد فلو كان الأمر على ما ظنوه لم صار الله تعالى وليا للمؤمنين و ناصرا لهم على ما اقتضته الآية و الإيمان من فعله لا من فعلهم و لم كان خاذلا للكفار و مضيفا لولايتهم إلى الطاغوت إذا كان من فعله و لم فصل بين الكافر و المؤمن في باب الولاية و هو المتولي للأمرين فيهما و فيه كلام كثير

قوله سبحانه : قالَ أَ تَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ وَ ما تَعْمَلُونَ أي ما تعملون في الحجارة و الخشب و غيرهما مما كانوا يتخذونه آلهة و يعبدونها و لم يرد أنكم تعبدون نحتكم الذي هو فعل لكم بل أراد ما تفعلون فيه النحت كما قال فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ و مثله وَ أَلْقِ ما فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ ما صَنَعُوا و عصا موسى لم تكن تلقف إفكهم و إنما كان تلقف

الأجسام التي هي العصي و الحبال ثم إنه أخرج الكلام مخرج التوبيخ لهم لعبادتهم الأصنام فلو كان ذلك من فعله تعالى لما توجه عليهم العتب بل يكون لهم الحجة لا عليهم و متى

[١٩١]

لم يكن المراد ما تعملون فيه ليصير تقدير الكلام ما تعبدون الأصنام التي تنحتونها و الله خلقكم و خلق هذه الأصنام التي تفعلون فيها التخطيط و التصوير لم يكن للكلام معنى على أن إضافة العمل إليهم بقوله تَعْمَلُونَ يبطل تأويلهم الآية لأنه لو كان خالقا لها لم يكن عملا لهم لأن العمل أنما يكون عملا لمن أحدثه فكيف يكون عملا لهم و الله خلقه و إن قوله وَ ما تَعْمَلُونَ يقتضي الاستقبال و كل فعل لم يوجد فهو معدوم و محال أن يقول تعالى إني خالق للمعدوم و لو كان كما ظنوه لقال و الله خلقكم و خلق عبادتكم للأصنام فيكون عاذرا و مزيلا اللوم عنهم لأن الإنسان لا يذم على ما خلق فيه و الخلق إذا كان بمعنى التقدير فقد يكون الخالق خالقا لفعل غيره إذا كان مقدرا يقال خلق الأديم إذا قدر و إن الله تعالى قال إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً * لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ و هذه الآية تدل على بطلان الجبر و إن الله تعالى لا يريد من الكفار الكفر لأنه صرح هاهنا أنه يريد من جميع المكلفين الإيمان و الطاعة .

قوله سبحانه : أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً هذه الآية تدل على أربعة أشياء أحدها على بطلان التقليد و صحة الاستدلال في أصول الدين لأنه حث و دعا إلى التدبر و ذلك لا يكون إلا بالفكر و النظر و الثاني يدل على فساد مذهب الجبرية و الحشوية أن القرآن لا يفهم معناه إلا بتفسير الرسول (عليه السلام) لأنه تعالى حث على تدبره ليعلموا به و الثالث يدل على أنه لو كان من عند غير الله لكان على قياس كلام الخلق من وجوه الاختلاف فيه و الرابع يدل على أن المتناقض من الكلام ليس من فعل الله لأنه لو كان من فعله لكان من عنده لا من عند غيره .

منصور الفقيه :

لي جار جمعت فيه من الشر أمور *** كلما أبصر شخصي ظل يغلي و يفور

لا لجرم غير أني قلت ربي لا يجور

قوله سبحانه : وَ لَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ اللام لام العاقبة و المعنى أنه خلق الخلق كلهم و تصير عاقبة كثير منهم إلى جهنم بسوء اختيارهم من الكفر بالله و ارتكاب معاصيه .

[١٩٢]

قوله سبحانه : وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ دليل على أنه لم يخلق الثقلين إلا لعبادته فاللام لام الغرض و لا يجوز أن يكون لام العاقبة لحصول العلم بأن عالما لا يعبدون الله تعالى .

قوله سبحانه : قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ هذا التعوذ أنما هو من شر ما خلق من أنواع خلقه من السباع و الهوام و ما أشبه ذلك مما يؤذي الناس .

قوله سبحانه : وَ ما ذا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ دلالة على بطلان قول المجبرة في أن الكافر لا يقدر على الإيمان لأن الآية نزلت على أنه لا عذر للكافر في ترك الإيمان و لو كانوا غير قادرين لكان فيه أوضح العذر لهم و لما جاز أن يقال و ما ذا عليهم لو آمنوا بالله و إنهم لا يقدرون عليه و لا يجدون السبيل إليه و لذلك لا يجوز أن يقال لأهل النار ما ذا عليهم لو خرجوا منها إلى الجنة من حيث لا يقدرون عليه و لا يجدون السبيل إليه و كذلك لا يجوز أن يقال للمريض ما ذا عليه لو كان صحيحا و لا للفقير ما ذا عليه لو كان غنيا .

ابن الصوفي :

من رأى الظلم قبيحا فعله *** لا لنهي الآمر المقتدر

ثم لا يأمن من موبقة *** يزدريها و هي إحدى الكبر

قال مثله بشيء بين *** قلت في التحصيل كسب الأشعري

فصل :

قوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ اعلم أن الله تعالى قد نفى الظلم عن نفسه في الدنيا و الآخرة فأما في الدنيا فقوله وَ مَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً * وَ ما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ * ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْقُرى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ * أَ لَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ * وَ ما ظَلَمْناهُمْ وَ لكِنْ كانُوا * وَ ما كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرى * وَ ما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى و نحوها و أما في الآخرة فقوله ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَ ما أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ * ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ * وَ وَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً * وَ لا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً * وَ وُضِعَ الْكِتابُ

[١٩٣]

وَ جِيءَ بِالنَّبِيِّينَ * الْيَوْمَ تُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ * لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ

دخل يزيد بن معاوية الشامي على الرضا (عليه السلام) بمرو و سأل عن قول الصادق (عليه السلام) لا جبر و لا تفويض بل أمر بين الأمرين فقال (عليه السلام) من زعم أن الله فعل أفعالنا ثم يعذبنا عليها فقد قال بالجبر و من زعم أن الله فوض أمر الخلق و الرزق إلى حججه فقد قال بالتفويض و القائل بالجبر كافر و القائل بالتفويض مشرك قال فما أمر بين أمرين فقال (عليه السلام) وجود السبيل إلى إتيان ما نهوا عنه قال فهل لله إرادة و مشية في ذلك فقال أما الطاعات فإرادة الله و مشيته فيها الأمر بها و الرضا بها و المعاونة عليها و إرادته و مشيته في المعاصي النهي عنها و السخط لها و العقوبة عليها و الخذلان بها قال فلله فيه القضاء قال نعم ما من فعل فعله العباد من خير و شر إلا و لله فيه القضاء قال فما معنى هذا القضاء قال الحكم عليهم بما يستحقونه على أفعالهم من الثواب و العقاب في الدنيا و الآخرة .

الفقيه الأصفهاني :

أ يكلف الذنب العظيم عباده *** و به يعذبهم فذا ظلمان

و الله ليس بظالم لعباده *** و بذلك أنطق محكم القرآن

قوله سبحانه : وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ و إذا لم يحب الظالم لم يحب فعل الظلم لأنه إنما لم يحب الظالم لظلمه و المحبة هي الإرادة

قوله سبحانه : وَ مَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعالَمِينَ رد على المجبرة لأنه لو أراد ظلم بعضهم لبعض لكان قد أراد ظلمهم و كذلك لو أراد ظلم الإنسان لغيره لجاز أن يريد أن يظلمه هو لأنه لا يفعل ما لا يريد و قوله وَ مَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعالَمِينَ نفي لإرادة ظلمهم على كل حال

قوله سبحانه : وَ ما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ أي بظلم صغير يكون منهم مع أن أكثرهم المصلحون لأن القليل لا يعتد به في جنب الكثير و قيل إن المعنى بظلم منا كما قال إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً .

بيت :

جل إله الخلق *** من ظلم البشر

قوله سبحانه وَ ما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ذكره بلفظ المبالغة في نفي الظلم عن

نفسه و إن كان لا يفعل القليل منه لأنه خرج جوابا للمجبرة و ردا عليهم لأنهم ينسبون كل ظلم في العالم إليه تعالى فبين أنه لو كان كما قالوا لكان ظلاما و إنه ليس بظالم و سئل متكلم لم ورد على وزن فعال الذي صيغ للكثير و هو متنزه عن الظلم اليسير فقال لأنه لو فعل أقل الظلم لكان عظيما منه لأنه غير محتاج إليه مع علمه بقبحه و بأنه غني عنه و القبيح لا يتأتى إلا من جاهل أو محتاج فلو فعله من غير حاجة إليه فهو أعظم من كل ظلم فعله فاعل لحاجة إليه .

فصل :

قوله تعالى : ما أَصابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَ ما أَصابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ قال ابن عباس و الحسن الحسنة ما أصاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يوم بدر من الظفر و الغنيمة و السيئة ما أصابه يوم أحد من كسر رباعيته و قال أبو العالية و أبو القاسم إن الحسنة و السيئة الطاعة و المعصية و يكون المعنى أن الحسنة التي هي الطاعة من أمر الله و ترغيبه فيها و لطفه لها و السيئة بخذلانه على وجه العقوبة على المعاصي المتقدمة و سماه سيئة كما قال وَ جَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها و التقدير ما أصابك من ثواب حسنة

فمن الله لأنه الذي عرضك للثواب و أعانك عليه و أصابك من عقاب سيئة فمن نفسك لأنه تعالى نهاك عنها و زجرك عن فعلها فلما ارتكبتها كنت الجاني على نفسك و يجوز أن يكون المراد بالسيئة ما يصيبهم في دار الدنيا من المصائب لأنه لا يجوز أن يكون ذلك عقابا أو بعض ما يستحقونه و قوله فَمِنْ نَفْسِكَ قال الحسن و قتادة و السدي و ابن جريح و الضحاك أي فبذنبك أضاف المعصية إلى العبد في هذه الآية و نفاها عن نفسه و لو كانت من خلقه لكانت منه على أو كذا لوجوه

قوله سبحانه : وَ إِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ قال الحسن و أبو القاسم و أبو علي هذه حكاية عن

[١٩٥]

المنافقين و قال الزجاج و الفراء إن اليهود لما قدم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) المدينة فكانت إذا زكت ثمارهم و أخصبوا قالوا هذه من عند الله و إذا جدبوا و خاصت ثمارهم قالوا هذا لشوم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) و قال ابن عباس و قتادة الحسنة و السيئة هو السراء و الضراء و البؤس و الرخاء و النعمة و المصيبة و الخصب و الجدب و قال الحسن و ابن زيد هو النصر و الهزيمة و قال ابن زيد قوله مِنْ عِنْدِكَ معناه بسوء تدبيرك و قال الجبائي و البلخي و الزجاج أي بشومك الذي يلحقنا بك كما حكي عن موسى وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسى وَ مَنْ مَعَهُ فأمر الله تعالى نبيه عليه السلام أن يقول إن جميع ذلك من عند الله و الآية معارضة بقوله تعالى وَ يَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ.. . وَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ .

نظم :

و ليس بمجزي كاسب غير ما جنى *** إذا ما سواه كان محتقب الوزر

و ما ذا عليهم قال لو آمنوا و لم *** يقل لمريض لم مرضت و ذي قبر

و لكنه أبدى الخطاب لعاقل *** تباين عن جنس المستبين بالقهر

فصل :

قوله تعالى : لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولًا القضاء له أربعة عشر وجها فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ خلق إِذا قَضى أَمْراً فعل وَ اللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ يفعل و منه

[١٩٦]

سمي القاضي الحاكم وَ قَضى رَبُّكَ أمر وَ قَضَيْنا إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ أعلمنا فهذا يأتي مقرونا بإلى إِذْ قَضَيْنا إِلى مُوسَى الْأَمْرَ عهدنا فَإِذا قَضَيْتُمْ مَناسِكَكُمْ فرغتم فَوَكَزَهُ مُوسى فَقَضى عَلَيْهِ مات قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيانِ وجب أَمْراً مَقْضِيًّا كتابا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إتمام فَلَمَّا قَضى مُوسَى الْأَجَلَ وفى فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ فاصنع لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً يقدر .

النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : يقول الله تعالى من لم يرض بقضائي و لم يشكر لنعمائي و لم يصبر على بلائي فليتخذ ربا سوائي .

زرارة بن أعين قال الصادق (عليه السلام) : إذا كان يوم القيامة و جمع الله الخلائق سألهم عما عهد إليهم و لم يسألهم عما قضى عليهم .

النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : سيكون في آخر هذه الأمة قوم يعملون بالمعاصي ثم يقولون هذه من الله قضاء و قدر فإذا لقيتموهم فأعلموهم أني منهم بريء .

و أتي أمير المؤمنين (عليه السلام) بمفتر قاذف فقال له يا هذا لم قذفت هذا المؤمن فقال يا أمير المؤمنين من قضاء الله و قدره فقال : كذبت يا عدو الله على الله و الله يقضي بالحق و هذا هو الباطل فأمر بحد الفرية ثم أمر ثانيا حتى أقيم عليه حد الافتراء فلما أفاق و قام قال يا أمير المؤمنين جمعت علي بين ما لم يجمع الله علي فقال (عليه السلام) كذبت يا عدو الله ما ضربتك إلا حد الله أما الأربعين فلإفكك على الله حين نسبت إليه قضاء المعصية و أما الثمانين فهو حد القذف .

و قال جميع الحشوية و معظم رواة العامة و نقله أحمد بن حنبل إن عمر بن الخطاب أتي بسارق فقال ما حملك على هذا فقال قضاء الله و قدره : فضربه عمر ثلاثين سوطا ثم قطع يده فقال قطعت يدك بسرقتك و ضربتك بكذبك على الله .

و قال أبو مريم الثنوي لأبي موسى الأسواري ما أحسن دينكم لو لا أنكم تقولون إن الله يقضي هذه الفواحش ثم يعذب عليها فقال الحسن : هذه حجة الله قامت على لسان أبي مريم أعلموه أننا لا نقول هذا إنما يقول السفهاء منا فأسلم أبو مريم .

و قال أبو محمد المدائني أقول إذا أعطيت الكتاب يا رب إني معترف بما فيه و لكن خبرني أ هو شيء ركبته أم شيء قضي علي فإن كنت فعلت فعبدك أخطأ و أساء فإن تعف فبفضلك و إن تعذب فبعدلك و إن كان قضي علي قلت يا معشر الخلائق أين العدل الذي كنا نسمع به في دار الدنيا ليس هاهنا منه قليل و لا كثير .

و قال بعض الناس لو كان الزناء كما قضى الله لكان الرضا به خيرة لإجماع الناس على قولهم الخيرة فيما يصنع الله .

نظم :

أصفع المجبر الذي *** بقضاء السوء قد رضي

فإذا قال لم فعلت *** فقل هكذا قضي

الملك الصالح :

و لو قد قضى الله المعاصي بقولكم *** لمهد للاتي بها أوسع العذر

و لم يعذر الأعمى بما قد قضى به *** عليه و لا أهل الزمانة و الضر

و لكنه لم يعذر السارق الذي تعدى *** و لا الزاني و لا شارب الخمر

يكون معاصي الخلق جورا و باطلا *** و نسبة بارينا لذاك من النكر

و حاشاه يبدأ باطلا في قضائه *** و قد قال يقضي الحق في محكم الذكر

و لكن قضا الله فيها عقابه *** عليها و تعجيل النكال الذي يجري

أ يغضب مما قد قضاه مقدر *** له إن هذا ليس من قول ذي حجر

فكيف يكون الحمد و الذم لامرئ *** على فعله يلجأ إليها و لا يدري

فصل :

قوله تعالى : وَ قَضَيْنا إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ لم يقل قضينا عليهم أو قضينا فسادهم و إنما قال قضينا إليهم في الكتاب فهذا القضاء مما حصل في التورية و القضاء بمعنى الخلق لا يحصل فيها و لا خلاف أنه لا يأمره و قال لتفسدن فأضاف إليهم و أخبر أنهم يفعلون في المستقبل و معناه أنه أخبرهم فيها بفسادهم مرتين يدل عليه وَ قَضَيْنا إِلَيْهِ ذلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ .

الأصبغ بن نباتة و الحسن البصري لما قدم أمير المؤمنين (عليه السلام) من صفين قام إليه شيخ ممن شهد الوقعة فقال يا أمير المؤمنين أخبرنا عن مسيرنا هذا إلى الشام أ كان بقضاء من الله و قدر قال : نعم يا أهل الشام و الذي فلق الحبة و برأ النسمة ما وطئنا موطئا و لا هبطنا واديا و لا علونا تلعة إلا بقضاء من الله و قدر فقال الشامي عند الله أحتسب عناي يا أمير المؤمنين و ما أظن أن لي أجرا في سعي إذا كان قضاء الله علي و قدره فقال (عليه السلام) إن الله قد أعظم لكم الأجر في مسيركم و أنتم سائرون و في منصرفكم و أنتم منصرفون و لم تكونوا في شيء من رحالاتكم مكرهين و لا إليها مضطرين و لا عليها مجبرين فقال الشامي كيف ذاك و القضاء و القدر ساقانا و عنهما كان مسيرنا و انصرافنا فقال (عليه السلام) يا أخا أهل الشام لعلك ظننت قضاء لازما و قدرا حتما و لو كان كذلك لبطل الثواب و العقاب و سقط الوعد و الوعيد و الأمر و النهي من الله و ما كان المحسن بثواب الإحسان أولى من المسيء و لا المسيء أولى بعقوبة المذنبين من المحسن تلك مقالة عبدة الأوثان و خصماء الرحمن و حزب الشيطان و شهداء الزور و أهل العمى عن

الثواب و هم قدرية هذه الأمة و مجوسها إن الله أمر عباده تخييرا و نهاهم تحذيرا و كلف يسيرا و لم يكلف عسيرا و أعطى على القليل كثيرا و لم يطع مكرها و لم يعص مغلوبا و لم يرسل الأنبياء لعبا و لم ينزل الكتب إلى عباده عبثا و لم يخلق السماوات و

الأرض و ما بينهما باطلا ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ... الآية فقال الشامي فما القضاء و القدر اللذان كان مسيرنا بهما فقال (عليه السلام) الأمر بذلك من الله و الحكم به ثم تلا وَ كانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً ثم قرأ وَ قَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ فقام الشامي فرحا مسرورا لما سمع هذا المقال و قال فرجت عني فرج الله عنك يا أمير المؤمنين .

فصل :

قوله تعالى : وَ قَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ لا يجوز بمعنى الخلق إذ لو عنى به جاز أن يوجد في الناس من يعبد سواه و لم يقل إنه قضى عبادتهم و إنما قال قضى ألا تعبدوا و لا يصح أن يقال خلق أن لا يفعلوا كذا و إنما يصح ذلك إذا أردت به الأمر و الحكم .

قوله سبحانه : وَ إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا إنه قادر على ما يشاء غير محتاج إلى الاستعانة بشيء من الأشياء من جرأة و تقليل للفريقين و كيف يقضي ما هو مفعول و المفعول الموجود لا يصح فعله ثانيا و إنما قلل الكفار في أعين المسلمين للجرأة و قلل المسلمين في أعين الكفار للتحرز .

قوله سبحانه : قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي إنه فعل مجهول و لا حكم للمجهول لأنه إما أن يكون فاعله معلوما و لا فاعل له كقوله وَ لَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ و قوله وَ أُلْقِيَ السَّحَرَةُ و إما أن يأتي اللفظ على هذه الصيغة فقط نحو أعجب بكذا و سر به و أشرب قلبه مع زيد و إن أراد به خلق فمعلوم أن الأمر لم يكن مخلوقا وقتئذ و إنما خلق ذلك بعد مدة فالمراد به حكم .

[١٩٩]

قوله سبحانه : قُلْ لَنْ يُصِيبَنا ظاهره أنه لا يصيبهم إلا ما كتب لهم و لم يقل عليهم فليس هو من القضاء في شيء و إنما هو في الثواب و ذلك أن بعده قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنا فالله تعالى أمرهم أن لا يجتنبوهم أنه لا يصيبهم من الثواب لأن في الخير يقول لَها ما كَسَبَتْ و في الشر وَ عَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ .

قوله سبحانه : قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلى مَضاجِعِهِمْ كتب بمعنى فرض و القتل لا يفرض على المقتول و بمعنى حكم و الحكم أنما يكون على سبيل الوجوب و لم يكن هؤلاء مستحقين للقتل و لا كان قتلهم واجبا فيحكم عليهم بذلك و بمعنى الخبر و العلم فيكون معناه أن من أخبر الله بأنه يقتل أو من علم أنه سيقتل إلا أنهما لا يكونان قضاء و لا جبرا و لا يوجبان الأفعال و الفعل لا يتعلق بواحد منهما و لو كان خبره و علمه موجبا للأفعال لأوجب ما أخبر به عن أفعال نفسه و ذلك يوجب أنه مجنون .

قوله سبحانه : فَإِذا جاءَ وَعْدُ أُولاهُما بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجاسُوا خِلالَ الدِّيارِ وَ كانَ وَعْداً مَفْعُولًا لم يقل إن ذلك بقضائي فأما البعث فيجوز أن أرسلهم عليهم بأن أمرهم بذلك على لسان بعض الأنبياء و ذلك أن بني إسرائيل لما أرسل عليهم من عاقبهم على معاصيهم و لم يذكر الله أن ذلك كان معصية و لا ذمهم بل هو كما أمر من الجهاد و السبي و الهدم و الإحراق و كل ذلك يجري مجرى واحد و البعث بمعنى الإرسال بالأمر و التخلية و التمكين يقال بعث فلان أعداءه على مكارهه و لم يأت بمعنى الجبر و القضاء و القدر .

ابن علوية الأصفهاني :

و قضى و قدر كل شيء بالذي *** قد كان منه به على عرفان

فقضاؤه يجري بسابق علمه *** من غير إجبار على العصيان

قدرا قضاه مقدرا بخلاف *** ما أولته بالحدس و الخيلان

و كذا كم يوم الحساب بعدله *** يجزيهم بالقسط في الميزان

لا يظلمون و لا يجار عليهم *** و كفى لهم بالله ذا حسبان

قوله سبحانه : وَ ما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ دلالة على أنه لو كان الله تعالى قضى المعاصي لم يكن لأحد الخيرة و لوجب عليه الوفاء به و من خالف ذلك كان عاصيا و ذلك خلاف الإجماع .

محمد بن البرقي :

و زعمتم أن القضاء أقامه *** لا ذنب للعدوي فيما جاء

فكذا اليهود مع النصارى فاعلموا *** لعنوا بما فعلوا و كان قضاء

و كذلك إبليس اللعين فقايسوا *** تجدوا القياس مع القياس سواء

فصل :

قوله تعالى : وَ قَدَّرَ فِيها أَقْواتَها القدر له خمسة معان الأحداث وَ قَدَّرَ فِيها الكتابة و الأعلام قَدَّرْنا إِنَّها لَمِنَ الْغابِرِينَ و بيان حال الشيء و ما يجيء منه يقال قدر الخياط الثوب و قد يستعمل بمعنى التقدير .

و روي عن الصادق (عليه السلام) : أن التقدير هو العلم .

أمير المؤمنين (عليه السلام) و قد سئل عن القدر فقال : بحر عميق فلا تلجوه و طريق مظلم فلا تسلكوه و سر الله فلا تتكلفوه .

و روي أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : كان إذا مر بصدف مائل أسرع المشي .

ابن بابويه أن عليا (عليه السلام) عدل من عند حائط مائل إلى مكان آخر فقيل له يا أمير المؤمنين تفر من قضاء الله فقال (عليه السلام) : أفر من قضاء الله إلى قدر الله .

و كتب الحسن البصري إلى الحسن بن علي (عليه السلام) يا بني هاشم أنتم اللجج الزاخرة و الأفلاك الدائرة مثلكم مثل سفينة نوح من تمسك بها نجا و قد اختلفنا في القضاء و القدر و تحيرنا في الكسب و الاستطاعة فاكتب إلينا ما عليه مذهب آبائك

فكتب (عليه السلام) : بسم الله الرحمن الرحيم من لم يؤمن بقضاء الله و قدره فقد كفر و من حمل على الله ذنبه فقد فجر إن الله لا يطاع استكراها و لا يعصى بغلبة و هو القادر على ما أقدرهم عليه فإن ائتمروا بالطاعة فلا حاجز بينهم و بينها فهم لها مستطيعون و لما نهوا عنه مستطيعون فلو جبر الله تعالى عباده على الطاعة لسقط عنهم التكليف و لو جبرهم على المعصية لسقط عنهم العقاب فله المنة على المطيع و له الحجة على العاصي سبحانه و تعالى عما يشركون .

و جاء رجل بصري إلى الباقر (عليه السلام) و هو صبي و قال قد فتنا فينا القدر و

[٢٠١]

هربنا إليك فقال (عليه السلام) سل قال ما تقولون في الخير فقال (عليه السلام) اكتب : علم و قضى و قدر و شاء و أراد و رضي و أحب فقال زدني فقال (عليه السلام) هذا خرج إلينا قال فالشر قال علم و قضى و قدر و لم يشأ و لم يرد و لم يرض و لم يحب فقال زدني فقال (عليه السلام) هكذا خرج إلينا قال فخرج الرجل إلى البصرة فنصب له منبر و خطب عليهم بما أفتى فرجع أكثر الناس .

أبو عبد الله الحسين القطان قال جمع الحجاج أهل العلم و سألهم عن القضاء و القدر فقال الشعبي : قال علي (عليه السلام) يا بني آدم من وسع عليك الطريق لم يأخذ عليك المضيق .

و قال عمرو بن عبيد قال علي (عليه السلام) : إذا كانت الخطيئة على الخاطي حتما كان القصاص في القضية ظلما .

و قال واصل بن عطا قال علي (عليه السلام) : ما كان من خير فبأمر الله و ما كان من شر فبعلم الله لا بأمره .

و قال بشر قال علي (عليه السلام) : ما تحمد الله عليه فهو منه و ما تستغفر الله منه فهو منك .

و قال الحسن قال علي (عليه السلام) : أ تظن أن الذي نهاك دهاك إنما دهاك أسفلك و أعلاك و ربك البريء من ذلك فقال الحجاج لم يجدوا ما أخذوا إلا من أبي تراب .

و قال عمر بن عبد العزيز لرجل سأله عن القدر : إن الله لا يطالب بما قضى و قدر و إنما يطالب بما نهى و أمر المسترشد بالله .

إذا كان القضاء علي حتما و كان الأمر يجري بالقضاءفكيف الأمر في خطئي و سهوي و تدبير الأمور إلى سوائي.

ابن ذريك :

يا أمة سلكت ضلالا بينا *** حتى استوى إقرارها و جحودها

قلتم إلى أن المعاصي لم تكن *** إلا بتقدير الإله وجودها

لو صح ذا كان الإله بزعمكم *** منع الشريعة أن تقام حدودها

حاشا و كلا أن يكون إلهنا *** ينهى عن الفحشاء ثم يريدها

فصل :

قوله تعالى : إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ لا خلاف أن كل شيء خلقه بقدر و إنما الخلاف فيما خلقه و إنما يعني أن جميع ما خلقه بقدر معلوم بلا تفاوت و أنه خلق الجزاء على الأعمال بمقدار ما يستحقونه لما قبلها ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ .

قوله سبحانه : وَ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ لم يقل إنه قدر ذلك و إنما يريد بمقدار ما يجب و بينهما بون بعيد و لم يقل إنه قدر جميعه و إنما قال كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ مع أن جميع الأشياء في حكمه و علمه بمقدار ليس فيه زيادة و لا نقصان عما يجب .

قوله سبحانه : وَ كانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً القدر المقدور هو ما كان على مقدار ما تقدم من غير زيادة و لا نقصان .

جابر عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : يكون في آخر الزمان قوم يعملون بالمعاصي ثم يقولون الله قدرها علينا الراد عليهم يومئذ كالشاهر سيفه في سبيل الله .

حذيفة قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : لعنت القدرية و المرجئة على لسان سبعين نبيا قيل و ما القدرية قال قوم يفعلون المعاصي ثم يقولون الله قدرها عليهم .

النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : نودي في القيامة أين القدرية خصماء الله و شهداء إبليس فتقوم طائفة من أمتي يخرج من أفواههم النار و دخان أسود .

و حكى أبو القسم البلخي أن عبد الله بن الحسن قال لابنه محمد كل خصالك محمودة إلا قولك بالقدر فقال : يا أبة فشيء أقدر على تركه أو لا أقدر .

معناه إن كنت أقدر على تركه فهو قولي و إن كنت لا أقدر فلا عتب علي فقال عبد الله لا أعاتبك عليه أبدا .

نازع رجل عمرو بن عبيد في القدر فقال له عمرو إن الله تعالى قال في كتابه فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ و لم يقل لنسألنهم عما قضيت عليهم أو قدرته فيهم و أسببته لهم أو أردته منهم و ليس بعد هذا إلا الإقرار بالعدل و السكوت عن الجور لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ و مر الحسن البصري بفضيل بن برجان و هو مصلوب فقال ما حملك على السرقة قال قضاء الله و قدره قال كذبت يا لكع أ يقضي عليك أن تصلب .

النجاشي :

ضربوني ثم قالوا قدر *** قدر الله لهم شر القدر

و اختصم ذو الرمة و رؤبة عند بلال بن أبي بردة في القدر فقال رؤبة ما فحص طائرا فحوصا و لا تقرمص سبع قرموصا إلا بقضاء من الله و قدره فقال له ذو الرمة و الله ما قدر الله على الذئب أن يأكل حلوبة عيالك ضرا بك فقال رؤبة أ فبقدرته أكلها هذا كذب على الذئب ثان فقال ذو الرمة الكذب على الذئب أولى من الكذب على رب الذئب .

باب مما جاء في النبوات

فصل :

قوله تعالى : وَ لَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ و قوله وَ لا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ .

[٢٠٣]

أجمعت الإمامية على تفضيل الأنبياء على الملائكة و يقولون إن الأئمة أفضل منها أيضا و إجماعهم حجة لأن المعصومين من جملتهم و تستدل على ذلك أيضا بقوله وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ لأنه يقتضي تعظيمه عليهم و تقديمه و إكرامه و إذا كان المفضول لا يجوز تعظيمه و تقديمه على الفاضل علمنا أنه (عليه السلام) أفضل من الملائكة و كل من قال إن آدم أفضل من الملائكة قال إن جميع الأنبياء أفضل من جميع الملائكة و الدليل على أن تعبدهم بالسجود كان للتعظيم و التقديم أنفة إبليس من السجود و تكبره عنه قوله أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ و قوله أَ رَأَيْتَكَ هذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ ثم إن من أراد تعظيم آدم نعته بإسجاد الملائكة له .

قوله سبحانه : ما نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ المعنى أن المنهي عن تناول الشجرة غيركما و أن النهي يختص الملائكة و الخالدين دونكما و ليس فيه تفضيل الملائكة .

قوله سبحانه : لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَ لَا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ إن هذا القول متوجه إلى قوم اعتقدوا أن الملائكة أفضل من الأنبياء فأجرى الكلام على اعتقادهم كما يقول القائل لغيره لا يستنكف أبي من كذا و لا أبوك و إن كان القائل يعتقد أن أباه أفضل ثم إنه إنما أخر ذكر الملائكة عن ذكر المسيح لأن جميع الملائكة أكثر ثوابا لا محالة من المسيح منفردا و هذا لا يقتضي أن كل واحد منهم أفضل منه و الخلاف في ذلك .

قوله سبحانه : لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ وَ لا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ لا يدل على أن حال الملائكة أفضل من حال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لأن الغرض في الكلام أنما هو نفي ما لم يكن عليه لا التفضيل لذلك على ما هو عليه أ لا ترى أنه لما تبرأ عن علم الغيب و كون خزائن الله عنده لا يكون فيه فضل يوضح ذلك آخر الآية وَ لا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً و هذه منزلة حطيطة و هو على أحوال أرفع منها فما المنكر

[٢٠٤]

من أن يكون نفي الملائكة عنه في أنه لا يقتضي أن حاله دون حال الملك بمنزلة نفي هذه المنزلة .

قوله سبحانه : وَ قُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما هذا بَشَراً إِنْ هذا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ استدل الجبائي بذلك على تفضيل الملائكة على البشر لأنه خرج مخرج التعظيم و لم ينكره الله تعالى و هذا ليس شيء لأن الله تعالى حكى عن النساء أنهن أعظمن يوسف لما رأين من وقاره و سكونه و بعده عن السوء و قلن ليس هذا بشرا بل هو ملك يعنون أن الملك لا يأكل و لا يشتهي النساء و لم يقصدن كثرة ثوابه على ثواب البشر و كيف يقصدنه و هن لا طريق لهن إلى معرفة ذلك على أن هذا من قول المائلات إليه بما لا يجوز فكيف يحتج بقولهن و إنما لم ينكره الله لأنه تعالى علم أنهن لم يقصدن ما قال الجبائي و لو كن قصدنه لأنكر .

قوله سبحانه : وَ لَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ إلى قوله تَفْضِيلًا فالمراد بقوله عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا إنا فضلناهم على من خلقنا و هم كثير و لم يرد التبعيض كما قال وَ لا تَشْتَرُوا بِآياتِي ثَمَناً قَلِيلًا المعنى لا تشتروا بها ثمنا فكل ثمن تأخذونه عنها قليل و لم يرد التخصيص و المنع من الثمن القليل خاصة و غير ممتنع أن يكون جميع الملائكة أفضل من جميع بني آدم و إن كان من جملة بني آدم الأنبياء (عليهم السلام) من تفضيل كل واحد منهم على كل واحد من الملائكة و قال الطوسي المراد بالآية تفضيلهم بالنعم

الدنياوية و ضروب الملاذ و الألطاف و ليس المراد بذلك الثواب بدلالة جواز ابتدائهم بهذا التفضيل و الثواب لا يجوز الابتداء به .

فصل :

قوله تعالى : رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ اتفقت الإمامية على أن الأنبياء والأئمة (عليهم السلام) معصومون من الكبائر و الصغائر قبل النبوة و بعدها و خالفهم الأمة بأسرها في ذلك دليلنا أن جميع ما تنزه

[٢٠٥]

الأنبياء (عليهم السلام) عنه يستند إلى دلالة العلم المعجز إما بنفسه أو بواسطة و العلم المعجز بمنزلة قوله تعالى له صدقت في أنك رسولي فلا بد من أن يكون هذا المعجز مانعا من كذبه فيما يؤديه من الوحي لأن تصديق الكذاب قبيح كما أن الكذب قبيح فأما الكذب في غير ما يؤديه و سائر الكبائر فإنما دل المعجز على نفيها من حيث كان دالا على وجوب اتباع الرسول و تصديقه فيما يؤديه لأن الغرض في البعثة و التصديق هو أن يمتثل ما يأتون به فما قدح في الامتثال و القبول يجب أن يمنع المعجز منه و الدليل على أن تجويز الكبائر يقدح فيما هو الغرض بالبعثة من القبول و الامتثال و ينفر عن القبول أن من يجوز عليه الكبائر لا نأمن منه الإقدام على الذنوب و لا تكون أنفسنا ساكنة إلى قبول قوله و استماع وعظه و سكونها إلى من لا يجوز عليه شيئا من ذلك على حد سكونها من يجوز عليه الاختيار يوضح ذلك و لا تختلف أن يكون ذلك في حال النبوة أو قبلها و سواء كانت كبيرة أو صغيرة لأن الطريقة في الأمرين واحدة .

قوله سبحانه : اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا وَ مِنَ النَّاسِ و قال وَ لَقَدِ اخْتَرْناهُمْ عَلى عِلْمٍ عَلَى الْعالَمِينَ و قال في جماعة منهم و إنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار تدل على عصمتهم أجمعين لأنه لا يختار و لا يصطفي إلا من كان مرضيا معصوما .

قوله سبحانه : الْخَبِيثاتُ لِلْخَبِيثِينَ ... الآية ٢٤- ٢٦ لا يجوز أن يكون عاما لأننا نجد الطيبين للطيبات مثل آدم و حواء قوله يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ

و نجد الخبيثات للخبيثين مثل أبي لهب و أم جميل و قوله تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَ تَبَّ ... السورة و نجد الخبيثات للطيبين مثل امْرَأَتَ نُوحٍ وَ امْرَأَتَ لُوطٍ كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ و نجد الطيبات للخبيثين مثل آسية امرأة فرعون قوله رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَ نَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَ عَمَلِهِ و كذلك الحكم إن حملناه على الأولاد فلم نحكم بها إلا بدليل نحو قوله إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً و بعد فإن كل منفر لا يجوز على الأنبياء والأئمة (عليهم السلام) مثل كفر الوالدين و فسق الأزواج لأنهما يتعديان إليهم و ما لا يكون منفرا جاز فيهم مثل كفر أولادهم و أزواجهم أو فسقهم إلا أن الفاحشة لا يجوز على أزواجهم فإنها لازمة

[٢٠٦]

لهم قوله إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي فقال إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ و قوله إِنْ تَتُوبا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما في المتظاهرتين ثم إنه روي عن ابن عباس و مجاهد و الحسن و الضحاك و عمار بن ياسر و أهل البيت (عليهم الشلام) أنهم قالوا المراد به الكلمات الطيبات للطيبين من الناس و الكلمات الخبيثات للخبيثين من الناس يدل عليه قوله مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ و قوله وَ مَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ .

فصل :

قوله تعالى : قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْنا وَ ما أُنْزِلَ إِلى إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطِ فقوله الْأَسْباطِ لا يدل على أنهم كانوا أنبياء لأن الإنزال يجوز أن يكون على بعضهم ممن كان نبيا و لم تقع منه الأفعال القبيحة و المعصية مثل ما فعلوه مع يوسف و ليس في ظاهر القرآن أنهم كانوا أنبياء و يحمل قوله وَ الْأَسْباطِ على أن يكون المراد أنهم أمروا باتباعه كما يقال أنزل الله إلى أمة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) القرآن كما قال وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْنا و إن كان المنزل

على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لكن لما كانوا مأمورين بما فيه فوصف بأنه أنزل إليهم .

قوله سبحانه : ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا الاصطفاء لا يليق إلا بمن هو معصوم كالأنبياء والأئمة (عليهم السلام) فكيف قال بعد ذلك فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ فنقول فمنهم يرجع بالكناية فيه إلى العباد لا إلى الذين اصطفوا لأنه أقرب إليه في الذكر فكأنه قال تعالى و من عبادنا ظالم لنفسه و مقتصد و سابق بالخيرات .

قوله سبحانه : وَ لَقَدْ فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلى بَعْضٍ و قوله يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَ أَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ يعني عالمي زمانهم و تفضيله إياهم بأن جعل فيهم النبوة و الحكمة .

قوله سبحانه : تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ إنما ذكر تفضيل الرسل

بعضهم على بعض لأمور منها أن لا يغالط مغالط فيسوي بينهم من الفعل كما استووا في الرسالة و الثاني أن يبين أن تفضيل محمد (عليه السلام) كتفضيل من مضى من الأنبياء بعضهم على بعض و الثالث أن الفضيلة قد تكون بعد أداء الفريضة و المراد بالفضيلة هاهنا ما خص به بعضهم من المنازل الجليلة مثل موسى بالكلام و عيسى بإحياء الموتى و محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) بإرساله إلى كافة الخلق و الرابع فضلناهم بأعمالهم التي استحقوا بها الفضيلة على غيرهم .

قوله سبحانه : يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ دالة على أن النبوة ليست مستحقة بالأفعال لأنه لو كان جزاء لما جاز أن يقول يختص بها من يشاء كما لا يجوز يختص بعقابه من يشاء من عباده أما اللطف و إن كان مستحقا و هو يختص به من يشاء من عباده فإنه يكون لطفا على وجه الاختصاص دون الاشتراك و ليس كذلك الثواب

قوله سبحانه : يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي وَ يُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا قال الضحاك ذلك يدل على أنه تعالى أرسل رسلا من الجن و به قال الطبري و اختاره البلخي و قال ابن عباس هم رسل الإنس إلى غيرهم من الجن كما قال وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ و الأول أقوى .

قوله سبحانه : وَ ما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ إِلَّا رِجالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ قال الحسن ما أرسل الله تعالى امرأة و لا رسولا من الجن و لا من أهل البادية و وجه اللطف في إرسال الرجال من البشر أن الشكل إلى شكله آنس و عنه أفهم و الأنفة منه أبعد لأنه يجري مجرى النفس و الإنسان لا يأنف من نفسه .

قوله سبحانه : كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ قال ابن عباس و الحسن و الجبائي إنهم كانوا على الكفر و قال قتادة و الضحاك كانوا على

الحق فاختلفوا و إنما أخبر الله تعالى على الغالب من الحال و إذا قيل إذا كانوا مختلفين في الحق على إصابة بعضهم له فكيف يعمهم الكفر قلنا لا يمتنع أن يكون الكل كفارا بعضهم يكفر من جهة الغلو و بعضهم من جهة التقصير كما كفرت اليهود و النصارى في المسيح و على هذه الآية سؤالات كثيرة .

قوله سبحانه : وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ أي من قرون سلفت و ليس يعني به غير الناس لأن التكليف مقصور عن الجن و الإنس لقوله سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ و لم يخاطب غيرهما و أول الآية تدل على أنه خاص قوله وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ المعنى فيه و إن من أمة من البشر المكلفين إلا خلا فيها نذير و لأن شرائط التكليف لا تصح حصولها للبهائم و الطيور و لذلك شبه الجهال بالأنعام و لو كانت الأنعام مكلفة لكان فيها المؤمن و الكافر .

فصل :

قوله تعالى : كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِي قيل كتب الله في اللوح المحفوظ أنا و رسلي أجرى مجرى القسم فأجابه بجوابه الحسن ما أمر الله نبيا قط بحرب إلا غلب إما في الحال أو في الاستقبال و يقال لأغلبن أنا و رسلي بالحجج و البراهين و قيل في يوم القيامة .

قوله سبحانه : إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ و قد خذلهم حتى قتلوا فنقول النصر الغلبة على العدو و هو على ضربين نصر بالحجة و نصر بالغلبة في المحاربة بحسب المصلحة و ما تقتضيه الحكمة هذا إذا كان في دار التكليف و أما نصرة إياهم يوم القيامة فهو علو كلمتهم و ظهور حقهم بجزيل الثواب و إذلال عدوهم بعظيم العقاب .

قوله سبحانه : ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ معناه إما بالغلبة و إما بأخذ الحق له

فالنصرة من الله للمبغي عليه واقعة لا محالة و الخذلان لا يكون إلا للظالمين لأن الله لا يخذل أهل طاعته .

قوله سبحانه : إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غالِبَ لَكُمْ إن الله تعالى قد نصر رسله بإقامة الأدلة و نصب البراهين و الأمر بطاعتهم و النهي عن مخالفتهم و لا يجوز أن ينصرهم بما أدى إلى إلجاء و ينافي الاختيار فإن معها يزول التكليف و الأمر و النهي و الثواب و العقاب .

قوله سبحانه : لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَواطِنَ كَثِيرَةٍ إخبار بأنه نصرهم دفعات كثيرة و لا يدل على أنه لم ينصرهم في موضع آخر و قال البلخي إنهم لما انهزموا لم يكونوا منصورين و كان ذلك منهم خطأ و إن وقع مكفرا .

قوله سبحانه : إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَ إِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ نزل العذاب على الأمم في أيام نوح و هود و موسى و عيسى (عليه السلام) و نال نبينا (صلى الله

عليه وآله وسلم) ما نال و لم ينزل عليهم لأنه خص أمته بأمان إلى يوم القيامة قوله وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ وَ ما كانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ .

قوله سبحانه : قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ سمي وحيا لأن الملك سترة عن جميع الخلق و خص به النبي المبعوث قوله يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ هذا هو الأصل ثم يستعمل بمعنى الإلهام قوله وَ أَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ و بمعنى الأمر قوله وَ إِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ و بمعنى الإشارة قوله فَأَوْحى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَ عَشِيًّا و بمعنى الكتابة .

كوحي صحائف في عهد كسرى *** فأهداها لأعجم طمطمي

و أما قوله وَ إِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ أي ألهمتهم و قيل أمرتهم و قيل ألقيت إليهم الآيات التي أريتهم و قال أبو علي أي أوحيت إليك أن تبلغهم أو إلى رسول متقدم و القرآن كله وحي و يجيء وحي غير قرآن مثل قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) أمرني ربي بمداراة الناس كما أمرني

[٢١٠]

بأداء الفرائض و مثل قول جبريل حين فرغ من غزاة الخندق يا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) إن الله يأمرك أن لا تصلي العصر إلا في بني قريظة .

قوله سبحانه : وَ ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً هو داود أوحي في صدره فزبر الزبور أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ هو موسى أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا هو جبريل أرسل إلى محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) .

قوله سبحانه : يا إِبْلِيسُ ما لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ اختلفوا في كيفية هذا الخطاب فقال الجبائي قال الله تعالى له ذلك على لسان بعض رسله و هو الأليق لأنه لا يصح أن يكلمه الله بلا واسطة في زمان التكليف و قال آخرون كلمه بالإنكار عليه و الإهانة له كما قال اخْسَؤُا فِيها وَ لا تُكَلِّمُونِ و هذا ينبغي أن يكون حكاية عما يقول

له في الآخرة فقال إبليس مجيبا لهذا الكلام ما كنت بالذي أسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون .

قوله سبحانه : سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ قالوا إن كلب أصحاب الكهف خاطبهم بالتوحيد و الاعتراف بما اعترفوا به و لذلك تبعهم و هذا خرق عادة يجوز أن يكون الله تعالى فعله لطفا لهم أو معجزة لبعضهم على ما حكي أن بعضهم كان نبيا و هو رئيسهم فيكون ذلك معجزة له غير أنه غير مقطوع به .

قوله سبحانه : حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا معنى ذلك بالتخفيف أن الرسل ظنت أن القوم كذبوهم و يكون الظن غير العلم و بالتشديد أي ظنت الرسل أن القوم قد كذبوا أي كفروا و الظن هاهنا العلم .

قوله سبحانه : يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ ما ذا أُجِبْتُمْ تقرير للرسل في صورة

الاستفهام على وجه التوبيخ للمنافقين عند إظهار فضيحتهم و هتك أستارهم على رءوس الأشهاد و قال الحسن و السدي في قولهم لا علم لنا قالوا ذلك لذهولهم من هول ذلك المقام فإن قيل إنهم آمنون لقول لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ و لقوله لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ فقالوا الفزع الأكبر دخول جهنم و قوله لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ كقولك للمريض لا خوف عليك و لا بأس عليك ما يدل على النجاة من تلك الحال و قال ابن عباس إن معناه لا علم لنا إلا ما علمتنا فحذف إلا ما علمتنا لدلالة الكلام عليه و قال الجبائي معناه لا علم لنا مع علمك أي ليس عندنا شيء مما نعلمه إلا و أنت عالم بكل ما غاب و حضر بدلالة قوله إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ .

قوله سبحانه : وَ لا أَعْلَمُ الْغَيْبَ و قوله الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ النبي و الإمام يجب أن يعلما علوم الدين و الشريعة و لا يجب أن يعلما الغيب و ما كان و ما يكون لأن ذلك يؤدي إلى أنهما مشاركان للقديم تعالى في جميع معلوماته و معلوماته لا تتناهى

و إنما يجب أن يكونا عالمين لأنفسهما و قد ثبت أنهما عالمان بعلم محدث و العلم لا يتعلق على التفصيل إلا بمعلوم واحد و لو علما ما لا يتناهى لوجب أن يعلما وجود ما لا يتناهى من المعلومات و ذلك محال و يجوز أن يعلما الغائبات و الكائنات الماضيات أو المستقبلات بإعلام الله تعالى لهما شيئا منها و ما روي أن أمير المؤمنين (عليه السلام) كان يعلم أنه مقتول و أن قاتله ابن ملجم فلا يجوز أن يكون عالما بالوقت الذي يقتله فيه على التعيين لأنه لو علم ذلك لوجب عليه أن يدفعه عن نفسه و لا يلقي بيده إلى التهلكة و إن هذا في علم الجملة غير واجب .

فصل :

قوله تعالى في قصة آدم وَ لا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ * أَ لَمْ أَنْهَكُما عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ الأمر و النهي لا صيغة لهما و قد يؤمر بلفظ النهي و ينهى بلفظ الأمر يقال أمرته بأن لا يلقى الأمير معناه أنه نهى عن لقائه و يقال نهيتك عن هجر أخيك معناه أمرتك بمواصلته قال الله تعالى اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ أي لا تفعلوا فيكون قوله لا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ أراده لذلك التناول فيكون أمرا لأن الأمر و النهي لا يصيران أمرا و نهيا إلا بالإرادة

[٢١٢]

و الكراهة ثم إن الأمر و النهي يشتركان في الوجوب و الندب و قد ثبت أن الأنبياء لا يخلون بالواجبات فلم يبق إلا الندب و هو ما الأولى تركه و لا تقول إنه نهى عن جنسها لأنه يدل على أنه فعل القبيح و أنه أخطأ في الاستدلال .

قوله سبحانه : فَأَكَلا مِنْها ثقة بيمينه بالله تعالى قوله وَ قاسَمَهُما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ و لم يظنا أنه يجسر أحد أن يحلف بالله كاذبا .

قوله سبحانه : فَدَلَّاهُما بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذاقَا الشَّجَرَةَ قال الرماني لم يقصد آدم و حواء بالتناول من الشجرة القبول من إبليس و الطاعة له بل إنما قصدا عند دعائه شهوة نفوسهما و لو قصدا القبول لكان ذلك قبيحا لا محالة قال الحسن لو قصدا ذلك لكانا كافرين .

قوله سبحانه : فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطانُ و كان آدم و حواء في الجنة و ابليس في الأرض الوجه في ذلك أنه وصلت وسوسته بالقوة التي خلقها الله له و قال أبو علي إنهما كانا يخرجان إلى السماء فيلقاهما هناك و قال ابن الإخشيد إنه خاطبهما من باب الجنة و هما فيها .

قوله سبحانه : وَ عَصى آدَمُ رَبَّهُ المعصية مخالفة الأمر و الأمر من الله تعالى يقع بين الواجب و المندوب يقال أمرت فلانا بكذا و كذا من الخير فعصاني سواء كان ما أمر به واجبا أو مندوبا و ترك النفل غير قبيح .

قوله سبحانه : فَغَوى أي خاب من حصول عظيم الثواب لأكل الشجرة .

شاعر :

و من يغو لا يعدم *** على الغي لائما

قوله سبحانه : اهْبِطُوا مِنْها على سبيل المصلحة لا الإهانة و الهبوط هو النزول من

فوق إلى أسفل و الحلول من المكان و النزول به قوله اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ ما سَأَلْتُمْ و يقال هبطنا بلد كذا .

قال زهير :

ما زلت أرمقهم حتى إذا هبطت *** أيدي المطي بهم من راكس فلقا

قوله سبحانه : اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ عداوة إبليس لآدم و ذريته مشهورة و أما عداوة آدم و المؤمنين من ذريته لإبليس فهي واجبة لما يجب على المؤمنين من معاداة الكفار المارقين عن طاعة الله و أما إذا حمل الخطاب على آدم و حواء دون غيرهما يحمل قوله لِبَعْضٍ عَدُوٌّ على أن المراد به الذرية كأنه قال اهبطوا و قد علمت

من أحوال ذريتكم أن بعضهم يعادي بعضا و علق الخطاب بهما على الاختصاص بين الذرية و بين أصلهم .

قوله سبحانه : فَقُلْنا يا آدَمُ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَ لِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ قيل أي بأن يغويكما لتخالفا ما أمر الله تعالى به و بعصيانه فتقتضي المصلحة حينئذ إخراجكما نسب الإخراج إلى إبليس إذ كان بدعائه و إغوائه و معنى فَتَشْقى تتعب بأن تأكل من كد يدك .

قوله سبحانه : فَأَخْرَجَهُما مِمَّا كانا فِيهِ * فَبَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما * ما وُورِيَ عَنْهُما مِنْ سَوْآتِهِما نفس الإخراج و تقليب اللباس لا يكون عقابا لأن العقوبة هي الضرر و الألم الواقعان على سبيل الاستخفاف و الإهانة و من تعبد الله تعالى فيه بنهاية التعظيم لا يكون منا و منه تعالى الاستخفاف و الإهانة و أي نفس تسكن إلى أن والديها مستخف مهان

قوله سبحانه : كَما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يعني أغوى أبويكم آدم و حواء نسب الإخراج إليه لما كان بإغوائه و جرى ذلك مجرى ذم الله فرعون بأنه يذبح أبناءهم و الذم فيها راجع إلى فعل المذموم و أكد بذكر هذه الصفة لبيان منزلة فعله في عظم الفاحشة .

[٢١٤]

قوله سبحانه : رَبَّنا ظَلَمْنا أي بخسنا حقنا ما كنا نستحقه من الثواب بفعل ما أريد منا و هو معنى قوله فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ فالمعنى الرجوع إلى الله و الاعتراف بالتقصير عن حقوقه أو بمعنى أنه حرم الثواب المستحق بفعل الذنب .

قوله سبحانه : فَتابَ عَلَيْهِ أي قبل توبته و ضمن الثواب لأن التوبة غير موجبة لإسقاط العقاب و إنما يسقط الله تعالى العقاب عندها تفضلا و التوبة هي الرجوع فيجوز أن تقع ممن لا يعهد من نفسه قبيحا و وجه حسنها في هذا الموضع استحقاق الثواب بها أو كونها لطفا .

قوله سبحانه : وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْماءِ هؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ و قوله أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمائِهِمْ الإشارة بهذه الأسماء إلى جميع الأجناس من العقلاء و غيرهم و عليه إجماع المفسرين و يشهد به قوله وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها و قوله ثُمَّ عَرَضَهُمْ لا يليق إلا بالمسميات لأجل الكناية و قال قوم أراد أسماء الملائكة خاصة و قال آخرون أراد أسماء ذريته و قال ابن الإخشيد يجب أن يكون عالما بسائر الأسماء حتى القصعة و القصيعة و قال ابن عباس لقد تكلم آدم بسبع مائة لغة يعني بذلك حتى منطق الطير و الحيتان و الدواب و قال في هذه الآيات سؤالات كثيرة إلا أن النكتة فيها أن أصل اللغات المواضعة ثم التوقيف .

فصل :

قوله تعالى : فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ فَتابَ عَلَيْهِ إن آدم (عليه السلام) رأى مكتوبا على العرش فسأل عنه فقيل له هذه أسماء علي و فاطمة و الحسن و الحسين (صلى الله عليه وآله وسلم) فسأل بهم ربه و جعلهم الوسيلة في قبول توبته و رفع درجته و الكتابة تسمى كلمات على ضرب من التوسع و إذا كنا قد ذكرنا أن آدم رأى كتابة يتضمن أنها قوم فجائز أن يقال إنها كلمات تلقاها و رغب إلى الله بها و يجوز أيضا أن يكون آدم لما رأى

تلك الكتابة سأل عنها فقال الله له هذه أسماء من أكرمته و عظمته و رفعت منزلته و من لا أسأل بها إلا أعطيت و كانت هي الكلمات التي تلقاها و انتفع بها .

قوله سبحانه : وَ لَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ ثُمَّ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ الأمر أنما كان لقوم ليسوا من نسل آدم بل للجن و غيرهم و قوله خَلَقْناكُمْ لم يرد به الإيجاد و الإحداث و إن كان الخطاب به لبني آدم و إنما أراد تعالى التقدير و على هذا حملوا قوله وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ وَ ما تَعْمَلُونَ يعني أنه قدرها و علم كيفيتها و أحوالها و قد يسبق الخلق الإيجاد و الإحداث .

قوله سبحانه : وَ إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً و الخليفة من قام مقام الأول في أمره من بعده و لا يريد بمعنى الإبقاء بعد من مضى قوله ثُمَّ جَعَلْناكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ لأن هذا منفي عنه سمى آدم خليفة لأنه جعل آدم و ذريته خلفاء الملائكة لأن الملائكة كانوا من سكان الأرض و قال ابن عباس إنه كان في الأرض الجن فأفسدوا فيها و سفكوا الدماء فأهلكوا فجعل آدم و ذريته بدلهم و قال الحسن أراد بذلك قوما يخلف بعضهم بعضا من ولده الذين يخلفونه في إقامة الحق و عمارة الأرض و قال ابن مسعود أي من يخلفني في الحكم بين الخلق و هو آدم و من قام مقامه و قيل إنه يخلفني في إثبات الزرع و شق الأنهار .

قوله سبحانه : وَ لَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً قال ابن عباس و مجاهد معناه عهد الله بأن أمره به و وصاه و نسي أي ترك و قيل إنما أخذ الإنسان من أنه عهد إليه فنسي .

قوله سبحانه : وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً أي عقدا ثابتا على المعصية و قال قتادة صبرا و قال عطية أي لم نجد له حفظا .

قوله سبحانه : فَلَمَّا آتاهُما صالِحاً جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ فِيما آتاهُما غير راجعة إلى آدم

و حواء بل إلى الذكور و الإناث من أولادهما أو إلى جنسين ممن اشترك من نسلهما و إن كانت الكناية الأولى تتعلق بهما و يكون تقدير الكلام فلما آتاهما الولد الصالح الذي تمنياه جعل شرك أولادهما إلى غير الله يؤيد ذلك قوله فَتَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ و يدل أيضا على ذلك ما تقدم من قوله هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثم إن الكناية في جميعها متعلقة بآدم و حواء و يجعل إلها في تغشيها و الكناية في الله ربهما و آتاهما صالحا راجعتين إلى من أشرك و لم يتعلق بآدم من الخطاب إلا قوله خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ

واحِدَةٍ ثم خص منها بعضهم كقوله هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَ جَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ و الهاء في قوله جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ راجعة إلى الولد لا إلى الله تعالى و يكون المعنى أنهما طلبا من الله أمثالا للولد الصالح فأشركا بين الطلب اثنين كقولك طلبت مني درهما فلما أعطيته شركته بآخر أي طلبت آخر مضافا إليه و تكون الكنايات راجعة إلى آدم و قيل فَلَمَّا آتاهُما صالِحاً مضافا إلى الوجه المقدم الذي هو أراد بالصلاح الاستواء في الخلقة و الاعتدال في الأعضاء .

قوله سبحانه : لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي ما أَنَا بِباسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إن هابيل لم يرد من أخيه قبيحا و لا أراد أن يقتله و إنما أراد إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بجزاء ما أقدمت عليه من القبيح و عقابه و قوله بِإِثْمِي أي عقوبة إثمي الذي هو قتلي كقول القائل للمجرم هذا ما كسبت يداك و المعنى هذا جزاء ما كسبت يداك و قولهم لقاك الله عملك و ستلقى عملك يوم القيامة المعنى جزاء عملك بِإِثْمِي عقاب قتلك لي وَ إِثْمِكَ أي عقاب المعصية التي أقدمت عليها من قبل فلم يتقبل قربانك لسببها أي أريد زوال أن تبوء بإثمي و إثمك لأنه لم يرد له إلا الرشد و الخير فحذف الزوال و أقام أن و ما اتصل به مقامه وَ أُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ أراد حب العجل فحذف الحب و أقام العجل مقامه كقوله وَ سْئَلِ الْقَرْيَةَ * إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَ إِثْمِكَ أي أريد أن لا تقتلني و لا تبوء بإثمي فحذف لا و اكتفى بما في الكلام كما قال يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا معناه لأن لا تضلوا و كقوله وَ أَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ معناه لأن لا تميد بكم .

الخنساء :

فأقسمت آسى على هالك *** و أسأل نائحة ما لها

أرادت لا آسى .

فصل :

قوله تعالى : وَ رَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيًّا استدل بعضهم في رفع إدريس (عليه السلام) بهذه الآية و في عيسى (عليه السلام) بقوله وَ ما قَتَلُوهُ يَقِيناً بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ و الله أعلم بذلك إلا أنه لا يقال رفعت فلانا السطح أو رفعته مكانا عاليا و إنما يقال رفعته إلى السطح و إلى مكان عال و رفع الشيء إلى العلو ليس بمدح و لا شرف و لو كان كذلك لكان من علا جبلا أرفع حالا ممن هو في الحضيض و إنما المراد به الموت لقولهم في وفاة الرجل دعاه الله فأجابه قضى نحبه رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ يدل على ذلك قوله إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَ رافِعُكَ إِلَيَّ و قد جمع بين اللفظتين كقوله بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ قال المرتضى معناه أنه توفاه في أرض ثم رفعه إلى السماء و قالوا إنه من المقدم و المؤخر و المعنى رافعك إلى السماء ثم أتوفاك بعد ذلك يعني عيسى (عليه السلام) و كان الجبائي يستدل بقوله حكاية عن عيسى (عليه السلام) وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ إن فيها دلالة على أنه تعالى أمات عيسى و توفاه إليه عند ما رفعه لأنه بين أنه كان شهيدا عليهم ما دام فيهم فلما توفاه الله كان الله هو الرقيب الشهيد عليهم و أجابه الطوسي أن الذي ذكره لا يدل على أنه أماته لأن التوفي هو القبض إليه و لا يستفاد منه الموت إلا بشاهد الحال و لذلك قال اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَ الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها فنفس التوفي لا يفيد الموت بحال و الصحيح في موته ما تقدم ذكره .

قوله سبحانه في قصة نوح (عليه السلام) إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَ إِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ الجمع بينه و بين قوله إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ لم يتناول نفي النسب و إنما نفى أن يكون من أهله الذين كان وعده بنجاتهم كقوله احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ... الآية يوضحه قوله وَ إِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ و قول آخر لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ أي على دينك كما قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : **سلمان منا أهل البيت** .

يدل على ذلك قوله على سبيل التعليل إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ و يقال إنه قال على الظاهر إنه ابني و إنما كان ولد على فراشه و الله تعالى اطلع نبيه على خيانة امرأته ذكر الحسن و مجاهد و ابن جريح و هذا سقيم .

قوله سبحانه : فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ

[٢١٨]

ثم قال نوح رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَ إِلَّا تَغْفِرْ لِي وَ تَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخاسِرِينَ و ليس بممتنع أن يكون نهي عن سؤال ما ليس لي به علم و يتعوذ منه و إن لم يقع منه كما قال لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ و لا شك في أن وعظه هو الصارف عن الجهل .

قوله سبحانه : وَ لا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ مع وقوع هذا النصح استظهارا في الحجة لأنهم ذهبوا إلى أنه ليس بنصح فقالوا لو كان نصحا ما نفع من لا يقبله و كان نصح نوح لقومه إعلامهم موضع الغي ليتقوه و موضع الرشد ليتبعوه و قال البلخي إن قوم نوح كانوا جبرية و لو لا ذلك لغيره فقال نوح على وجه الإنكار عليهم و التعجب من قولهم إن نصحي لا ينفعكم إن كان القول كما تعتقدونه أن المعاصي يريدها الله تعالى .

قوله سبحانه : إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ أي نذمكم على سخريتكم أطلق عليهم اسم السخرية على وجه الازدواج كما قال سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ .

قوله سبحانه : قالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَ نَهاراً فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي إِلَّا فِراراً أي لم يزدادوا بدعائي إلا فرارا من قبوله و بعد استماعه و إنما سمى كفرهم عند دعائه زيادة في الكفر لأنهم على كفرهم بالله و ضلال عن حقه فلما دعاهم نوح إلى الحق فلم يقبلوه كان زيادة في الكفر و قيل إنما جاز أن يكون الدعاء إلى الحق يزيد الناس فرارا منه الجهل الغالب على النفس فتارة تدعوه إلى الفرار مما ينافره و تارة يدعو إلى الفساد الذي يشاكله .

قوله سبحانه : رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً إلى قوله كَفَّاراً و لم يكن نوح يعلم الغيب قال قتادة ما دعا عليهم إلا بعد أن أنزل الله عليهم أنه لن يؤمن

[٢١٩]

من قومك إلا من قد آمن فلذلك قال رب إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يعني إن تركتهم و لا تهلكهم يضلوا عبادك عن الدين بالإغواء إلى خلافه وَ لا يَلِدُوا إِلَّا فاجِراً كَفَّاراً إنما قال ذلك بعد أن جاز تسميتهم بالكفر و الفجور لوجه الحكاية و الإخبار مما يكون منهم على ما أوحي إليه .

قوله سبحانه : وَ لا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ نهاه أن يخاطبه و يسأله في أمرهم لأنه حكم بإهلاكهم و أخبر أنه سيغرقهم و لا يكون الأمر على ما أخبر به و لا يجوز أن يدعوا بما يعلم أنه لا يكون و لا أن يرضى باختياره .

قوله سبحانه : وَ نادى نُوحٌ ابْنَهُ وَ كانَ فِي مَعْزِلٍ يا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنا قال الطوسي إنما دعاه إلى الركوب مع أن الله تعالى نهاه أن يركب فيها كافر بشرط أن يؤمن و قال الجبائي و الحسن إنه كان ينافق بإظهار الإيمان .

فصل :

قوله تعالى في قصة إبراهيم (عليه السلام) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى كَوْكَباً أي الزهرة قالَ هذا رَبِّي على وجه الاستخبار و كذلك في الشمس و القمر لأنه وجد قومه يعبدونها فلما رأى أفولها قطع على حدوثها فقال إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ من بطلان دينهم و إنما قال هذا رَبِّي فارضا و مقدرا على سبيل الكفر لا مخبرا و إنه أخبر عن ظنه كما يظن المتأمل في حال نظره ذكر ما لا أصل له ثم يرجع عنه بالأدلة و لا يكون ذلك منه قبيحا و إنما قال على سبيل الإنكار على قومه و التنبيه لهم فقوله هذا رَبِّي أي هو كذلك عندكم كما تقول للمشبهة هذا ربه جسم يتحرك و يسكن هذا رَبِّي قال ذلك مستفهما و أسقط حرف الاستفهام .

قال الأخطل :

كذبتك عينك أم رأيت بواسط *** غلس الظلام من الرباب خبالا

قال ابن عباس فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ هو أ فلا اقتحم العقبة .

[٢٢٠]

قوله سبحانه : أَ أَنْتَ فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنا يا إِبْراهِيمُ قالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا الخبر مشروط غير مطلق لقوله إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ و النطق مستحيل على الأصنام فما علق بهذا المستحيل من الفعل أيضا فهو مستحيل فاسألوهم إنما هو أمر بسؤالهم على شرط و النطق منهم شرط في الأمرين فكأنه قال إن كانوا ينطقون فاسألوهم فإنه لا يمتنع أن يكون فعله كبيرهم كقول القائل لغيره من هذا الفعل فيقول زيد إن كان فعل كذا و كذا يضيفه إلى زيد من غير حقيقة و يكون غرض المسئول نفي الأمرين عن زيد و تنبيه السائل على خطيئته في إضافة ما أضافه إلى زيد و قرأ بعضهم فعله أي فلعله .

شاعر :

يا أبتا علك أو عساكا

قوله سبحانه : فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ فَقالَ إِنِّي سَقِيمٌ يحتمل أنه شخص ببصره إلى السماء أو إلى الأرض لأن النجوم تكون الكواكب و النبات كالمفكر المتأمل و قيل أي نظر و فكر ثم إنه قال فِي النُّجُومِ و لم يقل في علم النجوم و قيل أراد ما نجم من رأيه و قيل أراد الشمس و القمر لما ظن أنهما آلهة في حال مهلة النظر ثم لما علم حدوثه بالدلالة قال إِنِّي سَقِيمٌ أي لست على يقين من الأمر و هذا كلام ضعيف و قوله سَقِيمٌ يحتمل أنه كانت به علة تأتيه في أوقات مخصوصة فلما دعوه إلى الخروج معهم نظر إلى النجوم فقال إِنِّي سَقِيمٌ أي مشارف كما يقال هو ميت أي مشارف قال الله تعالى إِنَّكَ مَيِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ و يجوز أن يكون الله تعالى أوحى إليه أنه سيمتحنه

بالمرض في وقت مستقبل و جعل له العلامة بالنجوم قال إِنِّي سَقِيمٌ تصديقا للوحي و يقال إن من كان آخره الموت فهو سقيم و يقال إني سقيم القلب و الرأي من كفر القوم .

قوله سبحانه : بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَ مَنْ حَوْلَها من بمعنى ما كأنه قال ما في النار أي بوركت النار مثل قوله فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى بَطْنِهِ و قوله وَ جَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ وَ مَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرازِقِينَ إلى البهائم و معنى آخر أنه عنى الدنو يقال وردنا بلد كذا و لم

[٢٢١]

ندخلها و قد صار في النار أي قرب .

قوله سبحانه : فَما لَبِثَ أَنْ جاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ فَلَمَّا رَأى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ العقل لم يكن مانعا من أكل الملائكة الطعام و إنما علم ذلك بالإجماع و إلا كان يجوز أن يكون قدم إليهم الطعام و مع علمه بأنهم الملائكة و يجوز أن يأكلوه .

قوله سبحانه : دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وصف دين النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بأنه ملة إبراهيم ترغيبا فيه للعرب لجلاله إبراهيم في نفوسهم .

قوله سبحانه : أَ تَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ وَ ما تَعْمَلُونَ عير قومه بعبادة الأصنام و إنما أراد المنحوت دون عملهم لأنهم إنما كانوا يعبدون الأصنام و لم يكونوا يعبدون النحت الذي هو فعلهم و قد شرحناه في باب العدل .

قوله سبحانه : أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْراهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ... الآية ليس انتقال إبراهيم من حجة إلى حجة لعجزه و إنما عدل عن ذلك لكيلا يلتبس على الحاضرين و لم تقو الشبهة و يقال إنه دعا رجلين فقتل أحدهما و استحيا الآخر فقال عند ذلك أنا أحيي و أميت و موه بذلك على من بحضرته فعدل إبراهيم عن ذلك إلى ما هو أبعد من الشبهة .

فصل :

قوله تعالى : رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى إنما سأل ذلك ليعلم على وجه يبعد من الشبهة و إن كان قد علم ذلك بالدليل يوضحه قوله أَ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قالَ بَلى وَ لكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي و إنما سأل ذلك لقومه لنزول شبههم كما سأل موسى الرؤية لقومه .

و قال الرضا (عليه السلام) : إن الله تعالى أوحى إلى إبراهيم إني متخذ من عبادي

[٢٢٢]

خليلا إن سألني إحياء الموتى أجبته .

فوقع في نفس إبراهيم أنه ذلك الخليل فقال رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى و قال له نمرود أنت تزعم أن ربك يحيي الموتى و أنه أرسلك لتدعوني إلى عبادته فاسأله أن يحيي لنا ميتا إن كان على ذلك قادرا فإن لم يفعل قتلتك فقال إبراهيم رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى ما قال أ و لم تكن قد آمنت بل قال أَ وَ لَمْ تُؤْمِنْ إن كان اللفظ لفظ الاستقبال فإنه يريد به الماضي كما يقول الواحد منا لصاحبه أ و لم تعاهدني على كذا و تعاقدني على أن تفعل كذا .

قوله سبحانه : سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا و قوله لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وجه استثنائه لأبيه من جملة ما أمر الله تعالى بالتأسي فيه إنه لو أطلق الكلام لأوهم الأمر بالتأسي به في ظاهر الاستغفار للكفار و استثناء الاستغفار من جملة الكلام لهذا الوجه و لأنه لم يكن ما أظهره لإبراهيم من الإيمان و وعده به معلوما لكل أحد يزول الإشكال في أنه استغفر لكافر و أنه استثناء من التأسي من الجملة الثانية التي يعقبها هذا القول بلا فصل و هي قوله إِنَّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ و إنه إنما وعده بالاستغفار على مقتضي العقل و لم يكن قد استقر بعد قبح الاستغفار للمشركين و إن معنى سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ إذا تركت عبادة الأوثان و أخلصت العبادة لله تعالى .

قوله سبحانه : وَ ما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ معنى الآية أن أباه كان وعده أن يؤمن و أظهر له الإيمان على سبيل النفاق حتى ظن به

الخير فاستغفر الله تعالى على هذا فلما تبين له أنه مقيم على الكفر رجع عن الاستغفار له و تبرأ منه و قد عذره الله تعالى في هذه الآية و قوله عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ قيل كانت من الابن بالاستغفار و من الأب بالإيمان .

قوله سبحانه : قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْراهِيمَ إلى قوله لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وجه استثنائه لأبيه من جملة ما أمر الله تعالى بالتأسي فيه أنه لو أطلق الكلام لأوهم الأمر

[٢٢٣]

بالتأسي به في ظاهر الاستغفار للكفار فاستثناء الاستغفار من جملة الكلام لهذا الوجه .

قوله سبحانه : يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ وَ لا يُبْصِرُ ... إلى خمس آيات ، هذه المخاطبة كانت لجده من أمه و هو الصحيح عند أصحابنا .

قوله سبحانه : وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ قال الزجاج أجمع النسابة أن اسم أبي إبراهيم تارخ و الذي هو في القرآن يدل على أن اسمه آزر و قال مجاهد إن آزر اسم صنم كأنه قال لأبيه أ تتخذ آزر إلها أ تتخذ أصناما آلهة و قيل إن آزر هو سب و عيب بكلامهم و معناه معوج و قيل معناه مخطئ و قالوا إن العرب تسمي العم أبا للاحترام قال الله تعالى حكاية عن يعقوب ما تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قالُوا نَعْبُدُ إِلهَكَ وَ إِلهَ آبائِكَ إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ و إسماعيل كان عمه .

و قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) العم والد .

و قال ردوا على أبي يعني عباسا .

قوله سبحانه : رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَ لِوالِدَيَّ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ فيها دلالة على أنه سأل المغفرة لها يوم القيامة فلو كانا كافرين لما سأل ذلك لأنه قال فلما

تبين له أنه عدو لله تبرأ منه فدل ذلك على أن أباه الذي كان كافرا جده لأمه أو عمه على الخلاف و قال البلخي إن أمه كانت مؤمنة لأنه سأل أن يغفر لأبويه .

فصل :

قوله تعالى : وَ اجْنُبْنِي وَ بَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ هذا الدعاء على الخصوص متناول للمعصومين حتى يكون مستجابا و العدول عن ظاهر المقتضي للعموم إلى الخصوص بالدلالة واجب و يجوز أنه يريد افعل بي و بهم من الألطاف ما يباعدنا من عبادة الأصنام و يصرف دواعينا عنها و الوالد يقول لولده إذا حذره من شيء و بين له ضرره إني جنبتك كذا و كذا .

قوله سبحانه : رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي ظاهر الكلام يقتضي

الخصوص و في ذريته الكثير ممن أقام الصلاة .

قوله سبحانه : وَ لَقَدِ اصْطَفَيْناهُ فِي الدُّنْيا وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ لا يجوز أن يوحي الله تعالى إليه قبل إسلامه بأنه نبي الله لأن النبوة حال إعظام و إجلال و لا يكون ذلك قبل الإسلام و تقديره و لقد اصطفيناه حين قال له ربه أسلم و قال الحسن إنما قال ذلك حين أفلت الشمس فقال يا قوم إني بريء مما تشركون إني وجهت وجهي حينئذ و هذا يدل على أنه كان قبل النبوة و أنه قال ذلك إلهاما استدعاه به إلى الإسلام فأسلم حينئذ لما أوضح له طريق الاستدلال بما رأى من الآيات الدالة على توحيده .

قوله سبحانه : وَ لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ فَما لَبِثَ أَنْ جاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ إنما جاء بالطعام لأنه كان مضيافا و قد حسبهم الضيف لأنهم كانوا على صورة البشر فَلَمَّا رَأى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ أنكر ذلك منهم و خاف و ظن أن الامتناع لسوء يريدونه حتى خبروه بأنهم رسل الله أنفذهم الله لإهلاك قوم لوط .

قوله سبحانه : قالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ قالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ إنما وصفه بأنه عليم قبل كونه لدلالة البشارة على أنه سيكون بهذه الصفة فقال إبراهيم أَ بَشَّرْتُمُونِي عَلى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ إنما عجب من ذلك لكبره و استفهم فقال أ بأمر الله تبشرونني .

قوله سبحانه : يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ قال الحسن أي يجادل رسلنا و علق المجادلة به تعالى من حيث كانت لرسله و إنما جادلهم مستفهما منهم هل العذاب نازل على سبيل الاستيصال أو على سبيل التخويف و هل هو عام للقوم أو خاص و عن طريق نجاة لوط و أهله من المؤمنين مما لحق القوم و سمي ذلك جدالا لما كان فيه من المراجعة و قيل جادلنا أي سألنا في قوم لوط و إنه يؤخر عذابهم رجاء أن يؤمنوا فخبره الله تعالى بأن المصلحة في

[٢٢٥]

إهلاكهم و قيل يُجادِلُنا أي يكلمنا و يخاطبنا كقوله قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ و قد ذكر قبل الآية كلاما و مخاطبة و قال أبو علي جادلهم بأي شيء استحقوا عذاب الاستيصال .

قوله سبحانه حكاية عن سارة قالَتْ يا وَيْلَتى أَ أَلِدُ وَ أَنَا عَجُوزٌ وَ هذا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قالُوا أَ تَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ و لا يجوز العجب من الله لأنه تعالى قادر على سائر أجناس المقدورات مما يصح أن يكون مقدورا له لا يعجزه شيء و ما عرف سببه لا يتعجب منه إنما كان التعجب بطبع البشرية إذ ورد عليها ما لم يجر به العادة قبل أن تفكرت في ذلك لأنها كانت عارفة بأن الله تعالى يقدر على ذلك كما ولى موسى مدبرا حين انقلبت العصا حية حتى قيل له أَقْبِلْ وَ لا تَخَفْ .

قوله سبحانه : يا نارُ كُونِي بَرْداً وَ سَلاماً عَلى إِبْراهِيمَ قيل إن الله تعالى أحدث فيها بردا من شدة الحرارة التي فيها فلم تؤذه و قيل إنه تعالى حال بينها و بين جسمه فلم تصل إليه .

قوله سبحانه : وَ أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالًا قالوا إن أذانه بالحج هو إذ وقف في المقام فنادى أيها الناس أجيبوا داعي الله فأجابه من الأصلاب من كتب له الحج فكل من حج فهو ممن أجاب إبراهيم و هذا غير صحيح لأنه لم يكن مبعوثا إلى أمة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) و الصحيح أن المخاطب و المأمور بهذه الآية محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) و هذا غير ممتنع أن ينفصل هذا التكليف من الأول و إن كان مقارنا له و يتوجه إلى غير من توجه التكليف الأول إليه .

فصل :

قوله تعالى حكاية عن إبراهيم و إسماعيل رَبَّنا وَ اجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ إنما سألا الله تعالى أن يجعلهما مسلمين بمعنى أن يفعل لهما

من الألطاف ما يتمسكان معه بالإسلام في مستقبل عمرهما لأن الإسلام كان حاصلا في وقت دعائهما و يجري ذلك مجرى أحدنا إذا أدب ولده حتى صار أديبا جاز أن يقال جعل ولده أديبا و على عكس ذلك إذا عرضه للفساد جاز أن يقال جعله ظالما فاسدا و يجوز أن يكون ذلك تعبدا كما قال رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ و إنما خصا بالدعوة بعد الذرية في قوله وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنا لأن من للتبعيض من حيث إن الله تعالى كان أعلمه أن في ذريتهما من لا ينال العهد لكونه ظالما و هو قول أكثر المفسرين و قال السدي إنما عني بذلك العرب و الأول هو الصحيح .

قوله سبحانه : وَ تُبْ عَلَيْنا أي ارجع إلينا بالرحمة و المغفرة و ليس فيه دلالة على جواز الصغيرة أو فعل القبيح عليهم و من ادعى ذلك فقد أبطل و قيل معناه تب على ظلمة ذريتنا و الصحيح أنهما قالا ذلك انقطاعا إلى الله تعالى و تعبدا ليقتدى بهما فيه و على مذهبنا إذا قلنا قبل الله توبته أو تاب عليه معناه أنه استحق الثواب و إذا قلنا تاب العبد من كبيرة مع الإقامة على كبيرة أخرى معناه عند من أجاز ذلك أنه رفع العقاب بها عنه و عندنا أنه يستحق بها الثواب أيضا .

قوله سبحانه : وَ عَهِدْنا إِلى إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ أَنْ طَهِّرا بَيْتِيَ و لم يكن هناك بيت بعد قال السدي معناه ابنيا لي بيتا مطهرا و قال عطا طهرا مكان البيت الذي يبنى فيما بعد .

قوله سبحانه : إِنِّي أَرى فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ اختلف الناس في الذبيح فقال جماعة إنه إسحاق و الصحيح أنه إسماعيل روي ذلك عن ابن عباس و ابن عمر و ابن المسيب و الحسن و القرطبي و الشعبي و هو المروي عن الباقر و الصادق و الرضا (عليه السلام) يؤيد ذلك قوله بعد هذه القصة وَ بَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا فكيف يبشره بذرية إسحاق ثم يأمر بذبحه و من قال إنه بشر بنبوة إسحاق دون مولده فقد ترك الظاهر

[٢٢٧]

لأن الظاهر يقتضي البشارة بإسحاق دون نبوته و يدل عليه أيضا قوله فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَ مِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ و لم يذكر إسماعيل فدل على أنه كان مولودا قبله .

و قول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنا ابن الذبيحين .

عنى بذلك عبد الله أباه و إسماعيل و سأل الأصمعي أبا عمرو بن العلاء عن ذلك فقال يا أصمع و متى كان إسحاق بمكة و إنما كان بها إسماعيل و هو بناء البيت و المنحر بمكة يعني مسجد الكبش و هو بالمزدلفة و قال ابن عباس كان قرنا الكبش معلقين فيها و لم يزالا فيها إلى أن حرق الحجاج البيت .

قوله سبحانه : قالُوا نَعْبُدُ إِلهَكَ وَ إِلهَ آبائِكَ إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ إِلهاً واحِداً قال ابن دريد إنما قدم إسماعيل على إسحاق لأنه كان أكبر منه .

قوله سبحانه : فَلَمَّا أَسْلَما وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَ نادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا يقال إن الله تعالى أمر إبراهيم بمقدمات الذبح يقعد مقعد الذابح و يشد يديه و

رجليه و يترك المدية على حلقه و ينتظر الأمر بإمضاء الذبح على ما رأى في منامه و أسباب الموت هو الموت بعينه و يقال إنه أمره بالذبح و ذبح و كل ما فرا جزءا من حلقه وصله الله بلا وصل حتى انتهى إلى آخره فاتصل به وصل الله تعالى فقد فعل ما أمر به و لا بين الرأس و لا انتفت الروح و أما من قال إنه أمره بالذبح بشرط التخلية و التمكين و انقلبت الشفرة و جعل على حلقه صفيحة نحاس محال لأن الله لا يأمر بشرط لأنه عالم بالعواقب و أنه أمر بما منع منه و هذا عبث و أما جزع إبراهيم فلأنه أشفق أن يؤمر بالذبح نفسه لما أمر بالمقدمات و من قال إنه الفدية دالة على أنه كان مأمورا بالذبح لأن الفداء يكون من جنس المفدي أخطأ لأن من حلق رأسه و هو محرم يلزمه دم و كذلك إذا لبس ثوبا مخيطا أو شم طيبا أو جامع و إن لم يكن من جنس المفدي .

فصل :

قوله تعالى في قصة زكريا (عليه السلام) قالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَ قَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَ امْرَأَتِي عاقِرٌ قالَ كَذلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ ما يَشاءُ مراجعته مع ما بشره الله تعالى بأنه يهب له ذرية طيبة و بعد سؤاله رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ

[٢٢٨]

سَمِيعُ الدُّعاءِ قال الحسن إنما كان ذلك ليعرف على أي حال يكون ذلك أ يرده إلى حال الشباب و امرأته مع الكبر فقال الله تعالى كَذلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ ما يَشاءُ أي على هذه الحال و قيل إنه كأنه أراد كيف يكون لي غلام منها و هي عاقر أ يكون بإصلاحك لها فإنه قال وَ أَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ و قيل إنه كان على وجه الاستعظام لمقدور الله و التعجب الذي يحدث للإنسان عند ظهور آية عظيمة من آيات الله كما يقول القائل كيف سمحت نفسك بإخراج ذلك الملك النفيس من يدك تعجبا من جوده و اعترافا بعظمه .

قوله سبحانه : كُلَّما دَخَلَ عَلَيْها زَكَرِيَّا الْمِحْرابَ وَجَدَ عِنْدَها رِزْقاً إلى قوله أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ قال ابن عباس و مجاهد و قتادة و السدي كان فاكهة الصيف في الشتاء و فاكهة الشتاء في الصيف فزكريا (عليه السلام) كان عالما بأنه تعالى يقدر على خلق الولد من العاقر و إن لم يجر به العادة فإنه كان لا يجوز أن يفعل ذلك لبعض

التدبير فلما رأى خرق العادة بخلق الفواكه في غير وقتها قوي ظنه أنه يفعل ذلك إذا اقتضت المصلحة و قوي في نفسه ما كان علمه كما أن إبراهيم و إن كان عالما بأنه تعالى قادر على إحياء الأموات سأل ذلك مشاهدة لتتأكد معرفته و تزول عنه خواطره و قال الجبائي إن الله تعالى كان أذن له في المسألة و جعل وقته الذي أذن له الوقت الذي رأى فيه المعجزة الظاهرة فلذلك دعا .

قوله سبحانه : وَ إِنِّي خِفْتُ الْمَوالِيَ مِنْ وَرائِي الخوف لا يكون من الأعيان و إنما يكون من معان فيها فقولهم خفت الله أي خفت عقابه و خِفْتُ الْمَوالِيَ خفت تضييعهم مالي و إنفاقه في معصية الله تعالى .

قوله سبحانه : فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَ يَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَ اجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا قال مخالفونا أي يرث العلم و النبوة و نحن نقول إن زكريا صرح بدعائه و طلب من يرثه و يحجب بني عمه و عصبته من الولد و حقيقة الميراث انتقال ملك الموروث

إلى ورثته بعد موته بحكم الله و حمل ذلك على العلم و النبوة خلاف الظاهر على أن العلم و النبوة لا يورثان لأن النبوة تابعة للمصلحة لا مدخل للنسب فيها و العلم موقوف على من يتعرض له و يتعلمه على أن زكريا سأل وليا من ولده يحجب مواليه من بني عمه و عصبته من الميراث و ذلك لا يليق إلا بالمال لأن النبوة و العلم لا يحجب الولد عنهما بحال حتى إن اشتراطه أن يجعله رضيا لا يليق إلا بالنبوة لأن النبي لا يكون إلا رضيا معصوما فلا معنى لمسألته ذلك و ليس كذلك المال لأنه يرثه الرضي و غير الرضي .

فصل :

قوله تعالى في قصة لوط (عليه السلام) هؤُلاءِ بَناتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ قال الحسن و قتادة المعنى أحل لكم على التزويج و كان المشركون يتزوجون في صدر الإسلام المسلمات زوج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بنته من أبي العاص بن الربيع و

الأخرى من عتبة بن أبي لهب قبل أن يسلما ثم نسخ بقوله وَ لا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا و قال الزجاج إن ذلك عرض بشرط أن يسلموا كما هو شرط النكاح الصحيح و قال مجاهد كل نبي يرسل إلى قوم فهو أبو الذين يرسل إليهم فيكون المعنى في هؤُلاءِ بَناتِي بنات أمته يقول تزوجوا نساءكم و هذا .

كقول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : أنا و علي أبوا هذه الأمة .

و قال الجبائي : هذا القول كان من لوط لقومه قبل أن يعلم أنهم ملائكة بعثوا لإهلاك قومه .

قوله سبحانه : إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَراكَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ قالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَ اشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ قول هود (عليه السلام) أَنِّي بَرِيءٌ إخبار عما أجابهم به هود بأن قال أشهد الله على أدائي إليكم و نصيحتي إياكم و تكذيبكم إياي وَ اشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ و إنما أشهدهم على ذلك و إن لم يكونوا أهل الشهادة من حيث كانوا كفارا فساقا إقامة للحجة عليهم لا لتقوم الحجة بهم و يجوز أن يكون أراد بذلك و اعلموا كما قال شهد الله بمعنى علم الله .

فصل

قوله تعالى في قصة يعقوب (عليه السلام) كُلُّ الطَّعامِ كانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرائِيلَ إِلَّا ما حَرَّمَ إِسْرائِيلُ عَلى نَفْسِهِ و ذلك أن اليهود أنكروا تحليل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لحوم الإبل و ألبانها فبين الله أنها كانت حلالا إلى أن حرمها يعقوب على نفسه بعد أن برأ من النساء أن يحرم أحب الطعام و الشراب إليه و هو لحوم الإبل و ألبانها فلما برأ وفى بنذره فإن قيل كيف يجوز للإنسان أن يحرم على نفسه شيئا و هو لا يعلم ما له فيه من المفسدة قلنا يجوز ذلك إذا أذن الله له في ذلك و أعلمه و أذن ليعقوب في هذا النذر فلذلك نذر .

قوله سبحانه : إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ قالَ يا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْياكَ عَلى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ حقيقة الحسد إرادة الحاسد لزوال نعمة المحسود إليه أو كراهة النعمة التي هو فيها و إرادة أن تصير تلك النعمة بعينها له بخلاف الغبطة فإذا لا يكون قوله يا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْياكَ عَلى إِخْوَتِكَ دلالة على أنه أراد به الحسد .

قوله سبحانه حكاية عن إخوة يوسف إِذْ قالُوا لَيُوسُفُ وَ أَخُوهُ أَحَبُّ إِلى أَبِينا مِنَّا وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ المحبة من ميل الطباع لا من الكسب و ذلك من فعل الله تعالى فإذا لا يكون حسدا لتفضيل يوسف على إخوته بالبر و المحبة و يكون للرجل عشرة أولاد فيحب واحدا منهم و على هذا قوله وَ لَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّساءِ يعني في المحبة لا في النفقة و يجوز أن يكون يعقوب مفضلا ليوسف بالبر و التقريب و ليس ذلك بقبيح لأنه لا يمتنع أن يكون يعقوب لم يعلم أن ذلك يؤدي إلى ما أدى إليه و يجوز أن يكون رأى من سيرة إخوته و جميل ظاهرهم ما غلبه في ظنه أنهم لا يحسدونه فإن الحسد و إن كان في الطباع فإن كثيرا من الناس يجتنبونه .

قوله سبحانه : إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ أي الذهاب عن التسوية بينهم في العطية

و أصل الضلال العدول أو الغمور في الشيء و لو أرادوا الضلال في الدين لكانوا كفارا .

قوله سبحانه : قالُوا يا أَبانَا اسْتَغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا إِنَّا كُنَّا خاطِئِينَ قال أكثر المفسرين إن إخوة يوسف كانوا أنبياء و قال قوم لم يكونوا كذلك و هو مذهبنا لأنه وقع منهم القبائح من طرحهم يوسف في الجب و بيعهم إياه بالثمن البخس و قولهم أكله الذئب و إدخالهم الغم على أبيهم .

قوله سبحانه : وَ أَخافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَ أَنْتُمْ عَنْهُ غافِلُونَ ليس بتقرير به لأنه لما رأى من بنيه من الإيمان و الاجتهاد في الحفظ ظن مع ذلك السلامة و قوي في نفسه أن يرسله معهم إشفاقا من إيقاع الوحشة بينهم و يكون مزيلا للتهمة لكثرة حبه إياه .

قوله سبحانه : وَ ما أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنا وَ لَوْ كُنَّا صادِقِينَ لما علموا شدة تهمة أبيه لهم و خوفه على أخيهم منهم لما كان يظهر منهم من أمارات الحسد أيقنوه بأنه يكذبهم فيما أخبروا به من أكل الذئب أخاهم فقالوا إنك لا تصدقنا في هذا الخبر لما سبق إلى قلبك من تهمتنا و إن كنا صادقين كما يقول المخادع أنا أعلم أنك لا تصدقني في كذا و إن كنت صادقا .

قوله سبحانه : وَ جاؤُ عَلى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وصف الدم بأنه كذب و الكذب من صفات الأقوال لا من صفات الأجسام أما كذب فمعناه أنه مكذوب فيه و عليه مثل قولهم هذا ماء سكب و رجل صوم و امرأة نوح و يقال ما لفلان معقول و ما له في هذا الأمر مجلود و أما وصف الصبر بالجميل لأن الصبر صبران جميل إذا قصد به وجه الله و قبيح على غير ذلك الوجه .

قوله سبحانه : وَ ابْيَضَّتْ عَيْناهُ مِنَ الْحُزْنِ لكون يوسف في غاية الجمال و العلم و

العفاف ثم أصيب به أعجب مصيبة و قد يرد على الإنسان من الحزن ما لا يمكن رده و لهذا لا ينهى عن مجرد الحزن و إنما نهي عن النوح و اللطم و الجزع ثم إن التجلد على المصائب و كظم الحزن من المندوب و ليس بواجب .

قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) العين تدمع و القلب يحزن

و لم يسأل يعقوب من رؤيا ابنه يوسف لأن يوسف رآها و هو صبي غير نبي و لا موحى إليه فلا قطع على صحتها على أن يعقوب و إن كان قاطعا على بقاء ابنه و

إن الأمر سؤال فيه على ما تضمنه الرؤيا لا يوجب نفي الحزن لأن طول المفارقة يقتضيه لسائر الناس .

فصل :

قوله تعالى في قصة يوسف (عليه السلام) وَ شَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَراهِمَ مَعْدُودَةٍ إنما كان صبره على العبودية لأن الله تعالى لا يمتنع أن يكون أمره بكتمان أمره و الصبر على مشقة العبودية امتحانا و تشديدا في التكليف كامتحان إبراهيم بنمرود و إسماعيل بالذبح و يجوز أن يكون قد خبرهم بأنه حر إلا أنهم لم يسمعوا منه و قالوا إنه لم يكن في تلك الحال نبيا و لما خاف على نفسه القتل جاز أن يصير على الاسترقاق و قالوا إنه خاف القتل فكتم أمر نبوته و صبر على العبودية و هذا باطل يعلم أن الله تعالى عاصم للنبي حتى يؤدي و إلا كان نقضا للغرض .

قوله سبحانه : وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِها الهم لفظ مشترك أما قوله إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا أي عزموا .

و قال شاعر :

هممت و لم أفعل و كدت و ليتني *** تركت على عثمان تبكي حلائله

و أما قوله إِذْ هَمَّتْ طائِفَتانِ أي خطر ببالهم الفشل عن غير عزم يدل عليه وَ اللَّهُ وَلِيُّهُما لأنه قال وَ مَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ و إرادة المعصية و العزم عليها معصية قال كعب بن زهير فكم فيهم من سيد متوسع و من فاعل للخير إن هم أو عزم فرق بين الهم و العزم لأن الهم بالأمر حديث النفس بفعله و العزم نهاية القوة في النفس و هو مقدمة النية و بمعنى المقاربة يقال هم بكذا أي كاد يفعله و ليس هذا من همي و هذا أهم الأشياء إلي من ميل الطباع و قال تعالى جِداراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فالعزم على القبيح لا يجوز و يجوز على الوجوه الأخر و لقد همت به بالفحشاء و هم بها بالدفع عن نفسه

و قالوا يحمل الكلام على التقديم و التأخير و يكون تلخيصه و لقد همت به و لو لا أن رأى برهن ربه لهم بها كقوله وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَ رَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ و الهم لم يقع لمكان فضل الله و رحمته يقال قد كنت هلكت لو لا أني تداركتك و قتلت لو لا أني خلصتك المعنى لو لا تداركني لهلكت و لو لا تخلصني لقتلت قال الجبائي هم بها اشتهاها و مال طبعه إلى ما دعته إليه و تستعمل الشهوة هما في مجاز اللغة يقال ليس هذا من همي و هذا أهم الأشياء إلي و لا قبح في الشهوة فإنها من فعل الله تعالى فيه و إنما يتعلق القبح بتناول المشتهى .

قوله سبحانه : لَوْ لا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ يجوز أنه لما هم بدفعها أراه الله تعالى برهانا على أنه إن أقدم على ما هم به قتلوه أو أنها تقرفه بأنه دعاها إلى نفسه و ضربها لامتناعها منه كما قال تعالى وَ قالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُراوِدُ فَتاها عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَها حُبًّا إِنَّا لَنَراها فِي ضَلالٍ مُبِينٍ و قال وَ راوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِها عَنْ نَفْسِهِ و قال الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ و قال فَذلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَ لَقَدْ راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ و قال كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَ الْفَحْشاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ و قال ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ و قال قُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما عَلِمْنا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ و قال إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا وَ اسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخاطِئِينَ أما البرهان بأنه لطف لطف الله له به في تلك الحال أو قبلها اختار عنده الامتناع عن المعاصي و تكون الرؤية هاهنا بمعنى العلم و قالوا البرهان دلالة الله تعالى ليوسف على تحريم الفاحشة و على أن من فعلها استحق العقاب .

فصل :

قوله تعالى : رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَ إِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ متعلقة في ظاهر الكلام بما لا يصح في الحقيقة أن يكون محبوبا مرادا لأن السجن إنما هو الجسم و الأجسام لا يجوز أن يريدها و إنما يريد الفعل فيها و المتعلق بها و السجن نفسه ليس بطاعة و لا معصية و إنما الأفعال فيه قد تكون طاعات و

معاصي بحسب الوجوه التي تقع عليها و الظالم إذا أكره مؤمنا على ملازمة موضع و ترك التصرف

[٢٣٤]

في غيره كان فعل المكره حسنا و إن كان فعل المكره قبيحا فليس في الآية ما يدل على ما يقرفونه به (عليه السلام) ثم إنه أراد توطيني نفسي و تصبري لها على السجن أحب إلي من مواقعة المعصية و السجن أخف علي و أسهل كما يختار بعضنا أحد الشرين .

قوله سبحانه : وَ ما أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إنما أراد الدعاء و المنازعة و الشهوة و لم يرد العزم على المعصية و هؤلاء يبرئ نفسه مما يعتري مثله طباع البشر ثم إن هذا الكلام من كلام المرأة لا كلام يوسف و إنه مسوق على الكلام المحكي عنها

قوله تعالى : قالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ إلى قوله بِالسُّوءِ .

قوله سبحانه : قالَ أَحَدُهُما إِنِّي أَرانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَ قالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنا بِتَأْوِيلِهِ فكان جوابه لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قال ابن جريح إنما عدل عن تأويل الرؤيا لأنه كره أن يخبرهما بالتأويل لما يجري على أحدهما فيه فلم يتركانه حتى أخبرهما و قال أبو علي إنما قدم هذا ليعلما ما خصه الله به من النبوة و ليقبلا إلى الطاعة و الإقرار بتوحيد الله تعالى .

قوله سبحانه : اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ سجنه إذا كان قبيحا و منكرا فعليه أن يتوصل إلى إزالته بكل وجه و سبب فلا يمتنع على هذا أن يضم إلى دعائه تعالى رغبة إليه في خلاصه من السجن و يمكن أن يكون الله تعالى أوحى إليه بذلك و أمره أن يقول للرجل ما قال له .

قوله سبحانه : سَنُراوِدُ عَنْهُ أَباهُ المراودة هي التلطف و تكون من جهة الصدق و الكذب معا .

قوله سبحانه : جَعَلَ السِّقايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ الغرض في ذلك التسبب إلى احتباس

[٢٣٥]

أخيه عنده و يجوز أن يكون ذلك بأمر الله تعالى و روي أنه أعلم أخاه بذلك ليجعله طريقا إلى التمسك به و وجودها في رحله يحتمل وجوها كثيرة غير السرقة فلا يصرف إليها إلا بدليل و أما المنادي بأنهم سارقون فلم يكن بأمره (عليه السلام) و كيف يأمر بالكذب و قالوا المراد بأنهم سارقون إنهم سرقوا يوسف من أبيه (عليه السلام) و قالوا أسقط منه ألف الاستفهام أراد أ إنكم لسارقون و هذا ضعيف .

قوله سبحانه : ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ كتمان يوسف خبره عن أبيه لأنه أوحى الله تعالى إليه بأن يعدل عن اطلاعه على خبره تشديدا للمحنة عليه و تعريضا للمنزلة الرفيعة في البلوى و له تعالى أن يصعب التكليف و أن يسهل و يجوز أنه لم يتمكن من ذلك و لا قدر عليه .

قوله سبحانه : وَ رَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّداً أي سجدوا الله تعالى من أجله يقول إنما صليت لوصولي إلى أهلي و إنما صمت لشفائي من مرضي و يجوز أن يكون السجود لله تعالى غير أنه كان إلى جهة يوسف كما يقال صلى فلان إلى القبلة و على هذا لا يخرج يوسف من التعظيم أ لا ترى أن القبلة معظمة و إن كان السجود لله تعالى نحوها و السجود ليس بمجرد عبادة حتى يضامه من الأفعال ما يكون عبادة فلا يمتنع أن يكونوا له على سبيل التحية و لا يكون ذلك منكرا لأنه لم يقع على وجه العبادة .

قوله سبحانه : مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطانُ النزغ و القبيح كان منهم إليه لا منه إليهم و ذلك كما يقول القائل جرى بيني و بين فلان شر و إن كان من أحدهما .

قوله سبحانه : اجْعَلْنِي عَلى خَزائِنِ الْأَرْضِ التمس تمكينه من خزائنها ليحكم فيها بالعدل و يتمكن من الحق و الأمر بالمعروف و ذلك بعد ما قالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنا مَكِينٌ أَمِينٌ .

قوله سبحانه : إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ و قال تعالى فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ .

[٢٣٦]

فصل

قوله تعالى في قصة أيوب (عليه السلام) أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَ عَذابٍ النصب هو التعب و التعب المضرة التي لا يختص بالعقاب و قد يكون على سبيل الاختيار و العذاب المضار التي لا يختص إطلاق ذكرها بجهة دون جهة و لذلك يقال للظالم المعتدي بالظلم إنه معذب و مضر و إنما قيل معاقب على سبيل المجاز و إن لفظة العقاب تقتضي ظاهرها الجزاء لأنها من التعقيب و المعاقبة و لفظة العذاب ليست كذلك و أما إضافته ذلك إلى الشيطان بما ابتلاه الله به فإنه لم يضف المرض إليه و إنما أضاف وسوسته و تذكيره له العافية و النعم و دعاءه له إلى التضجر و لأنه كان يوسوس إلى قومه بأن يستقذروه و يتجنبوه من أمراضه الشنيعة المنظر و كل هذا ضرر من جهة إبليس .

قوله سبحانه : وَ خُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَ لا تَحْنَثْ قال قتادة و الضحاك إنه كان حلف على امرأته لأمر أنكره من قولها لئن عوفي لأضربنها مائة فقيل له خذ ضغثا بعدد ما حلفت و اضرب به دفعة واحدة فإن الله تعالى جعل لأيوب مخرجا من حلفه و الحيل في الأحكام تجوز عندنا و عند الشافعي ما كان مباحا يتوصل به إلى مباح قوله أَ أَنْتَ فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنا يا إِبْراهِيمُ قالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ و قوله جَعَلَ السِّقايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ... الآية و قوله فَالْمُورِياتِ قَدْحاً و أخذ وابل حجرا عداء فحلف سويد بن حنظلة أنه أخي فخلوا عنه فذكر ذلك للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال صدقت و المسلم أخو المسلم و ورد أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان إذا أراد غزوا تهيأ بموضع آخر حتى لا يقف عليه

الناس و منه حديث علي (عليه السلام) لعمرو بن عبد ود بعد ما رجع و عصب رأسه من ضربة عمرو خدعة أ تبارزني وحدك أم معك غيرك فالتفت عمرو فضربه علي فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الحرب خدعة و قال أبو حنيفة الحيلة المحظورة يتوصل بها إلى المباح جائز و استدل بقوله وَ سْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ حاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَ يَوْمَ لا يَسْبِتُونَ فكانوا يكسبون يوم السبت و يصيدون يوم الأحد

و قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم

[٢٣٧]

فباعوها و أكلوا أثمانها

قوله سبحانه : وَ أَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ هو الضر الذي قد يكون محنة و ليس بمنكر أن يكون أمراض أيوب (عليه السلام) و محنة في جسمه و أهله و ماله بلغت مبلغا عظيما لكون اللطف و المصلحة فيها و إنما ينكر الأمراض المستقذرة مثل البرص و الجذام و فيه كلام كثير و أما الأمراض النازلة به فكانت اختبارا و تعريضا للثواب بالصبر عليها و العوض العظيم في مقابلتها

فصل :

قوله تعالى قصة شعيب (عليه السلام) قَدِ افْتَرَيْنا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْها وَ ما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّنا الملة التي عناها الله تعالى إنما هي الشرعيات لقوم شعيب و هي منسوخة عندهم دون الاعتقادات في الأصول و الشرعيات يجوز فيها اختلاف العبادة من حيث تتبع المصالح و الألطاف و المعلوم من أحوال المكلفين فكأنه قال إن ملتكم لا نعود فيها مع علمنا بأن الله تعالى قد نسخها إلا أن يشاء الله أن يتعبدنا بمثلها فنعود إليها و تلك الأفعال التي كانوا ممسكين بها مع نسخها عنهم و نهيهم عنها و إن كانت ضلالا و كفرا فقد يجوز فيما هو مثلها أن يكون إيمانا بل فيها أنفسها قد كان يجوز ذلك و ليس تجري هذه الأفعال مجرى الجهل بالله الذي لا يجوز أن يكون إلا قبيحا و أراد أن ذلك لا يكون أبدا

من شعيب إلا بمشية الله لما كان معلوما أنه لا يشاء و كل أمر علق بما لا يكون فقد نفي كونه على أبعد الوجوه كقوله وَ لا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِياطِ يقال لا أفعل ذلك حتى يبيض القار و يشيب الغراب و قال قطرب في الكلام تقديم و تأخير و الاستثناء من الكفار وقع لا من شعيب فكأنه تعالى قال حاكيا عن الكفار لنخرجنك يا شعيب و الذين آمنوا معك من قريتنا إلا أن يشاء الله أن تعود في ملتنا ثم قال تعالى حاكيا عن شعيب و ما كان لنا أن نعود فيها على حال الهاء من فيها تعود إلى القرية لا إلى الملة لأنه قد تقدم ذكرهما المعنى إلا أن يشاء الله أن يردكم إلى الحق فنكون جميعا على ملة واحدة لأنه لما حكى عنهم أو لتعودن في ملتنا كان معناه أو لنكونن على ملة واحدة فحسن أن يقول من بعد إلا أن يشاء الله أن يجمعكم معنا على ملة واحدة

[٢٣٨]

المعنى إلا أن يشاء الله أن يمكنكم من إكراهنا بأن يخلي بينكم و بينه فنعود إلى إظهارها مكرهين يريد ذلك قوله وَ لَوْ كُنَّا كارِهِينَ المعنى إلا أن يشاء الله أن يتعبدنا بإظهار ملتكم مع الإكراه لأن إظهار كلمة الكفر قد يحسن في بعض الأحوال إلى أن يتعبد الله بإظهارها يقوي ذلك قوله وَ لَوْ كُنَّا كارِهِينَ قوله سبحانه حاكيا عن شعيب وَ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ و الشيء لا يعطف على نفسه لا سيما بالحرف الذي يقتضي التراخي ثم إن الاستغفار هو التوبة الجواب اجعلوا المغفرة أولا في الطلب و التوبة آخرا في السبب و سلوه التوفيق للمغفرة و المعونة عليها ثم توبوا لأن التوفيق يكون قبلها و استغفروه قولا ثم توبوا إليه بالنية التي بها يسقط العقاب خاطب المشركين بالله تعالى فقال استغفروه من الشرك بمفارقته ثم توبوا أي ارجعوا إليه بأفعال الخير استغفروا ربكم ثم أقيموا على التوبة إليه تكرارا و تأكيدا كما يقال اضرب زيدا ثم اضربه و افعل هذا ثم افعله أراد بثم الواو بمعنى استغفروا ربكم و توبوا إليه .

قوله سبحانه : يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إلى قوله إِحْدَى ابْنَتَيَّ هاتَيْنِ سألته أن يستأجره و مدحته بالقوة و الأمانة كان كلاما دالا على الترغيب فيه و التقريب منه فيدل له

النكاح الذي فيه غاية الاختصاص فيما فعله شعيب في غاية المطابقة لما يقتضيه سؤالها .

قوله سبحانه : عَلى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ إنما جاز التخيير و التفويض في الصداق و استفادة شعيب لنفسه لأنه يجوز أن يكون الغنم كانت لشعيب و كانت الفائدة باستيجار من يرعيها عائدة عليه إلا أنه أراد أن يعوض بنته من قيمة رعيها فيكون ذلك مهرا لها و أما التخيير إنما كان فيما زاد على ثماني حجج و يجوز أن يكون من شريعته العقد بالتراضي من غير صداق معين و يكون قوله عَلى أَنْ تَأْجُرَنِي على غير وجه الصداق و هذا ضعيف و يجوز أن يكون الغنم كانت للبنت و كان الأب المتولي لأمرها و قبض الأب مهر بنته البالغ جائز و أجمعوا على أنها كانت بكرا حذف ذكر الصداق و ذكر ما شرط لنفسه مضافا إلى الصداق لأنه جائز أن يشرط الولي لنفسه ما

يخرج عن الصداق و ظاهر الآية أن أحدهما جزاء على الآخر .

قوله سبحانه عن صالح (عليه السلام) فَما تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ معناه فما تزيدونني غير تخسيركم و تضليلكم أي تصيرون عندي خسارا ضلالا كقوله يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ فيصير الحسرة عليهم أي منهم .

فصل :

قوله تعالى في قصة موسى (عليه السلام) فَوَكَزَهُ مُوسى فَقَضى عَلَيْهِ أراد أن يخلص من استغاث إليه من شيعته فأدى ذلك إلى القتل من غير قصد و كل ألم يقع على سبيل المدافعة للظالم من غير قصد فهو حسن و لا يستحق العوض به و لا فرق بين أن يدافع عن نفسه أو عن غيره و الشرط فيهما أن يكون الضرر غير مقصود و أن يكون القصد إلى دفع المكروه و المنع من وقوع الضرر ثم إن الله تعالى كان قد عرف موسى استحقاق القبطي القتل بكفره و ندبه إلى تأخير قتله إلى حال التمكين فلما رأى منه الأقدام على رجل من شيعته تعمد قتله تاركا لما ندب إليه من تأخير قتله و قتله لا يخلو

إما أن يكون قتله عمدا و هو مستحق فلا يكون عاصيا أو قتله عمدا و هو غير مستحق فهذه كبيرة و إن قتله خطأ و هو مستحق أو غير مستحق ففعله خارج من باب القبيح جملة و هذا رد على من قال إن قتله كان صغيرة .

قوله سبحانه : هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ أي تزيين قتلي و تركي لما ندبت إليه من تأخيره و تفويتي لما أستحقه من الثواب من عمل الشيطان منصحا بذلك عن خلافه الله تعالى و استحقاقه للقتل و يحتمل أن يكون المراد بالشيطان القبطي في اعتدائه .

قوله سبحانه : إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ أي جانب في طلب ما تذكره ثم قصد إلى نصرته كما نصره بالأمس على الآخر فظن أنه يريد البطش به فقال أَ تُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَما قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ .

قوله سبحانه : وَ لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ قال مجاهد و قتادة يعني قتل القبطي الذي قتله

موسى حين استصرخ به واحد من بني إسرائيل فأخاف أن يقتلوني بذلك المقتول .

قوله سبحانه : وَ فَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَ أَنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ لنعمتي و حق تربيتي يقويه قوله أَ لَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيداً و قال الحسن وَ أَنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ بي إني إلهك .

قوله سبحانه : قالَ فَعَلْتُها إِذاً وَ أَنَا مِنَ الضَّالِّينَ أي الذاهبين عن أن الوكزة تأتي على النفس أو أن المدافعة تقضي إلى القتل و قد يسمى الذاهب عن الشيء أنه ضال عنه و يجوز أن يريد أنني ضللت عن فعل المندوب إليه من الكف عن القتل في تلك الحال .

قوله سبحانه : إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي كقول آدم رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا و توبتهما أنما كانت على وجه الخشوع و الانقطاع إلى الله تعالى و ذلك دأب الصالحين عند تجدد آيات الله تعالى .

قوله سبحانه : فَاغْفِرْ لِي فاقبل مني هذه القربة و الرجوع إليك و يسمى الاستغفار و التوبة غفرانا .

قوله سبحانه : أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ فأجاب موسى إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ فَأَرْسِلْ إِلى هارُونَ ليس ذلك استعفاء عن الرسالة بل كان قد أذن له في أن يسأل ضم أخيه في الرسالة إليه قبل هذا الوقت و ضمنت له الإجابة قوله وَ اجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هارُونَ أَخِي فأجابه الله تعالى قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى .

قوله سبحانه : أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ فكأنه قال فألقوا ما أنتم ملقون إن كنتم محقين و كان فيما تفعلونه حجة و حذف الشرط في الأمر جائز لدلالة الكلام عليه و اقتضاء الحال له و يجوز أن يكون دعاهم على وجه التحدي إلى الإلقاء على وجه يساوونه فيه بالتحيل

و يغلبهم بالحجة من انقلاب الجماد حية على الحقيقة و قد بين الله تعالى ذلك في قوله وَ جاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ إلى قوله صاغِرِينَ قال الجبائي قوله أَلْقُوا كفر لهم و تهديد و معناه من كان إلقاؤه منكم حجة عنده ابتدأ بالإلقاء و قال قوم يجوز أن يكون ذلك أمرا على الحقيقة أمرهم بالإلقاء على وجه الاعتبار لا على وجه يقوي الكفر .

قوله سبحانه : فَإِذا حِبالُهُمْ وَ عِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى إنما قال يُخَيَّلُ لأنها لم تكن تسعى حقيقة و إنما تحركت لأنه قيل جعل داخلها زيبق فلما حميت بالشمس طلب الزيبق الصعود فتحركت العصي فظن أنها تسعى .

قوله سبحانه : فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى إنه لم يخف إلا من قوة التلبيس و بالتخيل ما أشفق عنده من وقوع الشبهة على من لم ينعم النظر و لا يقتضي شكه في ما أتي به فآمنه الله من ذلك و بين أن حجته يتضح للقوم بقوله لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى يوافقه .

قول أمير المؤمنين (عليه السلام) : لم يوجس موسى خيفة على نفسه أشفق من غلبة الجهال و دول الضلال .

قوله سبحانه : فَلَمَّا أَتاها نُودِيَ يا مُوسى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ إنما علم موسى أن هذا النداء من قبل الله عز و جل بمعجز أظهره له الله كما قال في موضع آخر نُودِيَ مِنْ شاطِئِ الْوادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يا مُوسى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ وَ أَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَ لَمْ يُعَقِّبْ حتى قيل له أَقْبِلْ وَ لا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ .

قوله سبحانه : فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ قال الحسن و ابن جريح ليباشر بقدمه بركة الواد المقدس و هو قول أمير المؤمنين (عليه السلام) و قال البلخي إنه أمر بذلك على وجه الخضوع و التواضع لأن التخفي في مثل ذلك أعظم تواضعا و خضوعا و قال كعب و عكرمة لأنها

كانت من جلد حمار ميت و هذا فاسد لأن النبي لا يستحل الميت .

قوله سبحانه : عِجْلًا جَسَداً لَهُ خُوارٌ قال الحسن و أبو بكر بن الإخشيد إنه كان معلوما معتادا في ذلك الوقت أنه من قبض من أثر الرسول قبضة فألقاها على جماد صار حيوانا فعلى هذا لا يكون خرق العادة بل كان معتادا و قال الجبائي المعنى أنه سولت له نفسه ما لا حقيقة له و إنما جاز بحيلة جعلت فيه من خروق إذا دخلته الريح سمع له خوار .

قوله سبحانه : رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَ أَخِي مجاز لأن الإنسان لا يصح أن يكون مقدورا عليه أو في حكم المقدور عليه في أنه يصرفه تصريف المقدور كملك الإنسان للمال و العبد و معناه أنه لما ملك تصريف نفسه في طاعة الله جاز أن يصف نفسه بأنه بما يجوز أن يملكه و قوله أَخِي لأنه كان أيضا طائعا له فيما يأمره به فكان كالقادر عليه .

قوله سبحانه : فَدَعا رَبَّهُ أَنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ و ذلك أنه لما أيس من قومه أن يؤمنوا به دعا الله ربه فقال إن هؤلاء قوم مجرمون و قيل إنه دعا لما يقتضي سوء أفعالهم فكأنه قال اللهم عجل ما يستحقونه بأجرامهم بما به يكونون أنكالا لمن بعدهم و ما دعا بهذا الدعاء إلا بعد أن أذن الله له في الدعاء عليهم .

قوله سبحانه : رَبَّنا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَ مَلَأَهُ زِينَةً وَ أَمْوالًا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا رَبَّنا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ أي أن لا يضلوا فحذف لا كقوله أَنْ تَضِلَّ إِحْداهُما فَتُذَكِّرَ إِحْداهُمَا الْأُخْرى و قوله أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ و قوله وَ أَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ .

نزلتم منزل الأضياف منا *** فعجلنا القرى أن تشتمونا

فصل :

قوله تعالى : رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ إنما سأل ربه تعالى ضرورة

بإظهار أعلام الآخرة التي تضطر عندها إلى المعرفة فتزول الخواطر عنه و منازعة الشكوك و الشبهات و يستغني عن الاستدلال فتخف المحنة عنه بذلك كما سأل إبراهيم فقال رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى و يجوز أنه إنما سأل ذلك حالة نظره في جوازه و امتناعه فأراد أن يعرف ذلك من جهة السمع و الرؤية يعرف بالعقل و السمع

و حالة النظر فارق سائر الأحوال و يجوز فيه ما لا يجوز في غيره و لو لم يكن سؤاله لبعض ما قلناه لاستحق الذم كما استحق قومه فقالوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ... الآية .

قوله سبحانه : أَ تُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا الهلاك هاهنا بمعنى الموت كقوله إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ و لا يكون ذلك عقوبة منه بفعل غيرهم .

قوله سبحانه : فَلَمَّا أَفاقَ قالَ سُبْحانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ التوبة أنما كانت على سبيل الرجوع إلى الله تعالى و إظهار الانقطاع و التقرب لا لذنب فيجوز أن يكون الغرض في ذلك لتعليمنا و توفيقنا على ما نستعمله عند الشدائد و له أجوبة غير ذلك .

قوله سبحانه : وَ أَلْقَى الْأَلْواحَ أي إن موسى (عليه السلام) أقبل غضبان على قومه مستعظما لفعلهم فأخذ برأس أخيه و جره إليه كما يفعل الإنسان بنفسه مثل ذلك عند الغضب و شدة الفكر و المفكر الغضبان قد يعض على يده و يفتل أصابعه و يقبض على لحيته فأجرى موسى (عليه السلام) أخاه هارون مجرى نفسه و هذه الأمور تختلف أحكامها بالعادات فيكون ما هو إكرام في بعضها استخفافا في غيرها و يكون على ضد ذلك .

قوله سبحانه : يَا بْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَ لا بِرَأْسِي لا يدل على أنه وقع على سبيل الاستخفاف بل معنى كلامه لا تغضب و لا يشتد جزعك و أسفك و إنه أجرى مجرى نفسه إذا غضب في القبض على لحيته كأنه لم يكن متهما عنده كما لا يتهم على نفسه و يحتمل أن عادة ذلك الوقت أن الواحد إذا خاطبه غيره قبض على لحيته كما يقبض على يده في

عاداتنا و العادات تختلف .

قوله سبحانه : إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرائِيلَ لا يمتنع أن يكون هارون خاف من أن يتوهم بنو إسرائيل بسوء ظنهم أنه منكر عليه معاتب له ثم ابتدأ يشرح قصته فقال مرة ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَ كادُوا يَقْتُلُونَنِي .

قوله سبحانه : أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَ لا يَكادُ يُبِينُ قال الزجاج اللثغة كانت في لسانه و قال قتادة و السدي كانت في لسانه آفة و قال أكثر المفسرين كان احترق لسانه بالجمر الذي وضعه في فمه حين أراد أن يعتبر فرعون عقله لما لطم وجهه و أراد أن يأخذ غير النار فصرف جبرئيل يده إلى النار دفعا عنه القتل و قال الحسن كان في لسانه ثقل فنسبه إلى ما كان عليه أولا و أقول إنه نسبه إلى قلة البيان كما نسبه إلى المهانة كذبا و زورا قال الجبائي فانحل ما كان بلسانه منه بدلالة قوله وَ لا يَكادُ يُبِينُ و قال الحسن استجاب الله دعاءه فحل العقدة عن لسانه و هو الصحيح لقوله قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى في عقيب دعائه رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي .

فصل :

قوله تعالى : فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَ عَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً يمكن أن يكون الله تعالى قد أعلم هذا الغلام ما لم يعلمه موسى و أرشد موسى (عليه السلام) إليه ليتعلم منه و إنما المنكر أن يحتاج النبي في العلم إلى بعض رعيته و يجوز أن يكون نبي أعلم من نبي وقته و ما تعلمه من هذا العالم كتعلمه من الملك الذي يهبط إليه و لا يدل ذلك على أن ذلك العالم كان أفضل من موسى في العلم لأنه لا يمتنع أن يزيد موسى (عليه السلام) في سائر العلوم التي هي أفضل مما علمه فقد يعلم أحدنا شيئا من المعلومات ما لا يعلمه من هو أفضل منه .

قوله سبحانه : فَلا تَسْئَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً و قد قال فَسْئَلُوا أَهْلَ

الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ النهي أنما هو نهي عن نوع العلم الذي لم يبلغ منزلته بعد و أحدث إنما هو على سؤال تفاصيل ما خفي عليه من النوع الذي هو بصدده لئلا يتولد فيه شبهة .

قوله سبحانه : إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً لو كان نفي الاستطاعة على ما ظنه الجهال لكان العالم و هو في ذلك سواء فلا معنى لاختصاصه بنفي الاستطاعة و الدليل على أنه نفى عنه الصبر لا استطاعته قول موسى (عليه السلام) في جوابه سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ صابِراً و لم يقل مستطيعا و من حق الجواب أن يطابق الابتداء

قوله سبحانه : وَ لا أَعْصِي لَكَ أَمْراً مشروط بالمشية و ليس بمطلق فكأنه قال ستجدني صابرا و لا أعصي لك أمرا إن شاء الله و إنما قدم الشرط على الأمرين جميعا .

قوله سبحانه : لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً أي عجبا و منكرا أو داهية و قالوا الأمر من أمر القوم أي كثروا و جعل عبارة عن كثرة عجبه .

قوله سبحانه : لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً أي إن ظاهر ما أتيته المنكر و من يشاهده قبل أن يعرف علته ينكره ثم إنه حذف الشرط فكأنه أراد إن كنت ظالما فقد جئت شيئا نكرا على أنه أراد أنك أتيت أمرا بديعا غريبا فإنهم يقولون فيما يستغربونه إنه نكر و منكر و يمكن أن يقول قال على وجه الاستفهام دون القطع يدل عليه أَ خَرَقْتَها لِتُغْرِقَ أَهْلَها و قوله أَ قَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ .

قوله سبحانه : وَ أَمَّا الْغُلامُ فَكانَ أَبَواهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينا أَنْ يُرْهِقَهُما طُغْياناً وَ كُفْراً الغلام كان مراهقا فقتله العالم خشي أي علم من الله تعالى أنه متى بلغ كفر أبواه و متى قتل بقيا على إيمانهما و لا فرق بين أن يميته الله و بين أن يأمر بقتله و الدليل على أن خشي بمعنى علم قوله وَ إِنِ امْرَأَةٌ خافَتْ مِنْ بَعْلِها نُشُوزاً أَوْ إِعْراضاً و قوله إِلَّا أَنْ يَخافا أَلَّا يُقِيما

حُدُودَ اللَّهِ و قوله وَ إِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً و قالوا الغلام كان كافرا مستحقا للقتل فخشي الخضر (عليه السلام) أي خاف إدخال أبويه في الكفر و تزيينه لهما و قالوا الخشية الكراهية يقال فرقت بين الرجلين خشية أن يقتلا فالتأويل بمعنى العلم لا يمتنع أن يضاف العلم إلى الله تعالى ثم إن موسى (عليه السلام) إنما استقبح على البديهة قتل الغلام لأنه لم يعرف الوجه الذي هو علة حسنة و لو علم ذلك لعلم حسن القتل و قبح السفينة .

قوله سبحانه : أَمَّا السَّفِينَةُ فَكانَتْ لِمَساكِينَ إنما عنى بالمسكنة عدم الناصر كما يسمى من كان كثير المال واسع الحال مسكين و مستضعف .

و قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مسكين مسكين رجل لا زوجة له

ثم إن السفينة للبحري الذي لا يتعيش إلا بها كالدار التي يسكنها الفقير هو و عياله و لا يجد سواها فهو مضطر إليها فإن إنضاف إلى ذلك أن يشاركه جماعة في السفينة حتى يكون منها الجزء اليسير كان أظهر فقرا ثم إن لفظة المساكين قد قرئت بالتشديد و معناه البخلاء .

قوله سبحانه : لا تُؤاخِذْنِي بِما نَسِيتُ أي بما تركت نحو قوله وَ لَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ قال ابن عباس لا تؤاخذني بما فعلته مما يشبه النسيان فسماه نسيانا للمشابهة كما قال المؤذن لإخوة يوسف إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ ثم إنه ليس النسيان بعجيب مع قصر المدة فإن الإنسان قد ينسى ما قرب زمانه لما يعرض له شغل القلب .

فصل :

قوله تعالى : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسى ليس فيها ما قرفوه به و الصحيح أن بني إسرائيل لما مات هارون قرفوه بأنه قتله لأنهم كانوا إلى هارون أميل فبرأه الله من ذلك و أمر الملائكة بأن حملت هارون ميتا و مرت به على

محافل بني إسرائيل ناطقة بموته و مبرئة لموسى (عليه السلام) من قتله و روي أن موسى نادى أخاه هارون فخرج من قبره فسأله هل قتله فقال لا ثم عاد .

قوله سبحانه : وَ إِذْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَ الْفُرْقانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ و الفرقان هو

[٢٤٧]

القرآن و لم يؤت به و إنما اختص به محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) كتب الله كلها فرقان يفرق بين الحق و الباطل و اختلاف اللفظين جائز قال و ألقي قولها كذبا و ميتا و الكتاب عبارة عن التوراة و الفرقان انفراق البحر لموسى (عليه السلام) و الفرقان الفرق بين الحلال و الحرام و الفرقان بين موسى و أصحابه المؤمنين و بين فرعون و أصحابه الكافرين كالنجاة و الهلاك و الفرقان المنزل على نبينا (صلى الله عليه وآله وسلم) و التصديق و الإيمان بالفرقان الذي هو القرآن لأن موسى كان مؤمنا بمحمد و بما جاء به و ساغ حذف القبول و الإيمان و التصديق و إقامة الفرقان مقامه كما ساغ في قوله وَ سْئَلِ الْقَرْيَةَ و الفرقان القرآن و تقدير الكلام و إذ آتينا موسى الكتاب الذي هو التوراة و آتينا محمدا القرآن فحذف ما حذف كما .

علفتها تبنا و ماء باردا

و قال الآخر :

يا ليت بعلك قد غدا *** متقلدا سيفا و رمحا

و قال الصادق (عليه السلام) : القرآن جملة الكتاب و الفرقان المحكم الواجب العمل به .

قوله سبحانه : وَ ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ ثم قال وَ كَلَّمَ اللَّهُ مُوسى تَكْلِيماً المعنى و الله أعلم أن الله تعالى خص موسى بكلام خلقه على هذه الصفة ما لم يخص به أحد من أنبيائه .

قوله سبحانه : وَ إِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قالُوا أَ تَتَّخِذُنا هُزُواً قالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ و الهزء اللعب و السخرية و لا يجوز أن يقع من أولياء الله تعالى فيما يؤدونه هزو و لا لعب فظنوا به ظن سوء لجهلهم بالحكمة فقال موسى عند ذلك أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ يعني من السفهاء الذين يرون على الله الكذب و الباطل .

قوله سبحانه : وَ أَلْقِ عَصاكَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَ لَمْ يُعَقِّبْ يا مُوسى ... الآية إنما ولى منها موسى للبشرية لا أنه شك في كونها معجزة له لا تضره فقيل لا تَخَفْ نداء من الله تعالى لموسى و نهي له عن التخوف و قال له إنك مرسل و لا يَخافُ لَدَيَّ

[٢٤٨]

الْمُرْسَلُونَ لأنهم لا يفعلون قبيحا و لا يخلون بواجب فيخافوا عقابه إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء صورته صورة الاستثناء و هو منقطع عن الأول و تقديره لكن من ظلم نفسه فعل القبيح ثم بدل حسنا بعد سوء بأن يأتي بعد القبيح بالفعل الحسن فإنه يغفر له و قال الحسن هو استثناء غير منقطع و أراد من فعل صغيرة من الأنبياء و هذا بعيد من الثواب لأن صاحب الصغيرة لا خوف عليه أيضا لوقوعها مكفرة و الاستثناء وقع من المرسلين الذين لا يخافون .

فصل :

قوله تعالى في قصة داود (عليه السلام) وَ هَلْ أَتاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ إلى قوله وَ أَنابَ لا تدل على وقوع الخطأ منه و أما الرواية المدعاة فساقطة لتضمنها خلاف ما يقتضيه الأصول مطعون في رواتها و الخصم مصدر لا يجمع و لا يثنى و لا يؤنث فلذلك قال إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ ثم إن الخصمين كالقبيلتين أو الجنسين ثم إن في الاثنين معنى الانضمام و لهذا زعم بعضهم أنه أقل الجمع و قيل بل كان مع هذين الخصمين غيرهما ممن يعنيهما .

قوله سبحانه : فَفَزِعَ مِنْهُمْ لأنه كان خاليا بالعبادة في وقت لم يدخل عليه فيه أحد و لأنهما دخلا من غير المكان المعهود .

قوله سبحانه : قالُوا لا تَخَفْ خَصْمانِ بَغى بَعْضُنا عَلى بَعْضٍ إلى قوله وَ عَزَّنِي فِي الْخِطابِ قال أكثر المفسرين إنه كني بالنعاج عن تسع و تسعين امرأة و إن للآخر امرأة واحدة و قال الحسن لم يكن له تسع و تسعون امرأة و إنما هو على وجه المثل و قال أبو مسلم أراد النعجة بأعيانها و هو الظاهر .

قوله سبحانه : وَ داوُدَ وَ سُلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَ كُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدِينَ فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ وَ كُلًّا آتَيْنا حُكْماً وَ عِلْماً قيل في معنى قوله إِذْ يَحْكُمانِ إنهما إذ شرعا في الحكم فيه من غير قطع به في ابتداء الشرع و قيل أن يكون

حكمه حكما معلقا بشرط لم يفعله بعد و قيل أن يكون معناه طلب الحرث و لم يبتديانه بعد و يقوي ذلك قوله فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ و الجواب الصحيح أنه كان حكمهما حكما واحدا إلا أن داود أمر سليمان بالحكم ليعرف بني إسرائيل علم سليمان و أنه وصيه من بعده .

قوله سبحانه : إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِشْراقِ و قوله وَ سَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ يُسَبِّحْنَ وَ الطَّيْرَ معنى ذلك أنها كانت تسير بأمر الله تعالى معه حيث سار بالغداة و العشي فسمى الله تعالى ذلك لما في ذلك من دلالته على قدرته و صفاته التي لا يشاركه فيها غيره و قوله وَ الطَّيْرَ مَحْشُورَةً أي مجموعة من كل ناحية إليه يعني كل الطير و الجبال له أواب إلى ما يريد و قال قتادة أي مسخرة و عبر عن ذلك التسخير بأنه تسبيح من الطير لدلالته على أن مسخرها قادر و لا يجوز عليه العجز كما يجوز على العباد و قال الجبائي أكمل الله تعالى عقول الطير حتى فهمت ما

كان من سليمان يأمرها به و ينهاها عنه و ما يتوعدها به متى خالفت و سخر له الطير بأن قوى أفهامها حتى صارت كصبياننا الذين يفهمون التخويف و الترهيب .

قوله سبحانه : لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ إِلى نِعاجِهِ من غير مسألة للخصم إنما أراد به إن كان الأمر كما ذكرت و معنى ظلمك انتقصك كما قال آتَتْ أُكُلَها وَ لَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً و قوله وَ ظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ أي علم و حدس أيضا .

قوله سبحانه : فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَ خَرَّ راكِعاً وَ أَنابَ على سبيل الانقطاع إلى الله تعالى و الخضوع له .

قوله سبحانه : فَغَفَرْنا لَهُ ذلِكَ أي قبلنا منه و كتبنا له الثواب عليه و أخرج الجزاء على لفظ المجازى عليه و أما قذفه بامرأته أوريا باطل .

قال أمير المؤمنين (عليه السلام) : لا أوتي برجل يزعم أن داود تزوج بامرأة أوريا إلا جلدته حدا للنبوة و حدا للإسلام .

و قال أبو مسلم الأصفهاني : لا يمتنع أن الداخلين على داود كانا خصمين من البشر و إنما ارتاع منهما لدخولهما

من غير إذن و على غير مجرى العادة و ليس في ظاهر التلاوة ما يقتضي أن يكونا ملكين .

فصل :

قوله تعالى في قصة سليمان (عليه السلام) وَ وَهَبْنا لِداوُدَ سُلَيْمانَ إلى قوله وَ الْأَعْناقِ ليس ظاهرها دالا على أن مشاهدة الخيل ألهاه عن ذكر ربه حتى فاتته الصلاة فعرقبها و قطع سوقها و أعناقها بل هذا مخالفة لما تقتضيه الأدلة يدل عليه أن الله تعالى ابتدأ الآية بمدحه فقال نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ و لا يجوز أن يثني عليه بهذا الثناء ثم يتبعه من غير فصل بإضافة القبيح إليه .

قوله سبحانه : إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ أي أحببت حبا ثم أضاف الحب إلى الخير أو أراد أحببت اتخاذ الخير لأن ذات الخيل لا يحب فجعل بدل قوله اتخاذ الخيل حب الخير .

قوله سبحانه : حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ عائد إلى الخيل دون الشمس لأنه قد جرى ذكرها في الآية و لم يجر ذكر الشمس و ليس في ظاهر القرآن أن التواري كان سببا لفوات صلاة النافلة .

قوله سبحانه : رُدُّوها عَلَيَّ الخيل لا محالة فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَ الْأَعْناقِ مسحها أو أمر يده عليها صيانة لها و إكراما و هذا عادة الناس و المسح أيضا الغسل أي غسل قويمها و أعناقها و لا تسمي العرب الضرب بالسيف و القطع به مسحا ثم إنه لم يجر للسيف ذكر فيضاف المسح إليه و يقال إنه عرقب الخيل لأنها كانت أعز ماله و كفر عن تفريطه في النافلة بذبحها و التصديق بلحمها على المساكين لقوله لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ .

قوله سبحانه : وَ وَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ قال أصحابنا ورثة المال و العلم و قال المخالفون إنه ورثة العلم .

للخبر المروي نحن معاشر الأنبياء لا نورث .

و قوله (عليه السلام)

العلماء ورثة الأنبياء .

حقيقة الميراث هو انتقال تركه الماضي بموته إلى الباقي من ذوي قرابته و حقيقة ذلك في الأعيان و إذا قيل ذلك في العلم كان مجازا و الخبر خبر واحد لا يجوز أن يخص به عموم القرآن و مثل ذلك قوله فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَ يَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ و قد شرحنا ذلك في المثالب .

قوله سبحانه : وَ لَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمانَ وَ أَلْقَيْنا عَلى كُرْسِيِّهِ جَسَداً النبوة لا تكون في خاتم و لا يسلبها الجني من النبي و إن الله تعالى لا يمكن الجني من التمثل بصورة النبي و ليس في الظاهر أكثر من أن جسدا ألقي على كرسيه على سبيل الاختيار له نحو

قوله تعالى : الم أَ حَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَ هُمْ لا يُفْتَنُونَ وَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

قيل إنه (عليه السلام) ذكر يوما في منزله لأطوفن الليلة على مائة امرأة تلد كل امرأة منهن غلاما يضرب بالسيف في سبيل الله .

القصة ؛ فإن صح ذلك فلا يكون ذنبا لأن محبة الدنيا على وجه المباح ليس بذنب و قيل كان لسليمان ولد شاب يعجب به فأماته الله فجأة اختبارا من الله تعالى لسليمان و قيل إنه أماته في حجره فوضعه على كرسيه من حجره و جائز أن يكون الجسد المذكور هو نفس سليمان و أن يكون ذلك لمرض امتحنه الله به و العرب تقول إنما هو لحم على وضم و جسد بلا روح تغليظا للعلة و مبالغة في فرط الضعف .

قوله سبحانه : وَ لِسُلَيْمانَ الرِّيحَ أي بالتسخير تَجْرِي بِأَمْرِهِ يعني بأمر سليمان إلى حيث شاء و يكون فيما أعطاه من التسخير يدعوه إلى الخضوع و يدعو الطالب إلى الحق بالاستبصار في ذلك و كان لطفا يجب فعله .

قوله سبحانه : رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ هَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي قد ثبت أن الأنبياء (عليهم السلام) لا تسأل إلا ما يؤذن لها في مسألته لا سيما إذا كانت المسألة ظاهرة يعرفها قومهم و جائز أن يكون الله تعالى أعلم سليمان أنه إن سأل ملكا لا يكون لغيره كان أصلح له في الدين و الاستكثار من الطاعات و أعلمه أن غيره لو سأل ذلك لم يجب إليه من حيث لا صلاح له فيه و لو أن أحدنا صرح في دعائه بهذا الشرط حتى يقول اللهم اجعلني أيسر

أهل زماني و ارزقني ما لا يساوي فيه غيري إذا علمت أن ذلك أصلح لي و أنه ادعى إلى ما تريده مني لكان هذا الدعاء حسنا جميلا و هو غير منسوب إلى بخل و ليس يمتنع أن يسأل النبي هذه المسألة من غير إذن إذا لم يكن ذلك بحضرة قومه بعد أن يكون هذا الشرط مرادا فيها و إن لم يكن منطوقا به لكان هذا الدعاء حسنا جميلا و هو غير منسوب إلى البخل ثم إنه إنما التمس أن يكون ملكه آية لنبوته يتبين بها من غيره ممن ليس بنبي .

قوله سبحانه : لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي أي لا ينبغي لأحد غيري ممن أنا مبعوث إليه و لم يرد من بعده إلى يوم القيامة من النبيين كما يقول القائل أنا أطيعك و لا أطيع أحدا بعدك أي سواك قال المرتضى إنما سأل ملك الآخرة الذي لا يناله المستحق إلا بعد انقطاع التكليف و زوال المحنة و قوله لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي أي لا يستحقه بعد وصولي إليه أحد من حيث لا يصلح أن يعمل ما يستحق به لانقطاع التكليف و يقوي ذلك قوله رَبِّ اغْفِرْ لِي و هو من أحكام الآخرة .

فصل :

قوله تعالى : عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ قال المبرد تسمي العرب كل مبين عن نفسه ناطقا و متكلما و قال الرماني منطق الطير صوت تتفهم به معانيها على صيغة واحدة بخلاف منطق الناس إذ هو صوت يتفهمون به معانيهم على صيغ مختلفة و لذلك لم يفهم عنها مع طول مصاحبتها و لم تفهم هي عنه لأن أفهامها مقصورة على تلك الأمور المخصوصة و لما جعل سليمان يفهم عنها كان قد علم منطقها و قيل المراد به أنه علم ما يفهم به ما ينطق الطيور به في أصواتها و مقاصدها بما يقع منها من صياح على سبيل المعجز لسليمان .

قوله سبحانه : ما لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ عرفه بالألف و اللام للخصوصية به و سبيله سبيل غراب نوح و حمار عزير .

قوله سبحانه : لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً العذاب اسم للضرر و إن لم يكن مستحقا و

ليس يجري مجرى العقاب الذي لا يكون إلا جزاء فيكون معنى لأعذبنه لأولمنه و يكون الله أباحه ذلك الإيلام كما أباحه الذبح لضرب من المصلحة كما سخر له الطير و يصرفها في منافعه و أغراضه للمعجزة و قد يسمى التأديب تعذيبا قوله وَ لْيَشْهَدْ عَذابَهُما طائِفَةٌ و قيل أراد حبسه أو نتف ريشه .

قوله سبحانه : قالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ سأل يحيى بن أكثم علي بن محمد التقي (عليه السلام) هل كان سليمان محتاجا إلى علم آصف فقال (عليه السلام) لم يعجز سليمان عن معرفة ما عرف آصف لكنه أحب أن يعرف أمته من الجن و الإنس أنه الحجة من بعده و ذلك من علم سليمان أودعه آصف بأمر الله ففهمه الله ذلك لئلا يختلف في إمامته و دلالته كما فهم الله سليمان في حياة داود لتعرف إمامته و نبوته من بعد لتأكيد الحجة على الخلق .

قوله سبحانه : نَكِّرُوا لَها عَرْشَها قال قتادة كان سليمان أحب أن يملك عرشها قبل أن تسلم فيحرم عليه أخذ مالها لأنه أعجبته صفته وَ لَها عَرْشٌ عَظِيمٌ و قال ابن زيد أراد أن يختبر عقلها و فطنتها بذلك قوله نَنْظُرْ أَ تَهْتَدِي و قال وهب أراد أن يجعل ذلك معجزة على نبوته .

قوله سبحانه : فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قالَ هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي تكلم العلماء في كيفية إتيانه بالعرش فقال ابن عباس و الكلبي خر آصف ساجدا و دعا باسم الله الأعظم فغار عرشها تحت الأرض حتى نبع عند كرسي سليمان و قالوا حملته الملائكة بأمر الله أو الريح حملته أو خلق الله فيه حركات متوالية أو انخرق مكانه حيث هو هناك ثم نبع بين يدي سليمان أو الأرض طويت له أو أعدمه الله في موضعه و أعاده في مجلس سليمان و هذا كما روته الشيعة أن تولي غسل الإمام و الصلاة عليه موقفان على الإمام الذي يتولى الأمر بعده و قال المرتضى يراد بها الأغلب الأكثر و مع الإمكان و القدرة و استدل بوفاة موسى بن جعفر و علي بن موسى بطوس و ابناهما بالمدينة فمن أراد خلافه استدل بهذه الآية و بقوله سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى

و بصعود الملائكة و نزولهم و طوفان إبليس و الجن في العالم بسرعتهم .

قوله سبحانه : وَ اتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّياطِينُ عَلى مُلْكِ سُلَيْمانَ وَ ما كَفَرَ سُلَيْمانُ فكأنه أخبر بأنهم اتبعوا ما يكذب فيه الشياطين على ملك سليمان و يضيفه إليه من السحر فبرأه الله تعالى من قرفهم فقال وَ ما كَفَرَ سُلَيْمانُ .

قوله سبحانه : وَ ما أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ أراد أنهم يعلمونهم السحر الذي أنزل على الملكين و إنما أنزل عليهما وصف السحر و ماهيته و كيفيته للاحتيال فيه ليعرفا ذلك و يعرفاه الناس فيجتنبونه و يحذروا منه كما أنه تعالى قد أعلمنا ضروب المعاصي و وصف لنا أحوال القبائح لنجتنبها لا لنتوقعها إلا أن الشياطين كانوا إذا علموا ذلك و عرفوه استعملوه .

قوله سبحانه : وَ ما يُعَلِّمانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُما ما يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ زَوْجِهِ أي فيعرفون من جهتهما ما يستعملونه في هذا الباب و إن كان الملكان ما ألقياه إليهم لذلك و لهذا قال وَ يَتَعَلَّمُونَ ما يَضُرُّهُمْ وَ لا يَنْفَعُهُمْ لأنه تعلموه ليفعلوه لا أن يجتنبونه فصار ذلك بسوء اختيارهم ضررا عليهم ثم إن التفريق إما أن يكون من جهة الديانة أو الجبر أو الحكم أو الحيلة و معلوم أنه لم يكن للإيجاب و الجبر و الحكم فلم يبق إلا الحيلة أو الديانة كما كانت الكفار يقولون للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إنه يفرق بين المرء و زوجه .

قوله سبحانه : ما لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كانَ مِنَ الْغائِبِينَ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ إنما جاز هذا المقال لأنها أعقلت أمره و نهيه فقامت عليها الحجة من ذلك لأن الله تعالى سخر الطير له قوله وَ الطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَ تَسْبِيحَهُ .

قوله سبحانه : إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَ إِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ إنما قدم اسمه على اسم الله تعالى لأن اسمه كان عنوان الكتاب و العنوان أبدا مقدم على الخطاب و قيل قدم اسم نفسه أي إن الكتاب من سليمان و إن المكتوب بسم الله الرحمن الرحيم و قيل لأنه

[٢٥٥]

كان سمع من الهدهد وَجَدْتُها وَ قَوْمَها يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ فقدم اسمه حذرا أن يسبوا الله و قيل لأنها كانت كافرة و الكافر لا يخوف بالله لحمية الجاهلية قال وَ إِذا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ .

فصل :

قوله تعالى في قصة يونس (عليه السلام) وَ ذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ لا يجوز أن يغاضب ربه إلا من كان معاديا له أو جاهلا بأن الحكمة في سائر أفعاله و هذا لا يليق باتباع الأنبياء فضلا عمن عصمه الله و إنما كان غضبه على قومه لمقامهم على تكذيبه و إصرارهم على الكفر فخرج من بينهم خوفا من نزول العذاب و هو مقيم بينهم .

قوله سبحانه : فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ أي لا نضيق عليه المسلك و نشدد عليه المحنة و التكليف و ذلك يجوز أن يظنه النبي و لا شبهة إن قدرت و قدرت معناه التضييق قال تعالى وَ مَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ و قال يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ و ضيق صدر يونس (عليه السلام) مما أصابه في بطن الحوت .

قوله سبحانه : فَنادى فِي الظُّلُماتِ أَنْ لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ على سبيل الانقطاع إلى الله تعالى و يجوز أن يريد بذلك أي بخست حتى يترك النوافل و يجوز أيضا أن يكون صدقا أي من الجنس الذي يقع منهم الظلم .

قوله سبحانه : فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَ لا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ أي إنه لم يقو على الصبر على تلك المحنة التي ابتلاه الله بها و عرضه بنزولها لغاية الثواب فشكا إلى الله تعالى منها و سأله الفرج و الخلاص و لو صبر لكان أفضل فأراد الله تعالى لنبيه (عليه السلام) أفضل المنازل و أعلاها .

[٢٥٦]

فصل

قوله تعالى في قصة عيسى (عليه السلام) إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ قال ابن عباس و قتادة سماه الله كلمة لثلاثة أوجه أحدها أنه أوجده بكلمة من غير واجد و هو قول كن كما قال إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ و الثاني لأن الله بشر به في الكتب السالفة كما يقول الذي يخبرنا بأمر يكون قد جاء قولي و كلامي و الثالث لأن الله يهدي به كما يهدي بكلمته .

قوله سبحانه : إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيًّا فقالت مريم متعجبة أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَ لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ على وجه الزوجية وَ لَمْ أَكُ بَغِيًّا .

قوله سبحانه : وَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها يعني مريم و الإحصان إحراز الشيء من الفساد فمريم أحصنت فرجها بمنعه يعنى من الفساد فأثنى الله تعالى عليها .

قوله سبحانه : فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا أجرينا فيها روح المسيح كما يجري الهواء بالنفخ و أضاف الروح إلى نفسه تعالى على وجه الملك تشريفا لها للاختصاص بالذكر .

قوله سبحانه : إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا أي إن كنت تتقي عبادتي به ليقيك هو أو قلت كف عني و لا تؤذيني إن كنت تقيا فإن التقي يمسك لخوفه كما يقول القائل إن كنت مؤمنا فلا تظلمني و يقال التقي اسم رجل ملعون مشهور بالبطالة .

قوله سبحانه : يا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هذا إنما تمنت الموت قبل تلك الحال التي قد علمت أنها من قضاء الله تعالى لكراهتها أن يعصي الله بسببها إذ كان الناس يتسرعون إلى القول فيها بما يسخط الله و قال قوم إنها قالت بطبع البشرية خوف الفضيحة و قال قوم المعنى في ذلك أني لو خيرت قبل ذلك بين الفضيحة بالحمل و الموت لاخترت الموت .

[٢٥٧]

قوله سبحانه : يا أُخْتَ هارُونَ ما كانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ .

قال مقاتل روي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال : هارون الذي ذكروه هو هارون أخو موسى .

و تأويل يا أُخْتَ هارُونَ يا من هي من نسل هارون كما يقال يا أخا بني تميم و يا أخا بني زهرة قال الله تعالى وَ إِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً * وَ إِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً يعني من نسلهم قال سعيد بن جبير رضي الله عنه إن هارون المذكور فيها كان رجلا فاسقا فلما أنكروا ما جاءت به من الولد و لم يعرفوا براءة ساحتها نسبوها إليه تشبيها و تقدير الكلام يا شبيه هارون في فسقه و يقال إن هارون هذا كان أخاها لأبيها دون أمها و كان رجلا معروفا بالصلاح و قيل إنه لم يكن أخاها على الحقيقة بل كان رجلا صالحا من أهلها .

قوله سبحانه : فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً قال الجبائي كان الله تعالى أمرها بأن تنذر لله الصمت فإذا كلمها أحد تومئ بأنها نذرت صوما أي صمتا لأنه لا يجوز أن يأمرها بأنها تقول نذرت و لم تكن نذرت لأن ذلك كذب و قال ابن عباس و الضحاك يريد بالصوم الصمت و قال ابن مسعود رضي الله عنه أمرها بالصمت ليكفيها الكلام عنها ولدها ما يبرئ من ساحتها و لا تناقض في قوله إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً لأنه أذن لها في أن تقول إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ أو قلت إنها أومت بذلك كما قال فَأَشارَتْ إِلَيْهِ .

قوله سبحانه : إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتانِيَ الْكِتابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا قال الحسن و أبو علي معنى قوله وَ جَعَلَنِي لأن الله تعالى أكمل عقله و أرسله إلى عباده و لذلك كانت له تلك المعجزة و قال ابن الإخشيد كان ذلك إرهاصا لنبوته و قالت الإمامية معناه أني عبد الله سيؤتيني الكتاب و سيجعلني نبيا فيما بعد و كان ذلك معجزة لمريم على براءة ساحتها .

قوله سبحانه : وَ يُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَ كَهْلًا إنه يكلمهم بالوحي الذي يأتيه من قبل الله و إنه تعالى أخبر أن عيسى تكلم في المهد أعجوبة و خبر أنه يعيش يكتهل

[٢٥٨]

و يتكلم في الكهولية و لم يقل و شيخا لأنه عاش نيفا و ثلاثين سنة على ما جاءت به الأخبار و أنه يبلغ حال الكهل في السن لكون المخبر على ما أخبر به ثم إن المراد به الرد على النصارى بما كان منه من التقلب على الأحوال لأنه مناف للصفة الأولة .

قوله سبحانه : وَ رُوحٌ مِنْهُ جاز أن يقال المسيح روح الله لأن الأرواح كلها ملك لله و إنما خص المسيح بالذكر تشريفا له بهذا الذكر كما خص الكعبة أنها بيت الله و إن كانت الأرض كلها له تعالى .

قوله سبحانه : وَ أُحْيِ الْمَوْتى بِإِذْنِ اللَّهِ على وجه المجاز أضافه إلى نفسه و حقيقته أدعو الله بإحياء الموتى فيحيون بإذنه .

قوله سبحانه : أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ لم يقيده بإذن الله تعالى لأن المراد به التقدير ثم قال بِإِذْنِ اللَّهِ لأنه من فعل الله دون عيسى أما التصوير و النفخ ففعله لأنه مما يدخل تحت مقدور القدر و ليس كذلك انقلاب الجماد حيوانا فإنه لا يقدر عليه أحد سواه تعالى و قال في موضع آخر فَتَنْفُخُ فِيها فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي للفظ الهيئة .

قوله سبحانه : وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ معنى ذلك أنه صور الطين و سماه خلقا لأنه كان بقدرة و قوله بِإِذْنِي أي تفعل ذلك بإذني و أمري و قوله فَتَنْفُخُ فِيها

فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي معناه أنه نفخ فيها الروح لأن الروح جسم يجوز أن ينفخها المسيح بأمر الله تعالى كما ينفخها إسرافيل في الصور و كما ينفخ ملك الأرحام في الصورة عند تمام مائة و عشرين يوما على ما جاء في الخبر فإذا نفخ المسيح فيها الروح قلبها الله لحما و دما و خلق فيها الحياة فصارت طائرا بإذن الله و إرادته لا بفعل المسيح فلذلك قال فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَ تُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَ الْأَبْرَصَ بِإِذْنِي معناه أنك تدعوني حتى أبرئهما .

قوله سبحانه : وَ إِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتى بِإِذْنِي أي إذ تدعوني فأحيي الموتى عند دعائك

[٢٥٩]

و أخرجهم من القبور حتى يشاهدهم الناس و إنما نسبه إلى عيسى لأنه كان بدعائه .

قوله سبحانه : وَ إِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّناتِ يجوز أن يكفهم بألطافه التي لا يقدر عليها غيره و يجوز أن يكون كفهم بالقهر كما منع من أراد قتل نبينا (صلى الله عليه وآله وسلم) و قيل لأنه ألقي شبهة على غيره حتى قتلوه و نجا قوله وَ لكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ .

قوله سبحانه : لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ و عندهم هو ابن الله الجواب لأنهم زعموا أنه إله و هذا الاسم إنما هو للإله بمنزلة ذلك كما قال الدهري إن الجسم قديم لم يزل و إن لم يذكره بهذا الذكر .

قوله سبحانه : أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمِّيَ إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ تقريع في صورة الاستفهام لمن ادعى بذلك عليه من النصارى لأنه تعالى كان عالما بذلك هل كان أو لم يكن كما يقول القائل لغيره أ فعلت كذا و كذا و هو يعلم أنه لم يفعله و إن كان خارجا مخرج الاستفهام ثم إنه أراد بهذا القول تعريف عيسى (عليه السلام) أن قوما قد

اعتقدوا فيه و في أمه أنهما إلهان لأنه يمكن أن يكون عيسى لم يعرف ذلك إلا في تلك الحال .

قوله سبحانه : ما كانَ إِبْراهِيمُ يَهُودِيًّا وَ لا نَصْرانِيًّا وَ لكِنْ كانَ حَنِيفاً مُسْلِماً حجة على من زعم أن المسيح و الذين آمنوا معه كانوا نصارى .

قوله سبحانه : إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ معناه تفويض الأمر إلى صاحبه و التبرؤ من أن يكون إليه شيء من أمور قومه كما يقول أحدنا هذا الأمر لا مدخل لي فيه و إن شئت أن تفعله و إن شئت أن تتركه مع علمه أن أحد الأمرين لا يكون منه و إنما حسن ذلك منه لأنه أخرج كلامه مخرج التفويض ثم إنه لا يدل على أن المسيح

أراد بذلك أن الله تعالى له أن يعاقب عبيده من غير جرم كان منهم لأنه (عليه السلام) يريد بكلامه ما يدل في العقل على كونه غير جائز عليه تعالى و لا يحسن منه تعالى أيضا أن يترك إنكار ذلك فلما علمنا أن الله تعالى لا يعاقب خلقه من غير معصية سبقت منهم من حيث كان ظلما محضا علمنا أن عيسى (عليه السلام) أراد بقوله إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ الجاحدون لك المتخذون معك إلها غيرك لأن ما تقدم من الكلام دل عليه فلم يحتج أن يذكره في اللفظ .

قوله سبحانه : إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ و عيسى و عزير (عليه السلام) عبدا فإنما قال ما تَعْبُدُونَ و ما لمن لا يعقل ثم إن آخر الآية أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها ... الآية .

قوله سبحانه : وَ ما قَتَلُوهُ وَ ما صَلَبُوهُ وَ لكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ يصح في مقدور الله تعالى أن يلقي شبه زيد على عمرو حتى لا يفصل الناظر بينهما تغليظا للمحنة و تشديدا للتكليف فيكون ذلك خارقا للعادة معجزة لبعض أوليائه الصالحين و الأئمة المعصومين

و عند المعتزلة على أيدي الأنبياء أو في زمانهم لأنه لا يجوز خارق العادة عندهم إلا على أيديهم .

قوله سبحانه : وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ معنى الآية الإخبار منه تعالى بأنه لا يبقى أحد من اليهود إلا ليؤمنن به يعني بعيسى قبل موته و اختلفوا في الهاء إلى من يرجع فقال ابن عباس و أبو مالك و الحسن و قتادة و ابن زيد و الطبري هي كناية عن عيسى كأنه قال لا يبقى أحد من اليهود إلا يؤمن بعيسى قبل موت عيسى بأن ينزله الله إلى الأرض إذا خرج المهدي (عليه السلام) ثم قال الطبري و الآية مخصوصة بمن يكون في ذلك الزمان و قد روي أن الحجاج سأل شهر بن حوشب عنها و قال إني أضرب عنق اليهودي و لا يتكلم بشيء فقال شهر حدثني محمد بن علي يعني ابن الحنفية أن الله تعالى يبعث إليه ملكا يضرب رأسه و دبره و يقول كذبت عيسى فيؤمن حينئذ كرها و قال

[٢٦١]

مجاهد و الضحاك و عكرمة الهاء كناية عن اليهودي و تقديره لا يكون من أهل الكتاب مخرج من الدنيا إلا و يؤمن بعيسى عند موته إذا زال تكليفه و تحقق الموت و لكن لا ينفعه الإيمان حينئذ .

تم الجزء الأول من كتاب متشابه القرآن و مختلفه و يتلوه الجزء الثاني و أوله قصة نبينا (صلى الله عليه وآله وسلم) و الحمد لله رب العالمين و الصلاة على خاتم النبيين و آله الطاهرين